مكتبة الأسرة 1999

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الإبداعية

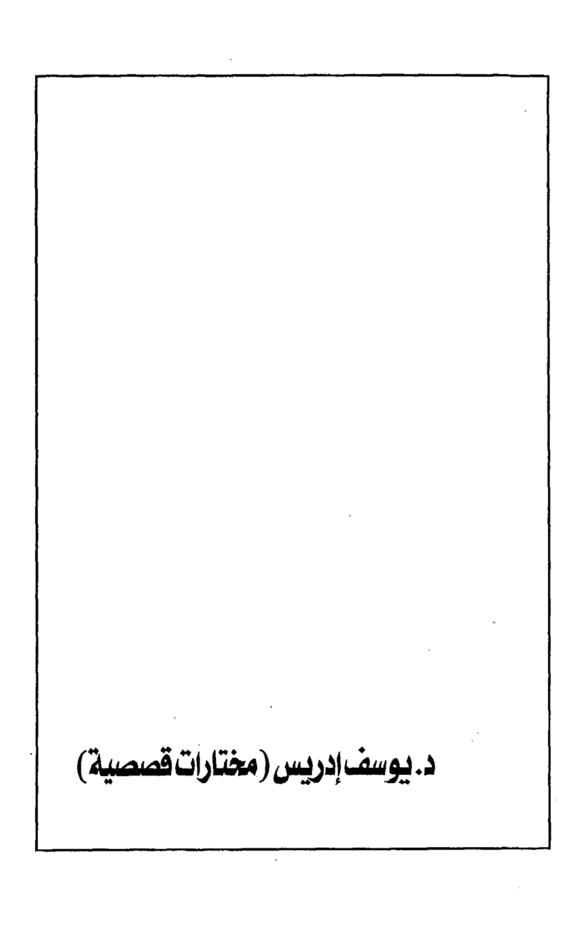
يوسف إدريس

مختارات قصصية



تحرير: مايسة زكى

الهيئة المصرية العامة للكتاب



د. يوسف إدريس (مختارات قصصية)

د. يوسف إدريس

مختارات قصصية

تحرير: مايسة زكى



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

د. يوسف إدريس (مختارات قصصية)

تحرير: مايسة زكى

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

الذاهبون إلى آخر الدنيا

ربما يبدو لك وأنت تغلق هذا الكتاب أنه يضم جزءاً يسيراً جداً من يوسف إدريس (١٩٢٧-١٩٩١)، بينما تعملق جسده خارجه، وقلبه يضخ إلى الأطراف المترامية، والرأس اخترقت حافة الكتاب العليا متذمرة حتى تتنفس مجمل إبداعاته القصصية وإسهاماته المسرحية والصحفية بعيدة المدى، عميقة الغور.

لكن في هذا الكتاب الذى يتوخى الترتيب التاريخى * كلما أمكن، نحاول أن نتلمس معاً عذوبة ورقة رجل شاكس كثيراً، وملأ الدنيا ضجيجاً وصخباً، واشتهر بحسية بالغة ومساءلة أعماقنا المتوارية وقيمنا الثابتة المستقرة. تشكل وعيه فى زمن يمور بالثورة والرغبة فى التغيير، والآداب والفنون تحتل القمة من اهتمامات السلطة والناس.

نتوقف كثيراً عند الطفل عند يوسف إدريس. فعلى قدر ما شاغلته علاقة المرأة والرجل على قدر ما عبر عن وعى الطفل وحساسيته. وربما

* اعتماداً على بيليوجرافيا يوسف إدريس التى أعدها د. حمدى السكوت ود. مارسدن جونز، والمنشورة بكتاب « يوسف إدريس(١٩٢٧ - ١٩٩١)»، إشراف د. سمير سرحان وإعداد: اعتدال عثمان - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١ .

أعانته حواسه المتيقظة أن يعى مدى أهمية قبضة ولمسة يد الطفل فى قصة «آخر الدنيا» على القطعة ذات القرشين، منحة أبيه. يتشبث بها ويذهب إلى آخر الدنيا بحثاً عنها عندما تضيع. ربما تعوضه عن أبيه الذى رحل رحيلاً خافتاً التف حوله وتجاهله. وربما يذهب حقاً إلى آخر الدنيا فى سبيلها ويلقى حتفه هو أيضاً بلا وعى، مركزاً كل حواسه كل إنتباهه ومدى حلمه فى لمسة يده على القطعة الناعمة الخشنة... لمسة الأمان تلك التى قد يغيب فيها تماماً والقطار يقترب والموت يحوم.

بل إنه عندما يقرر أن يبحث فى سر الحاجة الماسة للزواج ويفسر الرباط الأسرى الخالد الذى يتوق الناس للإفلات من قيوده كثيراً، لكنهم يبقون عليه غالباً، يذهب إلى لعبة الأطفال القديمة والعلاقة الغريزية الحميمة التى تنشأ بين طفل وطفلة يمثلان ويبنيان بيتاً. الانجذاب والتعلق الفطرى الذى يعطى للأشياء.. كل الأشياء.. معانيها ومذاقها.

وكما يتضح من تلك المجموعة يتصل مفهوم الثورة ـ ثورة يوليو ـ فى سنواتها الأولى عند إدريس ببراءة ويقين الطفل، وقابليته للتصديق، ومساحة الحلم الممتد فى قصص مثل «صح» و«البطل» و«جمهورية فرحات»، حيث كشف عن الأمانى المجلوة فى قلب الصول فرحات الذى يتسع لحلم التغيير الكبير الذى لا يخلو من سذاجة، والذى تسجنه القسوة الظاهرة والواقع الخشن المتخلف فى قسم البوليس، تلك القصة التى كانت نواة مسرحيته الأولى.

بل إنه حلم طائر يلف العالم كله، فيختار له إدريس صيغة الحديث اللاهث الذى لا تقطعه جملة أو حدث، والذى يتكرر فيه السؤال: أليس كذلك؟ صيغة السؤال الذى يميل إلى اليقين والتثبت عنه إلى التشكك.

وذلك على لسان رجل هندى يزور مصر مبهوراً بها وبتقدم الشعبين في عز حركات التحرر وعدم الانحياز.

ويحمل صهيل الإحساس بالذات وبقدرات شعب في ظل ثورة فتية تود لو تقلب مسار التاريخ قلباً.. يحمل هذا الصهيل إدريس إلى الانضمام إلى جيل من التشكيليين والموسيقيين أحيوا الاتجاه القومى والوطنى فى وصف مصر واستلهامها. فأبدع فى رسم البورتريه، وتترى النماذج فى هذه المجموعة للبسطاء الذين يكتشفهم، ويكتشف البعد الجمالى فى عاداتهم، وإن استنكرناها. فقد كان مشروع التقدم الذى آمن به إدريس وصدقه يبدأ باستيعاب هؤلاء الفقراء البسطاء الذين لا يكاد يلحظهم أحد ـ وهو منهم ـ بدءاً من الطفلة فى قصة «نظرة» وحتى اللوحة الكبيرة لليل القرى فى قصة «فى الليل»، يتوسطها عوف: نموذج الفرفور عند الكاتب الذى نما وترعرع فى مسرحيته الأشهر «الفرافير» ليسأل السؤال الكونى المسرحى: أنت سيدى ليه؟

هذا الفرفور الذى بدأ معه رحلته الإبداعية مبكراً منذ عام ١٩٥٣ وتلك اللوحة يجسد فيها إدريس سامر القرية: متعاتهم الصغيرة، رشفات الشاى، وضحكات تتحايل على هم النهار الماضى والمرتقب غداً وبعد الغد. يحتل أداء عوف منه القلب.

هذا وجه لليل ترطبه الشفقة والحب والفهم لليل القرية المصرية عام ١٩٥٣. قد يشحب فى هذا الوجه الإحساس بليل العصور الوسطى المخيف الذى ينبث فى قصص أخرى للكاتب، وهو بعد طفل فى قريته، لكنه ليل يئن أنيناً حيياً يداريه الفلاحون الفقراء بالضحكات، كما

يوارون الحاجة الملحة للتقدم والنور. وربما يكون هذا الوعى هو الذى عنّ لإدريس وهو يكتب «لغة الآى آى» عام ١٩٦٤.

هذا الوخز لقرية تركها وراءه من أجل حياة المدينة المبهرة الشرسة. هذا الطبيب الكاتب الذى تقلب على أوجاع الناس ولغات الألم يصيخ السمع لرفيقه فى القرية وهو يطلق أصوات العذابات المستحيلة السحيقة. تترى الآلام: ألم الإهمال والفقر، وألم المرض المزمن، وألم التخلف. هنا نرى إدريس بكل حواسه المشرعة يستقبل العذاب العميق الغائر، الجرح الذى يهرب منه.

نفس الحاسة الموسيقية مضبوطة على موجة أخرى جعلته يؤلف قبل ذلك بسنوات لحنا شجياً من دقات صاجات بائع العرقسوس عن هزيمة يوم غارب من أجل يوم جديد فى «مارش الغروب».

لهذا فإن شاباً ولد مع الثورة ورأى البطولة فى بسطائها جماعات وفرادى، وألح عليه نداء التقدم والتميز وصدقه، فليس مثله يتوقف فى كهولته ـ وهو الشاب أبداً ـ عند حادث حقيقى هو انقضاض الأسد عام ١٩٧٢ على المدرب الكبير محمد الحلو فى السيرك. هو الذى يشهق الإحساس بموت البطولة وتحول الجماعة إلى (أكيلة عيش) لا حاجة لهم أو للآخرين أن يثبتوا تفردهم. هو الذى يدافع عن الحيوان الجميل كما يدافع عن الإنسان البطل، ويحمل من كل منهما صفات البقاء الجميل.

والبقاء وصراع البقاء وإيقاع الزمن من الموضوعات التى شغف بها الطبيب الكاتب منذ قصته «٥ ساعات» عام ١٩٥٢، والتى نستهل بها

المجموعة، حيث الصراع من أجل إنقاذ المناضل مدموغاً بلهفة الجماعة حوله وكأنها أمنية أمة بأكملها أن يعيش، حتى تجاعيد الزمن الغائرة التى تعلّم المرتبة على مدى سنوات طويلة فى «المرتبة المقعرة» فى صفحة ونصف، إلى ذلك التحدى القصصى اللغوى البنائى الذى يصف دقيقة ما بين الغرق والنجاة فى «حلاوة الروح» عام ١٩٧٠.

وليس أكثر تعبيراً عن معنى الكتابة لدى يوسف إدريس من شهادته التى صاغها عام ١٩٨١ فى «يموت الزمار». الكتابة بإعتبارها وجودا وقدرا لا يمكن الإفلات منه.

ويمد إدريس يده فى هذه المجموعة المنتقاة، وإبداعه القصصى يأفل ليتوهج فى ميدان الصحافة، إلى قصة «الختان»، واحدة من قصصه الأخيرة عام ١٩٨٢. يمد يده إلى ثمر شجرة الجميز العتيقة يختنه ليخصب من بعده وينمو ويتألق، و.....يموت الزمار، واحد من جيل الاستطالة والنهضة، تمتد فروعه إلى ميادين القصة والرواية والمسرح والمقال الأدبى المقاتل.

فهل كانت فتوة زمن أو لحظة تاريخية ـ رغم كل تناقضاتها ـ تذهب إلى آخر الدنيا وتخط «بعد كل أفق أفقاً» أم كاتب يذهب إلى آخر دنيا الإبداع، تتقافز كلماته وصيغه الأدبية خفة مصرية وتتلوى ألماً دفينا وتسأل سؤالا بعيداً وحلماً فسيحاً.

فى إحدى قصص يوسف إدريس وصف نفسه وربما حلم زمنه: «حتى لو عرفت أنى هالك فى قلب الشمس لن أتوقف».

مايسة زكى

القاهرة ١٩٩٩

٥ ســـــاعـــــات

كنت أجلس على المقعد ذى المسند العالى وأمامى المكتب المتهالك وقد ملأه الأطباء الذين عملوا قبلى بأسمائهم التى حفروها عليه، والحجرة قديمة قدم القصر العينى، وكل شئ فيها قد رأيته مرات ومرات حتى ارتويت.. كل شئ حتى بقايا القطن والشاش والدماء الجافة المتناثرة فوق الأرض، والترمومتر المكسور الذى وارته الممرضة لتوها فى ركن الغرفة.. كل شئ حتى الأنات الصادرة من الكمسارى الراقد هناك وقد انتهت من إعطائه حقنة لم تستطع أن تخدر المارد الجبار الذى كان يعتصر كليته.

وفجأة.. دق جرس الإسعاف..

دق فى قصر مرتفع مبتور..

ولهذا الدق عند كل الناس معنى.. معنى يحمل فى طياته رهبة تشرخ قلوبهم، ورعشة تنتفض لها أعصابهم.. فإنه يعنى إنسانا يموت أو سيموت. أما عند الأطباء فإنه يحمل فى طياته عملا، ويبعث فى

* التحرير ١٠/١٩٥٢ (المجموعة القصصية : أرخص ليالى).

تفكيرهم بالخيط وقد لضم فى الإبرة.. والجلد وقد تعقم. ورائحة المخدر وقد تصاعدت مختلطة برائحة صبغة اليود.. وحشرجة إنسان يتعذب..

ودق الجرس مرة ثانية..

وتوقفت، وتوقف التومرجى عن سرحانه واستدار ليلقى ببقية سيجارته خلسة، ثم عاد ينظر إلى من جديد وقد زال الحرج الكثير الذى شعر به طيلة أنفاسه المختلسة.

وسادت فترة صمت كنا نتسمع خلالها عويل عجلات (الترولى) وهو ينساب قادما إلينا عبر الممر الطويل.

ودلف رجل الإسعاف إلى حجرة الاستقبال وقال وهو يكاد يلهث:

- حالة ضرب نار يا بيه!. واحد ضابط اغتالوه فى الروضة!

ضرب نار!.. ضابط!.. اغتيال!..

لم أعد نفسى حينئذ لصبغة اليود وماسك الإبر والخيط، فقد اختفى من شخصيتى تماماً عامل الحياة، وطفحت تلك الكلمات القلائل فوق ذهنى يدفعها بركان يختزنه شعورى عن الاغتيال والظلام وضرب النار.

وقبل أن أستعيد نفسى، انساب (الترولى) إلى الحجرة فى نفس اللحظة التى مزقت فيها سكون المستشفى كله صرخة مدوية طويلة صادرة من الأدوار العليا.

وغادرت المقعد فى لهفة، وانكببت على الجريح أراه وأرى النار التى أتت عليه.

والحق أننى لم أر ما حدست رؤيته، فقد كان الرجل يرقد فى ثقة وقد أسبل عينيه وشبك ذراعيه فوق صدره وزم شفتيه. واسترعتنى ملامحه.. كانت فيها مصرية.. مصرية من ذلك النوع الذى يوقظ فيك مصريتك ويجعلك تعشقها من جديد. وكان أسمر.. تلك السمرة التى إذا ما تمعنت فيها وجدت فى صفائها تاريخ شعاعات الشمس المجيدة التى صنعت الحضارة على جانبى النيل. وكان شاربه الأسود الكث يلون تلك السمرة وتستشف منه رجولة.. رجولة تبعث القشعريرة فى الرجال.. وكان جسده صلبا شاهقا وعنقه ممتلئا غليظا يضج بالحياة والفتوة. ومع هذا يقولون مضروب بالنار.

وقفت أحدق فيه ولا أتحرك، ولم أعد إلى نفسى إلا حين هم بالكلام إذ ملت عليه ألتقط الكلمات، وإذا بى أقول فى صوت مستنكر هامس:

- إيه ؟!.. قتلوك ؟!..

ومضى فى نفس صوته المملوء المنخفض الرنان يقول:

- قتلونى.. فى الضلمة.. ضربونى بالنار.. هنا.. فى ضهرى..

وسألته وأنا ملسوع دهش:

- مين.. مين هم ؟!..

فقال وهو مسترسل بنفس صوته الذى كان يجذبنى إليه بقوة وعنف:

ـ المجرمين.. ورئيسهم.. العصابة.. كلهم.. أولاد الكلب..

ثم توقف لحظة وحدق بعينيه السوداوين الواسعتين وكأنه يخترق سقف الحجرة إلى ما وراءها من سماء:

ـ كده يا فاروق.. تقتلني؟!..

وتلقف الواقفون كلماته.. وسرت الهمهمة من داخل الحجرة.. إلى الخارج.. إلى الشارع.. إلى البلد كله.. إلى التاريخ.

وأحسست بنفسي أنفعل وكأن نارا قد شبت فيّ. كنا أيامها تحت حكم فاروق.. وكانت هناك أحكام عرفية.. وكان الظلام والسخط يخيم على مصر ويعشش في قلوب الناس.

وكان لا يحمل إليّ إلا ضحايا العربات وعجلاتها وصرعى الترام وعتاة المتشاجرين، وكان ذلك أول جريح أراه مضروبا بالرصاص.

ولم أعد أتمالك نفسي..

تناسيت أني طبيب وتناسيت ما عليّ من واجب، ولم أعد أفكر إلا كمصري يختنق بالظلم ثم يرى الظالم صرع أخاه.

وغمغم الرجل المسجى أمامي..

وعدت أنظر إليه وأدقق النظر..

كان وجهه يصفر ويصفر، وكانت تقاطيعه المفتولة تتراخى تحت وابل من نقط العرق الصغيرة وهي تتجمع فوق جبهته وعلى وجنتيه كقطرات الندى تتجمع على زهرة تذبل. وتلمست جسده فوجدته

بارداً.. لم تكن برودة الثلج.. إنما كانت برودة ممر طويل فى نهايته الفناء والضياع.

وقفزت إلى ذهنى فى قوة الانفجار تلك الكلمة التى طالما استبشعتها:

- صدمة!..

نطقت بها غير شاعر أنى أنطق، ومددت يدى أتحسس ذراعه مرة أخرى لأرى نبضه، وصدرت من بين شفتيه اللتين كانتا قد ازرقتا تماماً أنة طويلة عميقة تعوى وتتلوى. وجمدت يدى فى مكانها..

- آخ.. آه.. ذراعى.. ذراعى مخلوع..

والتقط بضع أنفاس لاهثة.

وكنت أعرف الألم الذى لا يطيقه بشر حين تتحرك الذراع المخلوعة، إنه الألم الذى يصدم ويقتل ويميت. ومع هذا فقد كان علىّ أن أرى الإصابة.. وكان عليّ أن أديره، وأوقفت شعورى وأوقف الرجال الموجودون أنفاسهم ورنات آهاته وآلامه تخرسنا جميعاً.

واستقر بصرى على أربع دوائر سوداء وحولها ظلام الجلد المحترق. وكنت أعرف ما يؤدى إليه السواد والظلام. فقد كان يؤدى إلى ثلاث قطع محمية من الرصاص استقرت داخل الصدر، وقطعة نفذت واخترقت الرئة وسال من منفذها الدم!

وقلت وكأننى أستنجد بشئ غامض ولكنه قادر:

- الإسعاف السريع!..

كان فى هذه الكلمات ـ إذا احتاج الأمر أن أقولها ـ ما يرد لهفتى دائما لهفة المريض فى بعض الأحيان، وهرج التومرجية والممرضات فى كليهما.. كان فيها معنى النجدة. كانت تصور لى ظلام الريف الواسع المفتوح، وإنسانا يستغيث فى لهفة راجفة، فإذا بلهفته ترد إليه، ورجفته يعقبها طمأنينة، حين يسمع من بعيد ومن أغوار الظلام ذلك الصوت المغيث تردده فتحات الفضاء:

ـ جايلك يا واد.. جايلك..

* * *

وعلى نفس السرير الذى مات عليه عبدالعليم الطالب الصغير الذى أصيب بخبطة هوجاء فى رأسه أثناء المظاهرات، والذى مات عليه صديق ابن العريجى الذى مرت فوق صدره عربة أبيه فتهشمت ضلوعه، والذى مات عليه شعبان وصالح وعبداللطيف ومحمد.. على نفس هذا السرير رقد عبدالقادر الجريح وحوله أسطوانات الأكسيجين، وأجهزة نقل الدم، وأوعية الماء الساخن، وطلاء الحجرة الأبيض الناصع، وأزيز غلاية الماء، وحفيف البخار المتصاعد، ومجموعة من الأطباء وممرضة، وصمت ترعشه أنات عبدالقادر.

وما كادت آخر قطرة من أول لتر من الدم تأخذ طريقها إلى قلبه حتى اختفت قليلا تلك الصفرة التى علت وجهه، وخفتت حركات عينيه حتى تركزت حدقتاه علىّ، وظل يحدجنى ببصره طويلا كالذى يتحفز لفعل شئ دون أن ينطق بحرف. وعجبت لهذا التحديق، ثم زاد عجبى وأخذت دوائر صغيرة من القلق تتداح فى صدرى..

وفي اللحظة التي بدأ الخوف طريقه إليّ تحركت شفتاه وتغيرت ملامحه، ثم استقرت تقاطيعه على ابتسامة كانت أجمل ما رأته عيناى ليلتها..

ولست أدرى ما ارتسم على وجهى لحظتها، فقد أحسست بفرحة غامرة دق لها قلبى.

وطالت ابتساماتنا وامتدت، حتى قلت له وكأننى أقولها متأخرا جدا:

- إزيك؟.. إزيك دلوقت؟..

ونطق بهمسة لاهثة:

- أحسن.. أحسن كتير..

وشيئا فشيئا بدأت ابتسامته تتلاشى وراء غيوم.. ثم اختفت، وأظلمت ملامحه وتقاربت تقاطيعه وانطلقت من سواد عينيه أشعة تبرق فقلت وأنا قلق:

- مالك؟!.. فيه حاجه؟!..

وتوترت أنفاسه اللاهثة واندفع يقول كالذى يخنقه كابوس:

- أبوه.. على.. على.. النذل.. يجرنى للضلمة. وأنا صاحبه.. صاحبه.. الخاين.. بس لو أروق له؟.. وأروق لهم؟..

وتعبت تقاطيعه.. وخفت البريق وأصبح سواد عينيه أكثر سوادا، وتلألأت فجأة تلك القطرات الصغيرة الشريرة من العرق على جبهته وعلى وجنتيه.

ولعل الابتسام هو ما كان يحاول فعله فلا تطاوعه قسماته. حين قال في صوت خافت غير مهتز:

- ميه!.. عاوز أشرب!.. عطشان!..

وكانت يدى أسبق من يد الممرضة أمدها إليه بقطعة القطن وقد بللتها بالماء لأمسح بها شفتيه ولسانه. وطاوعته القسمات في النهاية فابتسم وهو يقول:

- متشكر.. متشكر يا دكتور.. كمان.. كمان.. عطشان.. يا ناس.. عاوز أشرب..

وكانت يدى أسبق من يد الممرضة لتمنع عنه الماء هذه المرة.

وسمعت نقراً على الباب.. وحين فتحته وجدت الممر الطويل يضيق بالناس والهمسات والتوجس. واندفعت العيون نحوى ولمحت في كل العيون تساؤلا.. ورجاء.. رجاء في أمل.

ودخل كاتب الاستقبال صامتا على غير عادته لا تستقر نظراته، كالذى يبحث عن شئ ونسى ما يبحث عنه. واتجه إلى الركن الذى وضعنا فيه أشياء عبدالقادر.. بذلة في ظهرها ثقوب.. وقميص أبيض لا تهتم لبياضه بقدر ما تقشعر للدائرة الحمراء البشعة على صدره الأيمن.. وعلبة فيها ثلاث سجائر.. ومنديلان.. وقطعة حلوى.. وحافظة نقود فيها فوق ما فيها من أوراق صورة قديمة تثنت حوافها لطفل صغير.

وتلكأ الكاتب قليلا بعد أن انتهى من مهمته ودار ببصر ذاهل فى أرجاء المكان، واستقرت عينه بعد تردد على عبدالقادر.. ثم غادر الحجرة تاركاً خلفه أصداء همهماته المكتومة.

وأغلقت الباب..

* * *

وكان الوقت قد تأخر، والمصابون الذين يتطلبوننى قد انتهوا أو كادوا، والليل قد عم أرجاء المستشفى، والظلام فى الخارج واسع واسع لا حدود له، والنور فى الداخل ساطع يلمع له كل شئ، والغلاية تزن، والممرضة تتثاءب، والتومرجى واقف قد ألصق ساقيه بحافة السرير، والهواء أصبح لزجاً ثقيلاً..

وأحسست أول الأمر أن أشياء كثيرة حولى تلهث..

ثم شعرت بالحجرة كلها تزفر وكأنها رئة محمومة..

والتفت حول قلبى أصابع رفيعة غامضة وشددت قبضتها.

ووجدت نفسى أقف وأتمشى فى الحجرة، ورفعت «كوبس» الغلاية وأعدت رباط «محلول الملح» وما كان فى حاجة إلى رباط..

ومع هذا بقيت الحجرة كلها تلهث كرئة المحموم..

وعلى حين بغتة عرفت ما حدث..

ووقفت أرقب صدر عبدالقادر الصاعد الهابط وأتمعن فيه وهو يجاهد ليستخلص الهواء فتنقبض كل جارحة من جسده، ويصبح وجهه كالقمر

المخنوق، ثم يناضل ويتألم وهو يناضل حتى يدفع القليل الذى استخلص ويستعد للأقل الآتى..

كان يتنفس وكأنما حجر ضخم يجثم فوق صدره ولا يستطيع منه فكاكا..

واحتار السبب فى رأسى قبل أن يجد الجواب..

وأملت نفسى قليلا أرى الجانب الأيمن..

ورأيت الدم.. الدم لا كما اعتدت رؤيته يلون جرحا أو يخضب رأسا وإنما الدم المندفع فى نافورة حمراء وقد أغرق الملاءات وشبعت منه المرتبة، ومضى يتساقط عبر حديد السرير الأبيض نقطة وراءها نقطة، وسريا وراءه أسراب..

لقد بدأ النزيف..

وبحثنا جميعا عن كل ما استطعناه من قطن وشاش نكتم به الدم المتصاعد الوهاج.

واحمرّ القطن الأبيض وامتلأ.. واعتصرناه ثم وضعناه فعاد يمتلئ ويتسرب منه الدم بإصرار وعمد إلى أرض الحجرة.

وأفلحنا أن نسد الثقب المتربص تحت الثدى الأيمن كالعدو المبين.. وألصقنا عليه المشمع طبقة فوقها طبقة.. ولم أثق فى المشمع فوضعت يدى فوقه أكتم بها النزيف.

ووقع بصرى على يدى فوجدتها كلها دم جف وآخر لم يجف.

ولم يكن هذا أول دم أراه، كانت رائحة الدم تملأ أنفى دائما منذ أن عملت فى الاستقبال، الرائحة التى لها دفؤه.. الدفء الخانق القابض، والتى تلمح خلالها زفارة كعفن الموت.. الرائحة التى تذكرك بالمذبوحين والمبقورين ومن فى صدورهم سل..

ولكن فى تلك الليلة كنت كلما رأيت دم الجريح المغتال يجف فوق يدى وينكمش حين يجف، كلما أوغلت فى تأملى للجريح الذى لابد كان رجلا ككل الرجال.. نما من طمى وادينا.. ومضغ قمحنا.. وارتدى قطننا.. وصنعت أذرتنا خلاياه..

وكلما أوغلت فى تأملى هممت أستعيد ما فات، وأرى الأجداد والآباء والشهداء الذين لهم أسماء فوق الرخام، والشهداء الذين بلا أسماء ولا رخام، وأرى الناس ونفسى وكل من له عرق وكل من له خال، وكل أولئك القانعين بالألم.

أهيم ثم أعود إلى يدى التى فوق صدر الجريح.. إلى الأصابع التى تحاول عبثا أن تمنع موتا جديدا.. وأى موت؟..

عدت مرة لأجد اللاصق الذى وضعته قد انتزعه الدم الساخن المتصاعد، والنافورة قد بدأت..

وضغطت يدى، وأجلت بصرى أراقب بقايا الزجاجة الخامسة من الدم وهى تسيل من الجهاز إلى شرايين الجريح، وتدفعها الشرايين إلى الثقب الذى ما كانت تستطيع يدى أن تفلح فى سده، وينتهى الدم إلى خيط النقط الغليظ وهى تتساقط على أرض الحجرة الصلبة.

وفرغ كل ما فى المستشفى من دماء صالحة.

ولم يفرغ الدم المنبثق.

وكنت وزميل جاء يساعدنى تتقابل نظراتنا ثم تتباعد لتغيب عقولنا..

وكان لابد من دم آخر..

وانتهت دورة الزميل على مستشفيات القاهرة كلها وقد عاد بلتر واحد.. آخر لتر من الدم فى البلد.. وآخر ما نتعلق به وقد يئسنا من الأمل..

وكنا قد يئسنا..

فصدره الصاعد الهابط كان قد بدأ يخرخش، والفقاقيع تكونت فى كرات حول فمه، وسمرته مكانها رمادية لا تمت إلى الأحياء.

وكثيرا ما رأيت أناسا.. ورأيت جرحى.. ورأيت جرحى يموتون.. ولكن كان صعبا علىّ أن أصدق أن عبدالقادر سيموت. كان قد أقبل فى أول الليل فما أحسست أن فى صدره رصاصا. وقضيت بجواره ساعات.. خمس ساعات أسمع حديثه اللاهث وأرى فتوته تنكمش وتنكمش، والعملاق الذى كان يضمر ويضمر، وجسده الذى كان قد ابتلع الجروح فما ظهر لها أثر، أصبح كل ما فيه الجروح.. وكنت أكثر الوقت معه وحيدا.. وكان هو خائفا من الموت، وكنت خائفا عليه.. وكان كلانا عنده أمل. كنت أستمد أملى من الزجاجات والمورفين

وحـمـام الكهـربـاء، وكـان يسـتـخلص أمله من أملى، ويناضل وهو يستخلصه كما يقاتل وهو يستمد الهواء.

وكان يقول لى فى أول الليل: يا دكتورا وكنت أقول له يا كابتن! ثم نادانى باسمى وناديته باسمه.. وكان الوقت يمضي.. فى بطء ثقيل.. وكانت الأحداث كثيرة.. تكاد تستغرق عمرا بأكمله.. وكنت أحس طوال العمر الثقيل أنه مضروب فى ظهره، وأنه مغتال، وأنه مظلوم، لأننا كلنا مظلومون..

وما كنت وحدى الذى حدث له هذا..

كنت والممرضة والتومرجى قد ألّف بيننا ذلك العمر، وهدتنا الخمس ساعات، وصاحبنا عبدالقادر في رحلته فعزت علينا الصحبة، وأصبحنا كالأسرة الواحدة ذات الجرح الواحد.

وكان اليأس هو أمض ما نستطيع ابتلاعه..

وكان اللتر الأخير الذى جاء به الزميل أهم حدث فى ليلتنا.

ورحنا نعالج وضعه وإحكامه بحرص، ونكل فى البحث عن وريد نضع فيه الإبرة، وقد اختفت كل الأوردة فلا تومرجى أو حكيم، إنما مجموعة من البشر تكافح من أجل إنسان.. إنسان قد أصبح عزيزا علينا..

وسرى الدم الجديد..

وتقاربنا حول الفراش نرقب النتيجة ونخفي وجلنا ونحن نرقب رجلنا

وهو يئن بلا فم، ويتلوى ويرفع ساقه ويدفعها، وتنقبض أيديه وتنبسط بقوة، وجسده يصارع النزيف الداخلى.

وهدأ الجسد بعد هنيهة، واستمر الأنين الخافت المتواصل.. الأنين الذى يثير فيك كامن أشجانك فتتذكر كل ما مر بحياتك من أحزان، وتبكى على كل من مات.

وحدسنا أن الأزمة قد مرت والدم الأخير قد أفلح.

ولكن كان الهدوء الذى ساد جسده لا يطمئن، وكانت الخرخشة التى فى صدره تزداد حتى أصبحت كأصوات المنشار وهو يغور فى الخشب.

وكانت الساعة تبتعد عن الثالثة..

وفجأة.. توقفت أنفاسه.. واشرأبت أعناقنا.. ولكنه عاد يفتح شفتيه ليبصق ملء فمه.. دما أحمر.. نفس الدم الذى كان منذ هنيهة فى الزجاجة.

واحمرّ القطن من جديد وهو ينضح الدم.

وتباعدت أجفانه التى كانت مسدلة من أمد بعيد، وسقط الضوء على عينيه وهما تحدقان فى لا شئ، وتحدقان فى ضعف وكأنهما لاتريان شيئا.. تباعدت أجفانه وانساب من حلقه صوت لا يكاد يسمع وهمس:

- ميه.. عطشان..

وبللت فمه بالماء.. بل أقول الحق جعلته يرتشف ما شاء من كوب الماء المثلج الذى أحضرته له.

وفتح فمه بعدها مرة ومرة، ومرات ليبصق الدم.

وأصبح الجرح الذى فى جانبه أوسع من فمه، وما يجئ منه أغزر..

ثم راح فى غيبوبة..

ورحنا فى صمت..

وتلفت حولى لأجد الحجرة قد وقف ما فيها من هواء، ومصابيح النور حولها دوائر لها ألوان.. والجدران تردد حشرجة أنفاس تتباعد وتطول.. والوقت أبطأ من بطئه حتى لكأن بين الثانية والثانية عام.. وزميلى يكاد يقف على أطراف أصابعه وقد أمسك بالسرير وسمر عينيه على زجاجة الدم.. والممرضة راحت عيناها تعدوان بين الفم الذى أصبح كالجرح والجرح الذى أصبح كالفم، والتومرجى قد أمسك بمفتاح أسطوانة الأكسيجين واستمات عليه.

كنا جميعا نتحفز ونستعد.. كنا نحس بشئ غامض مخيف يحوم حولنا. وكانت قلوبنا وسواعدنا وعقولنا متشابكة متلاحمة تحاصر رجلنا وتمنع عنه الحائم المخيف.

وتباعدت الثوانى، وضاقت الحجرة حتى ما عدنا نستطيع التنفس..

واندفعنا نحوه كما نقذف بأنفسنا فى خضم البحر لانتشال غريق.. وتصببنا مياها ونحن ندفع الهواء إلى رئتيه، ونخترق صدره بإبرة طويلة حتى تصل إلى قلبه فيحركه العقار، وننفخ فى الزجاجة ليذهب الدم جميعه مرة واحدة إلى عروقه، ونفتح أسطوانة الأكسيجين على آخرها ليعلو صدره..

وحاربنا عدوا قويا لا نراه..

كنا نكز على أسناننا ونبذل طاقاتنا كلها ونحس أننا نستطيع دك الجبل وهز السماء وإرجاف الأرض..

ولكن الحقيقة كانت تلاحقنا..

خفنا أن نصدق، ورحنا نراوغها ونسابق بعضنا بعضا فى المراوغة والهروب.. ونسرع فى اعتصار أنفسنا وضم قوانا، ويزداد إيماننا بخداع الحقيقة..

وجاءنا من الركن نحيب الممرضة المكتوم.

واقشعرت أجسادنا من النحيب وانتفضنا نبذل ما فى وسعنا من جرأة اليائس ومقدرته.

وعلا نحيبها فأصبح كدوى الطبول.

ودفع التومرجى أسطوانة الأكسيجين جانبا وارتمى فوق عبدالقادر وهو ينهنه ويبكى، ويقتلع النفوس ببكائه الرجالى الخشن ويقول:

- آه يا حبيبى يا خويا..

وأفقت على قول زميلى والدموع تغص حلقه:

- البقية فى حياتك..

وتسربت إلى نفسى من خلال كلماته تلك اللحظة التى نعرفها جميعا، والتى نحس فيها أننا أوهن من الضعف وأتفه من العجز، وأننا

مضيعون.. تلك اللحظة التى لا نملك معها إلا البكاء فيحملنا البكاء إلى بكاء.

وجال بخاطرى أن أعانق زميلى وأضم ما فى صدرى إلى ما فى صدره، وأخفى ما أحس به من خجل إزاء فشلنا أمام الموت، أخفيه فيما يحس به من خجل..

ولم أفعل.. وبقينا بلا زمن راجين، نتأمل الرجل المسجى وتحز الخسارة فى قلوبنا، وأعيننا ثابتة فى مكانها لا تغادر وجهه الوديع الذى كان يلمع بالعرق.. آخر عرق.. وملامحه التى استراحت فى هدوء دائم.

وحين واريناه تحت الغطاء كان الشك فى موته لازال يملأ منا النفوس..

نـــــظـــــرة

كان غريباً أن تسأل طفلة صغيرة مثلها إنساناً كبيراً مثلى لا تعرفه فى بساطة وبراءة أن يعدل من وضع ما تحمله، وكان ما تحمله معقداً حقاً ففوق رأسها تستقر «صينية بطاطس بالفرن»، وفوق هذه الصينية الصغيرة يستوى حوض واسع من الصاج مفروش بالفطائر المخبوزة، وكان الحوض قد انزلق رغم قبضتها الدقيقة التى استماتت عليه حتى أصبح ما تحمله كله مهدداً بالسقوط.

ولم تطل دهشتى وأنا أحدق فى الطفلة الصغيرة الحيرى، وأسرعت لإنقاذ الحمل، وتلمست سبلا كثيرة وأنا أسوى الصينية فيميل الحوض، وأعدل من وضع الصاج فتميل الصينية. ثم أضبطهما معا فيميل رأسها هى. ولكننى نجحت أخيراً فى تثبيت الحمل، وزيادة فى الإطمئنان نصحتها أن تعود إلى الفرن وكان قريبا، حيث تترك الصاج وتعود فتأخذه.

* المصرى ١/١/١٩٥٣ (من «أرخص ليالى»).

ولست أدرى ما دار فى رأسها، فما كنت أرى لها رأسا وقد حجبه الحمل. كل ما حدث أنها انتظرت قليلا لتتأكد من قبضتها ثم مضت وهى تغمغم بكلام كثير لم تلتقط أذنى منه إلا كلمة (ستى) ...

ولم أحول عينى عنها وهى تخترق الشارع العريض المزدحم بالسيارات، ولا عن ثوبها الواسع المهلهل الذى يشبه قطعة القماش التى ينظف بها الفرن، أو حتى عن رجليها اللتين كانتا تطلان من ذيله الممزق كمسمارين رفيعين.

وراقبتها فى عجب وهى تنشب قدميها العاريتين كمخالب الكتكوت فى الأرض، وتهتز وهى تتحرك، ثم تنظر هنا وهناك بالفتحات الصغيرة الداكنة السواد فى وجهها، وتخطو خطوات ثابتة قليلة، وقد تتمايل بعض الشئ ولكنها سرعان ما تستأنف المضى.

راقبتها طويلا حتى امتصتنى كل دقيقة من حركاتها، فقد كنت أتوقع فى كل ثانية أن تحدث الكارثة.

وأخيرا استطاعت الخادمة الطفلة أن تخترق الشارع المزدحم فى بطء كحكمة الكبار.

واستأنفت سيرها على الجانب الآخر، وقبل أن تختفى شاهدتها تتوقف ولا تتحرك.

وكادت عربة تدهمنى وأنا أسرع لإنقاذها. وحين وصلت كان كل شئ على ما يرام والحوض والصينية فى أتم اعتدال، أما هى فكانت

واقفة فى ثبات تتفرج، ووجهها المنكمش الأسمر يتابع كرة من المطاط يتقاذفها أطفال فى مثل حجمها وأكبر منها، وهم يهللون ويصرخون ويضحكون.

ولم تلحظنى، ولم تتوقف كثيراً فمن جديد راحت مخالبها الدقيقة تمضى بها. وقبل أن تنحرف استدارت على مهل واستدار الحمل معها، وألقت على الكرة والأطفال نظرة طويلة.

ثم ابتلعتها الحارة.

الشـــــهـــــادة

ما كدت أضع قدمى فى قطار حلوان حتى استرعى انتباهى رجل جالس فى آخر العربة، منهمك فى مطالعة جريدة.

وتوقفت لحظة، وفى ثانية واحدة كان كل شئ أعرفه عن الرجل قد بدأ فى ذاكرتى كالأنوار الخافتة البعيدة، وأمسك وعيى بخيوط واهية تربطنى بجزء قديم من حياتى وراح يجذبها برفق. وفى كل جذبة كنت أستعيد يوما.. وأياما.. وسنوات غير قليلة قضيتها فى مدرسة دمياط الثانوية، وأستعيد معها أحلام صباى وسحرية دمياط تتقاذفها وتلهو بها، وأمانى مراهقتى تدفعنى وحيدا غريبا فى عالم البلدة، الذى يكسوه ضباب شاعرى يلف الناس والوحدة والسكون..

وترجعت بى الأيام إلى مبنى المدرسة الكبير وحوشها الواسع، وأطفال وشبان صغار يلهون فيه بطرابيشهم التى فقدت معظم أزرارها وتثنت جدرانها، وتعود الأيام إلى الفصل الضيق ومقعدى فى أول الفصل، والحفنى أفندى مصطفى مدرس الكيمياء يكاد يحتل كل ما بقى

* المصرى ١٩٥٣/٥/٣ (من «أرخص ليالى»).

فى الفصل من فراغ، بكرشه الضخم ورقبته الغامضة المختفية وراء شحم كثير ينسدل من تحت فكه، ووجهه السمين ذى التجاعيد الغليظة، وسترته التى حال لونها والتى كانت أصغر بكثير من جسده، وسرواله الذى يحشو فيه ساقيه المنتفختين حشواً فيبدو كشراب طويل، وكلماته البطيئة التى تفصلها فترات حزق طويلة وهو يشرح، حتى إذا ما أخذه الحماس واستطرد مسرعاً فى شرحه تتلاحق أنفاسه لاهثة، ويمد يده يخرج منديله المنكوش يمسح به العرق الذى يقطر من حواف تجاعيده.

ومع أن تلاميذ الفصل كان لهم هدوء أهل دمياط، إلا أنهم ما كانوا يستطيعون أن يتمالكوا أنفسهم فى حضرة الحفنى أفندى، وكان المخضرمون الجالسون فى أواخر المقاعد هم أحسن من يقلدونه وأول من يضحكون عليه إذا أدار ظهره، والبادئين برش الحبر من ريشهم على سرواله حين يمر بين التخت، وهم الذين يلصقون له ذيول الورق الملون فى سترته إذا ما هم بمغادرة الفصل، وما كان يكتشف ما حدث له عادة إلا فى الحصة الثانية حين يدخل وفى وجهه صرامة عسكرية، وعلى خدوده إحمرار فاقع، وفمه لا ينطق بحرف، وإنما يزغر لنا كلنا ونحن واجمون صامتون، ويختار أى تلميذ وغالبا ما يكون من الجالسين فى الصفوف الأمامية ويلعن أباه، ثم يهدأ الحفنى أفندى.

ومع ذلك كان يعاملنا كالرجال الكبار وكثيراً ما كان يقطع الدرس ويحدثنا عن متاعبه، فقد كان يقيم وحيداً فى لوكاندة وكانت عائلته فى مصر، فيكلمنا عن الجزار الذى خدعه وباع له رطل اللحم ثلاثة أرباعه عظام، وخادم اللوكاندة الذى أكل من الباقى قطعتين كبيرتين حين

أرسله يشوى اللحمة، وكيف أصبح ذات مرة فوجد حافظته قد اختفت وفيها اثنان من الجنيهات.

ويحدثنا عن ابنه يغوى البنات فى مصر والذى رسب ثلاث مرات فى السنة الواحدة من أجل هوايته، وعن امرأته التى تأبى أن تسكن دمياط والتى يرسل لها فى أول كل شهر معظم ماهيته.

كنا نسمع منه هذا ونضحك فى بعض الأحيان، ونتظاهر بالحزن فى بعضها، وهو لا يشاركنا فى كليهما وإنما كان وجهه يحفل بالاشمئزاز والإشمئناط كمن يعانى من مغص دائم.

وما كان الرجل يلقى تقديراً من أحد، فتلاميذه يعبثون به وزملاؤه يسخرون منه والناظر يتجهم فى وجهه ويلذعه كلما رآه بالنقد.. والمفتشون يكتبون عنه أزفت التقارير بل لا يتورعون عن تجريحه أمامنا فى الفصل.

وكنت من المجتهدين الجالسين فى أول الصفوف الذين تهدد اللعنة فى أى وقت آباءهم.

وكنت أكره «الشرز» الواحد الذى يرتديه صيف شتاء حتى كان يخيل إلىّ أن زغبه الخشن ينغرز فى جسدى أنا، وكنت أكره رباط عنقه الذى يلقيه على ناحية نائية من ياقته، وأكره أصابعه الملفوفة القصيرة وهو يهرش بها كرشه المنبعجة، وأكره أسنانه الصفراء بغير دخان، ومنديله المتكرمش المتسخ حين يخرجه من جيبه ويدعك به أسنانه فى وسط المعادلة التى يشرحها، ثم يعيد المنديل ويستأنف الدرس وكأن شيئا لم يحدث.

مع أنى كنت أكره كل هذا منه إلا أننى كنت أحبه، فوراء جسده التخين القصير ومشيته المتطوحة وصراحته ونظرته الممغوصة وطربوشه الملقى إلى الخلف فى قلة اكتراث، كان وراء هذه طيبة كنا نتحسسها بقلوبنا الصغيرة فنحبه، ولكن حبى له ما كان يمنعنى من المشاركة فى الضحك عليه.. ولا من سترته، وقد أغرتنى ذات يوم فعلقت له فيها ذيلاً.

ولا أنسى يوم دخل علينا الفصل وترنحنا ونحن نقف له، وتناول من تحت إبطه أوراق إجاباتنا فى امتحان الفترة، وسكتنا فقد كان كل ما يمت إلى سيرة أى امتحان كفيلا بإشاعة الرهبة فينا.. وأفسح له سكوتنا واديا متراميا راح يندد فيه بخيبة تلاميذه وقلة نفعهم.

وبعد أن التقط أنفاسه الكثيرة اللاهثة التى تعقب حماسه أشار إِلىَّ وأشاد بإجابتى.. وأخرج ورقتى وتلاها كنموذج للإجابة. وأقول الحق سرت فى بدنى فرحة عظمى أعادت إِلىَّ ذكرى اليوم الجليل فى حياتى.. يوم رأيت نمرتى بين الأرقام الناجحة فى امتحان الابتدائية.

ولقبنى بعدها زعيم الكيمياء، وسقت أنا فيها رغبة فى الاحتفاظ باللقب ومضيت أذاكر كالآلة حتى انتقل الحفنى أفندى إلى مدرسة أخرى.

وكان وداعنا له حافلاً..

كان كل ما تذكرته مجرد قبضة واحدة سريعة من ذكرياتى مرت بخاطرى، فأشعلت النار فى رماد حياة بأسرها عشتها ونسيتها، وأصبح بينى وبينها ما يزيد على عشر سنين.

وما أن انتهى الوهج الذى خلفته القبضة حتى كنت قد عبرت ممر العربة، ووجدت نفسى أقف فى آخرها أمام الرجل الذى فى يده الجريدة.

وجلست على المقعد المقابل وسألته فى كثير من التهتهة إن كان يذكرنى.

ونظر إلىّ الرجل نفس نظرته المشمئزة الممغوصة ولم يقل شيئاً، فاستطردت ألحم الكلام فى الكلام.. وأدخل الثالثة فصل أول فى المعادلات وقانون الغازات.. وأنبوبة الاختبار التى انفجرت ذات مرة.. والرفاعى والدغيدى وأحمد مسلم من شطار الفصل.

وبعد كثير بان على الرجل أنه تذكرنى.. أو بالأحرى تذكر صبيا صغيراً يشبهنى كان من تلاميذه. ولم يظهر عليه أنه سر لهذه الذكرى فلا ريب أنه استعاد أذيال الورق الملون وتأنيب الناظر وعبث الجميع به.

ولكنى انطلقت أحدثه عن الأيام التى مضت، والسنين التى لم تغير فى مظهره ولم تضف إلى علامات العمر فيه علامات جديدة، وحدثته عن الكلمات الصغيرة السريعة التى كان يغمزنى بها والتى أصبحت علامات بيضاء دفعتنى فى طريق الحياة، وعن التقدير الذى اخترته له من زمن..

وتعجب قليلاً، وبعد أن كان واضحاً أنه يضن بالكلام بدأ يحدثنى حديث الإنسان عن المدارس التى تنقل فيها، وعن الوزارة التى تضن

عليه بالدرجة، وعن زملائه الذين أصبحوا نظارا وهو لايزال مدرسا، وعن امرأته التى طلقها ونفقتها التى تستغرق مرتبه، وابنه الذى ترك المدارس وذهب يمثل فى السينما.

وسألته عن طلبة هذه الأيام وأنا أضحك، فلم يجبنى وإنما أخرج منديله العتيد من جيبه ودعك أسنانه، ثم بصق من النافذة.

وذكرته بحكاية زعيم الكيمياء فابتسم لأول مرة، وأخذ ينصت باهتمام حين قصصت عليه كيف دخلت مسابقة الكيمياء وكنت الأول، وكيف التحقت بكلية الطب وتخرجت ولى سنين وأنا طبيب..

وحين وصلت إلى هذا الحد انفجر فى ضحكة طويلة اهتزت لها كل أرجاء جسمه، وزغدنى فى كتفى وهو يقول:

- يا شيخ اتلهى!.. اتلهى!..

وحتى حين أطلعته على بطاقتى الشخصية وأنا أقول له:

- كل ده بفضلك.

بان عليه حرج كبير وضرب كفا بكف وهو يقول:

- فى المدة القصيرة دى.. تبقى دكتورا.. دكتورا..

فقلت مرة أخرى:

- كل ده.. بفضلك.

وكنت أقولها فى حماس الصبى الذى كان فى دمياط.. وفى رهبة الفتى أمام أستاذه.. وفى تلعثم المبتدئ حين يقابل الفنان الذى وصل.

وطول المدة التى أمضاها فى مدرستنا ما رأيت الحفنى أفندى سعيدا أبدا.. ولذلك تفرست فى ملامحه وقد بان فيها تعبير بدائى عن سعادة تطرق وجهه ربما لأول مرة.

وأخذ يفرك كفيه ويطبطب على فخذه، ثم يروح بالجريدة عن وجهه الذى احتلته ابتسامة واسعة بانت لها أسنانه وقد اسود صفارها القديم.

وبين الفينة والأخرى يردد:

- والله عال.. أهو واحد من دمياط نفع.. والله عال.. واحد نفع..

وأقول له إننا كلنا نفعنا، ولكنه لم يكن معى وإنما كان يستغرقه شعور قوى يشيع فيه أحاسيس لا عهد له بها.

وجاءت المعادى وكاد ينسى أنها محطته، وشد على يدى بحرارة وهو يشكرنى بأنصاف كلمات ولا أدرى على أى شئ كان يشكرنى، وودعته حتى باب العربة.. وابتعد القطار بى وهو يلوح بيده، وفرحة كبيرة تقلقل خطواته، والابتسامة تتموج فى وجهه، وسعادة غامرة تطفح من عينيه..

كان كالطفل الذى نجح لتوه فى الشهادة الإبتدائية.

فــى الــلــيــل

كانوا قد تجمعوا كما اعتادوا التجمع كل ليلة، وكان الملل قد بدأ يتسرب إليهم وأملهم فى ظهوره راح يتأرجح.

وجاء واحد وقال إنه رآه عند الجامع.

وتهلل الجالسون والواجمون..

كان بعضهم قد مدد رجليه فى إعياء وملل، وكان آخرون قد تربعوا، والباقون قد أراحوا ظهورهم على الجدار ليريحوا ما فيها من ألم ممض. وكانت أجسادهم كلها ليس فيها موضع لتعب آخر، وقد أتوا بعد العشاء بالأشباح الناحلة السمراء قد اختلط فى وجوهها العرق بالرماد وطالت لحاها واحمرت منها العيون.

وجاء قادمون جدد..

تبادلوا تحية المساء مع الجالسين، تبادلوها فى فتور.. وكان الواحد منهم ما يكاد يجلس حتى تزحف ذرات التعب الذى لاقاه طول النهار

* روز اليوسف ١٩٥٤/٢/٨ (من «أرخص ليالى»).

كجيوش النمل آخذة طريقها إلى رأسه، فيتخدر جسده لزحفها ويسكر، ويحس بالراحة تتصاعد من جوفه فتلطف جفاف حلقه وكأنها حبات نعناع.

وقال واحد وهو يناجي نفسه أكثر مما يخاطب الآخرين:

- يا سلام.. الدنيا ضلمه يا ولاد.. والعتمة حلوة.

وما كان الليل جميلا لما فيه من سكون أو نجوم وإنما كان جميلا لأن ليس فيه عمل ولأن فيه راحة وجلوسا، ولأنهم يستطيعون فيه الحديث ويحسون إذا جلسوا واستراحوا وتحدثوا أنهم بشر مثل سائر البشر.

ومع أن الليل كان هناك وكانوا جالسين مرتاحين، إلا أنهم ملوا ما راحت أفواههم تلوكه من تافه الأخبار، وسرعان ما مات الكلام على أفواههم وتجمد.

وتبادلوا نظرات متثائبة فى تثاؤبها تساؤل، وفى تساؤلها قلق غامض.

ومرة أخرى راحت أسئلتهم تترى عنه.

وقبل أن يعودوا ويملوا السؤال جاءهم الصوت الرطب الواضح المخارج، الحلو المملوء بالرنين يقول:

- مساء الخير يا رجاله..

* * *

وتحركت ألسنتهم وقد طال سكوتها:

ـ مساء الخير يا عوف.. ليلتنا ندا يا عبده.. أنت فين يا أخى؟.. يا ميت ندامه على اللى حب ولا طلشى..

وبينما الجماعة قد علتها ضجة الترحيب به، لم يتمالك بعض منها نفسه وهو يرى الابتسامة الحائرة التى تود الظهور على وجهه الجاد بالهزل الذى قاله والذى سوف يقوله، فانطلق يضحك.

ولم ينتظر عوف أن يهدأ الهيجان، وإنما انسل فى رقة وأدب وركع فى سرعة على ركبتيه قبلما يقوم له أحد، ومد يده فى خجل مؤدب وسلم عليهم واحدا واحدا بحرارة وهو يقسم ألا يتعبوا أنفسهم ويقوموا، واندفع الذين لم يضحكهم أدبه فضحكوا على حرارة سلامه وغلظ قسمه.

وأخيراً جلس، بينما تنحى أناس واعتدل آخرون، وامتدت أذرع تصلح أوضاع الجالسين وتوسع الحلقة.

وتلاقت العيون والأسئلة كلها عليه. وقد تربع ووضع قبضتيه متلاصقتين فى حجره كما اعتاد أن يفعل، ولمعت بشرته السمراء والابتسامة مازالت تتردد قبل ظهورها على ملامحه.

كانوا يودون سؤاله مثلا إن كان قد وجد عملا. وآخر عمل كان يقوم به عوف كان مع تجار البهائم، إذ كان عليه أن يوصل بضاعتهم من المواشى إلى الأسواق قبل الفجر، وحين ينفض السوق يعود بما بقى دون

بيع وما جد بالشراء، وكان لا يعود قبل حلول الظلام. وانتهى موسم التجارة ووقفت سوق البهائم وأصبح عوف مرة أخرى بلا عمل.

وكانوا يودون سؤاله أيضا أين كان طيلة ما بعد العشاء، إذ لا ريب أنهم كانوا لا يعرفون كيلة الأذرة وما جرته عليه من مصائب، ولا ما أجبرته عليه من سؤال وهمس وإلحاف.

وما استمر السكون الذى صنعه قدوم عوف طويلا، إذ سرعان ما رفع رأسه وحدق فيهم جميعا دون أن ينطق حرفا، وأدار رقبته وشمشم بطاقتى أنفه، وتابع الموجودون حركاته وهم صامتون يخمنون ويستعدون. وظل عوف برهة يحاور عيونهم ويلاعبها، ثم جعل ابتسامته تضحك ضحكتها القصيرة الخاطفة وأتبعها بقوله وكأنه يستنكر:

- واللا هاو آريو يا رجاله!..

وانفجر الجمع ضاحكا..

ولم تتحمل الصدور ما فيها من ضحكات فسعلت وضحكت، ثم سعلت واستلقى بعضهم على ظهره ليضحك أكثر، وانثنى البعض حتى لاصق وجهه الأرض وهو يضرب بيده على فخذه وقد تشنج ضاحكا.

لم يكن ما قاله عوف يستحق كل هذا الانفجار، بل ما كان قوله غريبا على أسماعهم، ولكنهم كان يكفى أن يروه أو يسمعوه أو حتى تأتى سيرته لتنساب منهم الضحكات. كان هو التميمة القادرة دائما على فتح أفواههم وقد سمرها طول النهار.

ولم تكد الموجة الأولى تنحسر ويبدأ الضحك يتحول إلى همس ضاحك، حتى قال عوف بصوته الذى فيه بحة رنانة يذوبون فيها:

ـ كيلة الدره يا ولادا..

ودون أن يعرفوا ما هى الحكاية قهقهوا بكل ما يملكون من صدور.

واستطرد عوف والقهقهات تترى من حوله:

ـ آنى سايب الوليه من غير عشا يا جدعان!..

ولعلعت الضحكات، ووضع البعض أيديهم على بطونهم حتى لا تتمزق بينما تعبت بطون الآخرين.

ولما لم يجز عليهم ما فى وجهه من جد، ولا ما فى ابتسامته المؤدبة من تردد، وما فى ملامحه من حزن وتأثر، هز رأسه فى يأس ووسع ابتسامته على قدر ما استطاع، وتلفت حوله وهو يدير رقبته فى استسلام.. وعلى يمينه كان هناك جالس قد استحوذ عليه النعاس رغم كل تلك الضجة، وراح يفقر ورأسه يهوى على صدره ثم ينتفض عائداً إلى مكانه فوق رقبته.

ومضى عوف يتأمل الرأس الصاعد الهابط عن يمينه وقد ران عليه تفكير عميق وكأنه أمام معضلة لا حل لها. وكان الجالسون ينظرون إليه ثم إلى النائم ولا يستطيعون بعد هذا أن يملكوا زمام أنفسهم فيضحكون. بدا على عوف أنه قد وجد الحل فقرب فمه من أذن النائم ثم قال بأعلى صوته وكأنه يهش على جدى كبير:

ـ سك.. سكك دبحه!..

وثارت عاصفة ضحك عاتية واستيقظ النائم على ثورتها نصف مذهول واسترد وعيه وهو يضحك، ثم أسرف فى الضحك حتى قهقه، ولما رأى العاصفة مستمرة قام وخلع طاقيته الصوف ورماها وداس عليها بقدمه الغليظة ثم سب أبا الدنيا وقعد وهو يبتسم فى سذاجة وذهول.

ونسى عوف نفسه وسوق الماشية والكيلة وما بعد العشاء، وقد أعجبه ما أشاعه فيهم من ضحك وحياة.. بل إنه أحس بشئ غير قليل من الفخر والتيه وهو يرى كلماته تتلاعب بعقولهم فتحركها أنى تشاء.

ونسى الحاضرون أنفسهم هم الآخرون، ونسوا حياتهم.

وما كان يأتيهم النسيان إلا بعد عناء.

وبدءوا يضحكون ضحكا حقيقيا..

وأيضا ما كان يأتيهم الضحك إلا بشق الأنفس.

كانوا يضحكون أول الأمر وهم فقط يقلدون من يضحكون.

ثم يحسون أن ما هم فيه يستحق الضحك فعلا فيضحكون.

ثم يرون أن ما أمامهم فرصة ينعمون فيها بضحك لا ثمن له وهم ما اعتادوا أمثال تلك الفرص.. فيضحكون لحاضرهم ويختزنون ضحكات أخرى للمستقبل..

ثم كانوا يتذكرون ما قاسوه فى النهار وما سوف يبذلونه في الغد المقبل، فيتشبثون بما هم فيه من ساعة أنس ويضحكون، ويغصبون على أنفسهم ويضحكون أكثر وأكثر.

ولا يدوم هذا إلى الأبد..

فسرعان ما يمسح عجوز منهم الدمعة الضاحكة عن عينيه ويقول بصوت فيه رنة ندم وكأنه اقترف إثما:

ـ اللهم اجعله خير يا ولاد..

* * *

وفى لحظة من لحظات السكوت نادى واحد وطلب شايا لعوف..

وأحس الموجودون كلهم أنهم غفلوا عن شئ خطير، وأنهم أخطئوا فى حق الرجل وقد منعهم الهرج من القيام بالواجب ولذلك راحوا يتنافسون، وكل منهم يصر أن شاى عوف سيكون على حسابه. وعوف قد جلس جلسته المتربعة المؤدبة الخجلة يتمتم من بين شفتيه الوادعتين:

ـ خلى عنكو يا رجاله .. خلى عنكو..

ولكن الرجال لم يخلوا عنهم، بل وطلب كل منهم لنفسه طلبا وكأنهم يجلسون فى أحسن قهوة، والمكان ما كان حتى غرزة وإنما هو فضاء صغير تحده البيوت الداكنة المنخفضة، وفى وسطه حفرة فيها نار، وعلى النار براد كبير رأى صاحبه أن يجلس ويضحك، وأيضا يعمل، فكان يصنع لهم القهوة والشاى ويرص لهم الكراسى..

وسرعان ما وزعت الأكواب على الذى معه والذى ليس معه فما كان لحظتها مهما من الذى يدفع، وقد أصبح ما فى جيب كل منهم ليس هو محط تفكيره وبؤرة اهتمامه، ولكن أصبح ما فى الجيب آخر ما يفكر فيه وإخراجه أسهل والندم الذى يعقبه أقل وأوهى.

وراحت أفواههم التى عليها بقايا ضحكات وابتسامات ترتشف ما فى الأكواب، وأحسوا لأصوات رشفاتهم وحشرجة شفطهم ترنيمة رائقة تتصاعد فى جوف الليل الساكن الساجى. وكان القدح الذى فى يد عوف مجمع أنظارهم فقد كان ممسكا إياه بطريقته الرشيقة ويرتشف منه بفمه الذى ضيقه ودقق من فتحته، بينما لمعت سمرة وجهه بعرق أشاعه دفء الشاى..

وأخذ واحد منهم رشفة ذات نغم طويل ثم مصمص حلقه وقال:

- إزاى الحال؟.

ولم ينتظر ليرد عوف وإنما مضى يسأله:

- إزاى الحال دلوقتى؟!..

سأله وهو يبتسم.. وفى تؤدة واتزان قبَّل عوف باطن يده ثم قبَّل ظهرها ونظر إليه بعينيه التائهتين السارحتين وقد ضيق المثلث الضحك الذى فيه شاربه وقال:

- عال.. نحمده.. أنضف من الصينى بعد غسيله.. والأشيا معدن..

وسخسخ الحاضرون ضاحكين وتساقط بعض ما فى الأكواب على أيديهم فلسعها وتساقط على أثوابهم فما سألوا فيها، بينما اصطدمت الضحكات الخارجة من أفواههم بالرشفات الداخلة فاحتقنت الوجوه وشاعت فيها حمرة غريبة على ما كان فيها من شحوب، ولم يرحمهم عوف وإنما استطرد:

ـ هو طول ما انت فيها يا أبو وش يملا كنكة احنا حلشوف طيب..

وانهال عليه بلسانه..

وكان المضحوك عليه أول الضاحكين، فما تأثر أو اريد بل أسعده في الحقيقة أن يتخذه عوف هدفا للذعاته. وما كان أحد يستطيع أن يزعل من عوف أو يتأثر من كلامه. كانوا كلهم قد أجمعوا على حبه رغم أنه كان أفقر رجل في القرية، ورغم أن حياتهم كانت جدباء صعبة لا يستطيع الحب أن يجد له مكانا فيها، ولا يستطيعون العيش إلا إذا كرهوا وحقدوا وتخاطفوا. كانوا ككل من في القرية يودون الحياة، ولا حياة هناك إلا بالصراع، ولا بقاء إلا للأقوى.

وقور فيهم ما احتسوه من قهوة وشاى نشاطا، وتلمظ عوف ووجهه يلمع وبحث فيهم بعينيه التائهتين، ثم وقفت ابتسامته وقتا غير قليل على واحد منهم وأشار إليه بطرف ابتسامته وقد ضيق إحدى عينيه وقال في أدبه وخجله:

ـ إلا معاكشى حته ألف يا عويد؟..

ولم يملك الرجل يده فامتدت للتو في جيبه وأخرج علبة صغيرة غمس فيها عود كبريت وقدمه لعوف وعليه سنة أفيون، وحين كان يرجع العلبة إلى جيبه وقد عاد ينظر كما كان ينظر إلى الرجال كان يلمح في عيونهم رغبات، ومرة أخرى لم يستطع أن يملك يده فاستمر عود الكبريت رائحا غاديا بين العلبة وبين ألسنتهم وقد أخرجوها من أفواههم ومدوها على قدر ما يستطيعون.

وعلى رشفات الشاى مصمصها عوف والألسن حوله تتحرك فى الأفواه المقفلة فتنبعج لحركتها الأشداق. وفى جرعات أخرى من الشاى ابتلعوا ما أذابوا وبدأ الانسجام.

وأحسوا جميعا بريقهم يجف وحلوقهم تطلب الكثير من الدخان. ودارت الجوزة التى لا شئ عليها وراح الرجال يعتصرون صدورهم ويجذبون الأنفاس، وتزدحم عروق رقابهم النحيلة بما فى أجسادهم من دم قليل وهم يجذبون ويجذبون، والجوزة تكركر وتجأر كعربة نقل ينوء محركها بما فوقها من أحمال، وغامت الجلسة بسحابات الدخان الرمادى الرخيص وهى تنعقد وتنفض فوق الرءوس.

وقال عوف وكلماته تصنعها دفعات الدخان التى ينفثها:

- عارفين الحرب قامت ليه يا رجاله؟..

وانتبهت العقول كلها وصمت القليلون المتحدثون، فقد كانوا يتوقعون هذا السؤال أو مثله من زمن، ويأملون وقد طال بهم الانتظار أن يتحفهم عوف بحكاية.

ولم يجب عوف مرة واحدة.. إنما بكلماته التى كان ينتقيها بخبرة وروية ثم يقطعها وينغمها ويمثلها، وبملامح وجهه التى يملك زمامها كلها ويستطيع أن يقول بها ما شاء دون حاجة إلى كلام، وبحنجرته التى تخرج منها الأصوات لها بحة الناى الحزين الذى يضحك حزنه، بهذا كله بدأ عوف فى رواية القصة فتنحنح ثم قال:

- انتو عارفين جدكو عامر يا ولاد؟..

وضحكوا قبل أن يقول حرفا آخر.. إذ ما كانوا يتصورون الجد عامر العجوز الذى ترك وراءه التسعين وبدأ يتطلع إلى المائة، والذى قضى حياته كلها لا يعرف إلا الزرع والصلاة، والذى كانوا أول الأمر يجعلون من كلامه حكما يرددونها فى المناسبات لا لشئ إلا لأنه عجوز وشعره أبيض كله. ما كادوا يتصورون الجد عامر وعوف يردد نفس حكمه بنفس كلماته فيدركون مدى سخفها وكثرة ما فيها وما فى حكم الكبار كلهم من تخريف.

ما كادوا يتصورون هذا حتى ضحكوا وأغرقوا فى الضحك، واستمر عوف يقول وهو يغالب ابتسامته:

ـ كان مره جدكو عامر هو وأبوكو إسماعين قاعدين يشمسوا فى ضهر الزريبة، وانتو عارفين الاتنين ولله الحمد خبراء من الدرجة الأولى من الفقر وقلة البخت. وبعدين السياسة حزقت أبوكو إسماعين قوى قام قال:

ـ ألا بزمتك يا جد مخيمر.. وحياة الله يرحمها دنيا وآخره جدتى أم عائشة.. وحق من أماتها يا شيخ.. عارفشى الحرب قامت ليه؟.. قام جدكو عامر هرش ضهره فى الحيطه وقال: بقى يا بن أم خرزه مانتاش عارف ليه؟.. قال له: والله آنى عارف كل زقاق فى السياسة إلا المدعوقة دى.. قام جدكو عامر اتنهد وقالو إيه: أما عقلك فارغ صحيح.. دا يا واد الحكاية بسيطه قوى.. الألمان قالوا للإنجليز طيابيركو ما تمشيش مع طيابيرنا فى سكة واحدة.. الإنجليز قالوا راسنا وألف سيف.. وهب.. راحت قايمه..

وما كانت تلك أول مرة يرويها ومع هذا فقد ضحكوا لها وأسرفوا فى الضحك، فالحكاية من فمه كانت لها لذة، وروايته لها وتمثيله إياها كانت تضفى عليها رونقاً جديداً.

وانتهت القصة ولم تنته القهقهات التى انبعثت وراءها والتى كانت تتصاعد حية مليئة بالحياة والرغبة فيها، تتصاعد من أعماق القرية الراقدة كبقعة سوداء كبيرة من الصمت الثقيل.

وأعادت ضحكاتهم الكثيرة كل ما جار عليه الزمن من إنسانيتهم، وانتشوا وهم يحسون أنهم مثل الأفندية تماما لهم قعدة ومجلس، وتحكى من أجل إيناسهم القصص.

وتعالت الأصوات تطلب من عوف المزيد وقد هضموا كل ما فات..

وتمنع عوف أول الأمر ككل فنان، ثم انطلق يحكى عن أبيه وكيف كان لا عمل له إلا الصيد بالسنارة، وكيف كانوا يتعشون كل يوم سمكا.

ويحكى عن لسان أبيه وطوله خاصة ساعة الطبلية، وما كان يتبادله هو وأبوه من قفشات حتى ينقلب عشاؤهم آخر الأمر إلى سامر يتجمع له الناس ويتسمعون من وراء الباب.. ثم يذهبون بعيدا ويضحكون.

والمرة التى طلعت لأبيه فى السنارة فردة حذاء، والمرة التى رأى فيها الجنية وكاد يتزوجها..

ولا تفرغ قصص عوف..

وكانوا يحبون كلهم حكاية ذهابه إلى المولد وهو صغير، والثلاث ورقات والملحمة الكبيرة التى قامت ليلتها واستوعبت كل ما فى المولد من شماريخ وخيزرانات وحلاوة ورجال.

ولا يستكن لسان عوف.

كان يسخر من كل شئ.. من الناس.. ومن نفسه.. ومن الحياة التى يحيونها..

كان قد لف مصر من أولها إلى آخرها، ودخل السينما. وشاهد المتاحف، وقام بأنواع لا أول لها ولا آخر من الأعمال، وعاش فى القاهرة وعرف مخابئ الإسكندرية أيام الغارات، وتعلم هاو آريو من الجيش الإنجليزى حين كان فيه. وكان يدور دورته ويعود إلى القرية:

«ألاقى أبوك الحجعلى لسه بيقول للفحله.. عاه يا بنت الأنيته، وخالتك أم بركه لسه بتدور على فرن خابز تشحت منه رغيف، والعمده لسه متنك على قرماية الخشب، وأبوك مخيمر واقف جنبه لابس حتة العباية اللى ماتساويش تلاته أبيض، ودى بنت مين اللى فايته يا مخيمر؟ يقوله.. دى بنت فلان يا عمده اللى اجوزها علان واللى طلقها تلتان.. حاجه تفلق اللى ما ينفلقش.. الدنيا تنشال وتنهبد وبلدنا ولا هى هنا.. يا رب لا اعتراض ولا مانع.. إنما أدنته شايف.

وحين كانوا يسمعونه يشرق ويغرب ويقول كل ما عنده كانوا يهزون رءوسهم ويضحكون وهم يوافقون، ويحسون بفرحة وهم يوافقون، ويزدادون بكل حكاية من عوف إيمانا بأن حياتهم لا جديد فيها ولا طريف.. حتى الموت ما كان فيه جديد وإنما كان عودة حزينة لحزن قديم.. الناس تولد وتكبر ثم تموت، والبقرة تدور فى الساقية مغماة لا تدرى أين تسير، وعيون الساقية تغترف الماء من باطن الأرض وتمتلئ

به ثم تصبه العيون ليعود إلى الأرض وباطنها.. لا جديد فى حياتهم ولا طريف..

* * *

وفجأة سكت عوف عن كلامه وسكت الناس لسكوته، وتحولوا ينظرون حيث ذهبت عيناه، ومن بعيد أقبل شبح أسود طويل عرفوا فيه امرأته وكلها سواد فى سواد، حتى وجهها قد غطته زيادة فى الحياء بشاشها الأسود الذى لا يخلو من ثقوب.

وكانت تمسك بمفتاح ضبة بابهم الخشبية وتتلاعب به.

ومن بعيد أيضا جاء صوتها رفيعا كقوامها طويلا كطولها:

ـ عبدالرحمان..

وارتج على عوف ومأمأ برأسه، ثم خفضه وهو ينحنى حتى أصبح بين فخذيه.. وقال فى همس مملوء بالخوف الذى يضحك:

ـ ولا.. آنى مش هنا..

وسمعوها تغمغم بكلام لم يسمعوه، ثم نادت بعد برهة بصوت يائس وقد نفد صبرها:

ـ يه.. شوفوا الراجل ياخواتى وآنى لفيت البلد حتة حتة.. عبدالرحمان..

وأفلح البعض فى كتم ضحكاته ولم يفلح آخرون، ولعلها لمحته وهو منحن وقد قارب الأرض فإنها صرخت قائلة:

- وطى كمان وطى. مانتاش مكسوف والنبى عليك.. سايب الدار على الحميد المجيد وجاى تنصب السامر بتاع كل ليله.. عبدالرحمان..

ولم يجد بدا من الظهور فاعتدل شيئا فشيئا وهو يقول لمن حوله هامساً:

- أهى قلبت بغم يا رجاله!..

ورفع صوته جادا لا أثر للهزل فيه وقال:

- روحى يا بت..

وتعالت الضحكات لجده وإمارته..

وردت المرأة وقد عيل صبرها:

- والنبى يا شيخ ؟!.. اسم الله عليك وعلى حواليك!.. مش تلايمها شويه.. فين يا راجل حق كيلة الدره اللى انت قايلى دقيقة واحدة وحاجيبه ؟!.

وبنفس الصوت الجاد قال عوف بعصبية أكثر وقد تذكر كل شئ:

- روحى يا بت اختشى..

وضحكوا كما لم يضحكوا فى ليلتهم بل فى أعمارهم كلها.

وأغاظت ضحكاتهم المرأة فقالت وهى تكاد تصرخ:

- والله مانى منقولة إلا أما تجيب حق الكيلة.. دا صاحبتها قاعدالى فى الدار ما المغرب.. سامع والا لأ..

وأجاب عوف بصوت عال:

ـ لا مش سامع..

فقالت وهى مغيظة:

ـ عنك ما سمعت.. هه.. وآدى قعده..

وحاولوا مرة أخرى أن يتأدبوا ويكتموا الضحكات والمرأة تنتقى لنفسها مجلسا فوق كومة سباخ عالية. ورفع عوف رأسه ونظر إليها وهى ممتطية الربوة كأم قويق، وسكت برهة ثم قال بصوت نصفه ضاحك ونصفه جاد:

ـ روحى يا بت يام وش زى وش السلندر.

ومع أنهم ما كانوا يعرفون ما هو السلندر إلا أنهم انثنوا وتمايلوا مقهقهين وعيونهم قد شدت إلى عوف الجالس لا يعرف إن كان هو جادا فى كلامه أو هازلا..

ولم تسكت المرأة وإنما قالت على الفور:

ـ والنبى مانى مروحه يابو راس أنعم من البريزة الماسحة.

واستمرت الضحكات تترى بلا انقطاع..

وقال عوف وهو يزيد النصف الضاحك من صوته:

ـ والنبى إن ما روحتى لقايم فاتح بطنك ومطلع منه طعم..

وما عاد الحاضرون يتمالكون أنفسهم ولا يعرفون إن كانوا يضحكون أو لا يضحكون..

وبينما هذا يحدث كان بعضهم يفكر فيه من ناحية أخرى، وتمنى أكثر من جالس أن يمد يده إلى محفظته الكالحة ويستخرجها ثم يسقط

فى يد عوف ثمن الكيلة. ولكن كانت أمانيهم بصيرة وأيديهم قصيرة ـ جد قصيرة.

وكان عوف هو الآخر يضحك بقلب ويحلم بقلب آخر.. أن تمتد يد فى حجره وتدفئ أصابعه بالثلاثين قرشا التى داخ عليها من المغرب. وبقيت أصابعه باردة فى حجره..

وشخط عوف فى المرأة قائلا:

ـ على الطلاق إن ما روحتى..

وعلى الفور نزلت المرأة واستدارت عائدة بشبحها الأسود الطويل..

وقال عوف وقد سره ما أحدثته الشخطة واستعاد لسانه الحاد:

ـ شايفين يا ولاد.. والنبى رجل مراتى اليمين بتنفس..

واختلطت القهقهات بالأصوات، وسمعوا ضحكة تفلت من المرأة المبتعدة رغما عنها.

وكانوا قد تعبوا وما عادوا يستطيعون الضحك فسكتوا. وسكت الليل.. وسكت كل شئ وأصبح لا صوت هناك إلا نقيق الضفادع وتنهدات البعض والماء وهو يغلى فى البراد ويفور.

حتى عوف كان قد أرخى رأسه على صدره وكأنه يفكر.

واستمر الصمت زمنا لم يقطعه إلا عوف حين رفع رأسه وقال وهو يستغرب منهم السكوت ويحدق فيهم:

ـ والله هاو يا رجاله..

وانفجروا يضحكون واستمرت الضحكات تنفجر وهى لا تريد أن تنتهى، وكان يبدو أنها لن تنتهى لولا أنهم سمعوا همهمة لم يألفوها وحمل إليهم الظلام جعجعة شيخ الخفراء المعهودة ونبراته القاطعة الحادة:

ـ واد انت وهوه.. انتو عاملينها غرزه ياولاد الكلب. قوم قامك عفريت منك له..

وكان أول من تسلل لا يلوى على شئ هو خالى الوفاض منهم، أما الذى فى حافظته قرش أو يتدفأ جنبه بورقة فقد تكاسل قليلا وهو يقوم، ولما وقف تثاءب كثيرا وتمطى ثم مضى فى خطوات وئيدة وهو يلقى بالسلام إلى من حوله، ويشدد على عوف باللقاء فى ليلة ثانية، وكلهم يحسون أن الليلة قد انتهت وما كان يريد لها أحد أن تنتهى.

واستوقف شيخ الخفراء عوف وقال له بعد أن اطمأن إلى ذهابهم جميعا:

ـ واد يا عوف.. إزيك؟..

وفهم عوف ما يريد، فقال له وكأنه يؤدى فرضا عليه:

ـ هاو آريو يا شيخ الغفر..

وقهقه الرجل، وظل يقهقه ويتلوى وعوف يأخذ طريقه إلى داره.. ومضى الليل..

* * *

وقبل شروق الشمس الجديدة كانوا جميعا يأخذون طريقهم إلى النهار، وكانوا يأخذون طريقهم إليه ووجوههم باسمة وأطياف من الليلة التى مضت تلوح لهم وتظل عالقة بخاطرهم تخفف ما فى نهارهم من حدة..

وكان عوف يتسلل هو الآخر كالعصفور المبتل، مؤدبا وخجولا، ليستأنف همسه وسؤاله عن ثمن الكيلة.

جمهورية فرحات

ما كدت أدلف إلى القسم ومعى الحرس حتى أحسست بانقباض مفاجئ. لم تكن تلك أول مرة أدخله ولكنها كانت المرة الأولى التى أرى القسم فيها فى الليل، ولهذا شعرت حين تخطيت الباب أنى أدلف إلى خندق سفلى لايمت إلى الحاضر ولا حتى إلى الماضى القريب.. جدران يكسوها حتى منتصفها سواد على هيئة طلاء وكآبة تكسو نصفها الثانى.. وبقع بيضاء مبعثرة هنا وهناك لا تخفف السواد بقدر ما تظهر بشاعته، وأرض لزجة لا تدرى إن كانت من الأسفلت أم من الطين، ورائحة... رائحة لا تستطيع أن تحدد كنهها وإنما لابد أن تحس معها بغثيان، وضوء باهت يأتى من مصابيح بالغة القدم عشش عليها الذباب وباض.. مصابيح معظم ضوئها محكوم عليه بالسجن المؤبد داخلها، والقليل الذى يتسلل منها هاربا لا يبدد الظلام بقدر ما يحتمى به ويتستر، وإن وقع على الأشياء والناس فإنما ليظهر كل ما بها من حزن وقبح وبشاعة..

* روز اليوسف ١٧/٥/١٩٥٤ (من «جمهورية فرحات»)

وأحسست حين احتوانى هذا كله وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منه، والناس من حولى على سيماهم جد خطير يمشون كالمنومين، وصناديق الفاكهة وعربات اليد وكراسى المقاهى التى صادرها بوليس البلدية وهى مكومة فى ركن، وأصحابها متناثرون حول الجدران والأركان متهالكين على الأرض ورءوسهم مائلة على حجورهم والعساكر يبدون فى أرديتهم السوداء كعفاريت منتصف الليل .. !

أحسست حين احتوانى هذا كله أننى لابد أنا الآخر قد ارتكبت جريمة ونسيت، وتمنيت أن أهرب من المكان بأسرع ما أستطيع. ولم أكن أستطيع مغادرة المكان فقد كان علىّ أن احجز فى القسم ليلة لأرسل إلى النيابة فى صباح الغد.. واحتاروا أين يضعوننى فالحجز كان ممتلئا، والحجرة الأخرى التى يوضع السياسيون فيها عادة تعج بالمراقبات وصاحبات الحرفة، ولم يجدوا لى فى النهاية خيرا من حجرة الضابط النوبتجى..

وهناك تُركت ومعى حارس..

كانت الحجرة على سعتها تضيق بمن فيها، وكان أبرز الموجودين جميعا الضابط النوبتجى. وحين رأيته جالساً إلى مكتبه كالحكمدار وعلى يمينه فوهات أكثر من خمسين بندقية مغمدة فى فضاء الحجرة، وخلفه اللوحة الخشبية المثبتة فى الجدار والمثقلة بألوان وأشكال من السلاسل والقيود والدروع والبلط والخوذات، وعلى يساره الخزانة الحديدية القديمة... حين رأيته هكذا تخيلت أن لا حدود لرهبته وقوته،

وأنه يستطيع ببساطة أن يقضم ذراعي أو يضع إصبعه في عيني، مع أني كنت متأكدا ان لا شأن لي به ولا شأن له بي...

ووجدتني أترك كل ما في نفسي وكل ما يشغلني وأنضم إلى جيش العيون المنصبة عليه من الناس المزدحمين أمامه والذين لا يفصله عنهم إلا سور خشبي منخفض..

وبدا لي أول الأمر وكأنه ليس بكائن حي... وإنما جسده قد صنع من طلاء الجدران الأسود، ورأسه خوذة من الخوذات المعلقة وراءه، وعيناه فتحات بنادق، ولسانه لابد كرباج..

ولكني حين هدأت قليلا واعتدت على المكان، وتأملت كيف وضع «الكاب» فوق رأسه في وقار مخيف، وزرر معطفه الضباطي - على غير العادة - إلى آخر زرار فيه، وشد جلد وجهه في تزمت صارم فاختفى كل ما فيه من تجاعيد وأصبح أملس كجلد الطبلة المشدود، وأضفى على نظرات عينيه بريقا تحس معه أنه لا ينظر بهما إلى الناس بقدر ما ينقر ويلسع ،وحمل صوته ما لا يطيق وهو يشخط ويهدر بكلمات غير مفهومة كأصوات الرصاص...

حين تأملت كل هذا بدا لي حينئذ كأحد الجنرالات الطليان الأسرى الذين كنا نراهم أثناء الحرب.. وحدث أن جاء شاويش أو بيتشاويش لا أذكر ووقف أمامه ونادى عليه:

- يا فرحات..

عجبت كيف ينادى بلا تكليف هكذا، ولكن عجبى زال حين قال مرة أخرى:

- يا فرحات .. ياسى فرحات...

ولم يرد الضابط النوبتجى إلا بعد أن قال له الرجل.. يا حضرة الصول..

وكنت قد اقتربت حتى استندت مع غيرى من المستندين على السور الخشبى وسمعت لهجته التى فيها آثار باهتة من ريف الصعيد. ونم صوته العالى عن الفضاء الواسع الذى ترعرع فيه، وعن مستلزمات الوظيفة من شخط ونطر وقد عملت عملها طوال تلك السنين فأتلفت صوته وأضافت إليه حشرجة كالتى تلحق براديو القهوة البلدى من كثرة رفع صوته. وذهب الجنرال من خاطرى تماما ووضحت أمام عينى ملامحه التى كان يلفها ضباب الرهبة والسلطة، ورأيتها صعيدية خالصة بأنفه الكبير كأنف رمسيس. وجبهته الحادة العالية كجبهة منقرع، وشيخوخته التى تنم عن تاريخ حافل فى خدمة البوليس إذ أنه لابد قضى أجيالا حتى يصل إلى رتبة الصول، وقد دخل الخدمة «نفرا» ككل الأنفار. ورأيت جسده العجوز على حقيقته مستقيما فى أجزاء منبعجا فى بعضها الآخر، وقد فرضت عليه البدلة العسكرية والحذاء الثقيل و «القايش» .. فرضت على جسده شكلها فرضا كما يفرض قالب المكوى على الطربوش شكله وأبعاده. وكان من الواضح أنه يحب هذا المركز حين تسند إليه مهمة الضابط النوبتجى، ويحب أن يعامله الناس كضابط بحق وحقيق وهو الذى - بلا شك - قد قضى ثلاثة أرباع عمره

يحلم بهذا وينتظر اليوم الذى يحمل فيه كتفه «النجمة».. وكان بادياً أن كتفه لن تحمل شيئا من هذا القبيل، فهو وإن كان يقوم أحيانا بدورالضابط النوبتجى إلا أن الإحالة إلى المعاش كانت تبدو وشيكة، ونجمة الفجر أقرب إليه من نجمة الملازم الثانى.. وحين تركته وأدرت بصرى فى الحجرة ورأيت المكاتب الخاوية التى تركها أصحابها، ودولاب الدوسيهات، والمروحة القديمة الموضوعة فوق الخزانة والتى كان يبدو أنها لم تستعمل منذ عشر سنين على الأقل وقد صنع التراب من نفسه عناكب فوقها، والمصباح الكهربائى الذى له «برنيطة» من الصاج والذى يتدلى من السقف حتى يوازى رأس فرحات المائل على ما أمامه من أوراق، والناس المزدحمين حول الحاجز الخشبى والذين يكونون خليطا - إن تنافر فى أشياء - فإنه يتفق فى نظرات القلق والحزن الغاضب والوجوه المنقبضة الجامدة كان معظمهم متهمين عائدين من تحقيق النيابة وتضمهم سلسلة حديدية طويلة، تبينت بعد حين أنهم لا يقيمون وزنا للسلاحليك أو السلسلة أو الصول فرحات نفسه.. فشخطته تقابل بزمجرة وأحيانا برد لا يقل عنها قسوة، حتى انفجر أحدهم مرة لأن فيشه وتشبيهه لم يكن بعد قد جاء من تحقيق الشخصية وكان عليه لهذا أن يمكث فى الحجز بلا إفراج حتى يجئ، انفجر ولعن الدنيا والحظ والفقر والذين كانوا السبب، ولولا الملامة للعن الضابط النوبتجى هو الآخر. ولمحت الضابط الذى هو فرحات يعانى الحرج الشديد وهو يسمعهم يهدرون، ولكثرتهم وشراستهم وضربهم الدنيا صرمة لا يستطيع - كالضباط الحقيقيين فى نظرة - إخماد ضجتهم، ولما انتهى منهم ومضوا وعسكرى فى أول صفهم وعسكرى فى آخره، والسلسلة

ترن وتصلصل وهم لا يزالون يسبون ويلعنون، تنهد فرحات تنهد الذى وضع إصبعه فى الشق..

حين تركته وأدرت بصرى لكل هذا وعدت إليه وجدته حينئذ يبدو شيخاً كبيراً جدا.. شيخا إلى الدرجة التى تحس معها أنه عهدة من عهد الحكومة عثرت عليه ذات يوم أثناء «كبسة» على بلدته فصادرته، وختمته بالطربوش الأحمر والبدلة الميرى، وظل فى مخازنها حرزا من الأحراز يبلى ويصبح كهنة ولا تبلى ما عليه من أختام.

وقال وهو يجوس بعينيه خلال الموجودين:

ـ أف .. أقسم بالله الأشغال الشاقة أرحم من دى شغله.

وتوقفت عيناه علىّ وفيها دعوة واضحة، وكنت أنا الآخر لى ساعات وأنا صامت فوجدت نفسى أقول:

ـ إيه .. الشغل كتير والا إيه؟

وكمن كان ينتظر الفرج من زمن رأيته ينفجر:

ـ يو هوه يا أستاذ.. هو ده شغل؟ دا سرك.. دا موريستان.. الناس اجننت.. يعملوا إيه؟.. حيخس عليهم حاجة؟ كله على دماغنا! والنبى أنا أشتغل فى الحديد ميت سنة ولا أقعد هنا ساعة.. والأكاده أن كله كلام فارغ .. كله كدب.. تبالى وحياتك.

اللى معور نفسه.. واللى ضاع منه شاكوش.. واللى كان نايم قال وراحت طاقيته.. ونروح بعيد ليه! مش دى واقفة من الصبح؟ مالك

يابت؟ أبقى مش الصول فرحات إن ما قالت إنهم ضربوها وأخدوا سيغتها!.. مالك يا بت؟ فيه ايه؟

وكانت «البت» امرأة واقفة ضمن الواقفين ترتدى ثوبا كان أسود ثم أحاله ساحر الحاجة إلى رمادى، وتتعصب بمنديل كالح لا يخفى إلا القليل من شعرها البنى الأكرت القصير وقد تلوث نهاياته وتنافرت، وكان وجهها غامقا أسمر، وفى عينيها كحل أفسدته الدموع..

وردت تقول في ذلة:

- أم سكينة والبت عيوشة وبنت اختها نبوية والواد..

- مالهم؟ مالهم؟

- إتلموا علىّ وضربونى فى بطنى.. آه يانا..

وفى ومضة خاطفة كانت فى حالة بكاء تام، وأضافت والدموع والشهقات تختلط فى حلقها..

- وام سكينة .. عضتنى.. هنا.. فى كتفى.. وزغدتنى فى بطنى.. والبت عيوشة قلعتنى الحلق.

وقهقه الصول وخشخش صوته وقال:-

شايف يا أستاذ؟ شايف؟ مش قلتلك؟ كله وحياتك؛ كدب.. نصب واحتيال.. بقى بزمتك دى حيلتها البلى الأزرق؟ حلق إيه يابت اللى خدوه؟ حلق حوش؟

ـ حلق دهب يا بيه وغويشتين..

والتفت الصول إلىّ وقال بلهجة ذكرتنى بنجيب الريحانى:

ـ تفتكر والنبى مين المجنى عليه فى الحكاية دى؟

ـ مين؟..

ـ أنا .. أنا يا فندم.. ما هو الكدب العلنى ده يبقى سرقة بالإكراه.. ومحضرها المصيبة من صورتين، والمصيبة الكبرى إن أنا اللى حاكتب الصورتين..

واستدار إلى المرأة ولسعها بنظرة كاوية فيها آثار من لمعة الضحك، وأمسك القلم وفتح دفتر المحاضر الكبير وكأنه يفتح بوابة المتولى وقال:

ـ هه..إلهى وانت جاهى ربنا ياخدكم ويخدنى معاكم خلينى استريح..

ولما انتهى من كتابة مقدمة المحضر سألها :

ـ إسمك إيه يا بت؟

ولم ينتظر أن تجيب أو يحفل بإجابتها، وواجهنى مستأنفا كلامه وأنا أحس أنه يحدث نفسه أكثر مما يحدثنى:

ـ أنا والنبى المجنى عليه.. ومش فى الواقعة دى بس.. فى ألف واقعة .. فى دشليون.. يمكن ما تصدقش.. اتفضل آدى دفتر الأحوال.. اصطبحنا بهتك عرض فى الطريق العام و٥٩٢ اللى بعدها

نشل حافظة نقود قال فيها قال ١٤٧ جنيه و٨٣ صاغ وورقتين بوسطة.. أقسم بالله ما كان فيها إلا الورقتين ويمكن لجل الحلفان خمسة تعريفة كمان، واللى بعدها قال سرقة نحاس .. قايلين فى البلاغ ان النحاس وزنه ٥٠ رطل ومتهمين الخدامة.. حتة بت قد كده.. متطلعشى كلها على بعضها عشرة أرطال.. وغيره وغيره.. من الصبح وانا إيدى وقفت من الكتابة.. وكله ملاليم وكلام فارغ وكدب.. يا شيخ فضك.

والتفت إلى المرأة يسألها:

- ما تنطقى يا بت.. اسمك إيه؟

وقبل أن تجيب ضحك وقال كمن تذكر نكتة:

- واللا الجثة اللى لقيوها فى الخرابة مالهاش صاحب.. قصدى صاحبها مجهول .. لقيوا السر الإلهى طلع منه كده لوحده ومن غيرما حد يكلمه.. قوللى؟ .. إشمعنى نقى الخرابة دى يموت فيها؟.. يعنى ضاقت الدنيا فى وشه.. ماكنشى يتمشى لحد شبرا مثلا؟ الله يرحمه مات.. وأتعذب أنا ليه؟

نهايته.. كتب عليكم الهم والغم كما كتب على الذين من قبلكم .. وأدار رأسه إلى المرأة:

- يا وليه اسمك إيه؟..

- خديجة..

- خديجة إيه.. إنطقى..

- خديجة محمد.

- ياوليه تحركى .. محمد إيه ..

وقبل أن تجيب أرقد قلمه .. وأسند كوعيه إلى الصفحة ووضع رأسه بين يديه وقال من تحت حافة «الكاب»، والمصباح الذى أمامه يهتز كالبندول فيتحرك ظل رأسه على الحائط الذى خلفه.. يتحرك رائحا غاديا كقرد كبير:

- أنا المجنى عليه والنبى.. هى حكاية محضر؟ هو أنا عجزت من شوية؟ تلاتين سنة خدمة وحياتك ويوميا بهذا الشكل.. جبتها من المنزلة لعتيبة ومن العريش لمرسى مطروح.. وشفت اللى ادبح عشان عود قصب، واللى حرق جرن عشان كوز دره.. الناس اجننت.. هو الواحد شاب من شوية؟..

وأنهى كلامه فجأة وانقض على يد كانت تمتد إلى المكتب وخبط عليها بعنف وعصبية قائلا:

- قلتلك ميت مرة شوفلك نشافة تانية.. هو مافيش فى القسم كله إلا دى؟.. أعوذ بالله إحنا فى سوق النور؟

قال هذا وانتظر حتى اختفى صاحب اليد مهيض الجناح، والتفت إلىّ بوجهه الجاد المشدود الملامح:

ـ والواحد يبقى حارق دمه.. وأولاد الـ«...» ولا هاممهم وعمالين يهزروا..

وكان يشير بعينيه وهو يتكلم إلى حجرة التليفون حيث اجتمع بعض العساكر حول زميل لهم بدين مترهل وله كرش كبير، وكان بعضهم يكتفه والآخرون يحاولون جذب بنطلونه وإنزاله، والرجل يلهث ويناضل بكل ما يسمح به شحمه من قوة..

ويركن عيني لمحت الصول فرحات يبتسم ويضحك ويقهقه، ثم ينسى كل شيء ويمد رقبته يتابع المعركة.. وظهر عليه أسف حقيقي حين انتهت المعركة بانتصار صاحب الكرش وتخلصه ممن حوله. ورفع حينئذ صوته قائلا بلهجة صعيدية خالصة:

ـ آه يا نسوان.. ماقادرنشي على أبو كرش كليته «شغت»؟!

وما كاد يتم كلامه حتى فتح باب جانبي وظهر المعاون في الفناء، وأصبح القسم فجأة أصم أبكم وهبطت الصرامة تجمد كل شيء، وقال الصول للمرأة في حزم:

ـ بتقولي اسمك خديجة محمد ايه؟..

وتركته يحقق وشغلتني عنه داورية الليل وقد بدأت تتجمع في الفناء. وحين تجمعت بدا منظرها عجيبا.. صفان من الظلام التام ليس فيه إلا بريق الزارير النحاسية الصفراء. وفوق الظلام نار من الطرابيش الحمراء الفاقعة.. وأمام كل صف صف آخر من الأيدي الممدودة تسند

البنادق بلا حماس.. وتسمع في الظلام همهمات وضحكات تموت سريعا كالشهب ، وقد يشذ عن الأيدى الممدودة كوع ويلكز جاره.

وفتش عليها المعاون وأنفه - كالديك الرومى - فى السماء، وعينه على زرار لا يبرق أو حذاء نفض عنه بعض سواده، وراح وجاء ثم دخل حجرته، والظاهر أنه تعشى فقد خرج وهو لازال يمضغ وعلى شفتيه لمعة، وفتش مرة أخرى وهو يجفف يديه بعد أن اغتسل..

واندكت الأرض بالأحذية وكعوب البنادق مرات، وعوقب بعض وكدر آخرون..

ثم..

جنبان سلاح و.. كتفان سلاح.. و.. داورية.. معتادان مارش..

وخرجت داورية الليل تئز وتتمايل وفى آخرها العسكرى البدين يحاول عبثا أن يوفق بين جسده غير المنتظم وخطواته المنتظمة..

وأصبح فناء القسم بعد خروجها خاويا كعربة قطار الليل حين يقترب من آخر محطة، وعدت إلى الصول فرحات فوجدته لا يزال يحقق مع المرأة ويسألها:

- اتلموا عليكى فين؟..

- جوه السيما..

- وإيه اللى دخلك السيما يا بت؟..

- محمود...

- محمود مين؟..

- محمود!!..

وهنا بدت على الصول فرحات صعيديته، وسألها وجبهته معقودة دون أن يكتب فى المحضر:

- محمود دا إيه يا بت؟..

- ابن خالتى..

ووضع القلم من يده وهو يقول:

- آه يا بلد كابوريا يا ولاد الـ..

وأخرج من جيبه علبة صفيح قديمة من التى تباع فيها السجاير الغالية، ولمحت فيها سيجارتين سادة وواحدة بفلة وعلبة كبريت.وأشعل السادة وغمغم بأشياء مبهمة تمس الآباء والأجداد وانجاب الإبهام حين قال لنفسه:

- سيما .. هه.. قال سيما قال؟.. وتدخلوا السيما تنيلوا إيه؟ .. هو إنتو بتوع سيما؟..

وانفلت من حديثه لنفسه يسأل المرأة وقد ثنى ظهره إلى الوراء ووضع ساقا فوق ساق:

- وتدخلى سيما يابت مع واد زى ده ليه؟..

وبحث بعينه ناحيتى ولعله كان يود أن يشهدنى على إجابتها فقلت له:

- ايه .. هو المحضر لسه؟..

- آه.. لسه.. هو هيخلص؟.. حاضر.. أنا عارف إنى عطلتك.. دقيقة واحدة وأفضالك..

والظاهر أنه حسبنى شاكيا أو مبلغا.. ربما هذا.. وربما وجدنى أصلح مستمعا يفضفض لى بما عنده في ليلة من لياليه الطويلة فآثر أن يؤجل انصرافى.. وكتب شيئا وهو يبتسم ويقول لى:

- وادى إنت بتتسلى.. مش بزمتك أحسن م السيما؟

وتنهد وسأل المرأة..

- هيه.. وطليقك سلط عليكى ليه؟ تروحوا السيما تنيلوا إيه؟.. ما تتكلمى يابت طليقك سلط عليكى ليه؟..

- أصلى واخده عليه حكم نفقة..

وكتب كلمة أو اثنتين والتفت الىّ بنظرة فيها استنكار:

- روايات؟ سيما؟ روايات إيه اللى بيعملوها دى؟ يبلوها ويشربوا ميتها أحسن!

- ليه مبتعجبكش؟..

- تعجبنى؟ تعجبنى إزاى؟ الفيلم لازم يملا مخ الواحد .. إنما إيه المسخرة والرقص اللى لا تجيب ولا تودى..

وأمسك القلم ووضع سنه على الدفتر وبدلا من أن يكتب قال لى بفتور:

- أنا مثلا لما قرفت من الروايات عملت مرة فيلم..

ولم تجعلنى قلة حماسته أصغى إليه تماما، ولكن كلامه وقع فى أذنى موقعا غريبا فقلت:

- عملت إيه ؟..

- عملت فيلم .. رواية.

- عملته ازاى؟ مثلت فيه والا ايه ؟!

- لأ .. فيلم ألفته مخصوص عشان السينمات..

وكدت أستخف بالأمر كله وأضحك فقد اعتقدت أنه لابد شاهد حادثة أو جناية من الجنايات التى تحفل بها حياته ويريد بسلامة نيته أن يجعلها فيلما، فقلت وأنا أكتم ضحكى:

- فيلم إيه بقى؟

فقال ببساطة ودون أن يتنحنح أو يعتدل أو يضع القلم، أو حتى يلقى بالاً إلى المرأة والناس الذين عند الحاجز:

- كان واحد هندى جه يزور مصر.. راجل غنى قوى.. من الجماعة اللى عندهم فلوس قد الفقر اللى عندنا.. الراجل جه.. وقعد فى لوكاندة فخمة قوى زى ماتقول لوكاندة مينا هاوس واللا شبت.. وكان فيه جدع غلبان زى حالاتنا كده..

وانتبهت حواسى كلها فجأة.. وملت على السور كثيرا حتى لا تفوتنى كلمة من كلماته..

وأقبلت امرأة تستغيث فى شبه صراخ، وكانت بيضاء حلوة وحواجبها مخططة بعناية فائقة.. وزمجر فيها الصول فرحات:

- مالك يا وليه؟.. مالك؟ القيامة قامت؟..

- الحق يا خويا.. الحق.. الواد موت أمه م الضرب!

- واد مين يا وليه؟

- الواد ابن جارتنا..

- واحنا مالنا؟

- يوه.. مش أنت يا خويا النبى حارسك البوليس؟

- وهو يصح إن البوليس يدخل بين الواد وأمه؟

- يه.. ولما يموتها الدلعدى يا خويا؟!

- تبقى تفرج .. نبقى فى الحالة دى نروح نمسكه..

ويئست منه المرأة فانتحت ركنا قصيا بالعسكرى الذى كان يحرسنى، وراحت تهمس له بالقصة وتهمس له أكثر بحواجبها. ثم غادرت القسم والعسكرى ساهم وكأنما أعجبته همسات الحواجب.

وعاد إلىّ الصول فرحات وقال:

- أما مصايب صحيح.. واد قال!.. بس.. الجدع الغلبان ده كان خالى شغل .. يعنى زى ما بيقولوا موظف فى كوبانية الشمس.. يعبى الشمس طول النهار فى قزايز ويسرح بيها فى الليل.هئ هئ.. أمال!.. آه.. فتك فى الكلام.. الراجل الهندى ده مرة طالع م اللوكاندة فوقع منه فص ألماظ يسوى النهاردة بالميت سبعين تمانين ألف جنيه، شافه الجدع المصرى قام واخده ومديه للغنى الهندى..

- فص إيه يا راجل يابكاش؟

والتفتنا سويا، وكان الذى قال هذا شاويش طويل معه دوسيه ما لبث أن سأل فرحات:

- عملت إيه فى المتوفى المجهول الإسم؟

وهب فيه فرحات:

- حاعمل إيه يعنى؟ أمشى فى الشارع أقول يا للى ضايع له ميت؟..

- أنا رحت المستشفى وشفته..

- تشرفنا..

- شوف ياسيدى عينه عسلية وشعره شايب وعلى صدغه الأيمن..

- وبتقول لى الكلام ده ليه؟.. هو أنا بعتك تخطيه؟.. روح شوف شغلك أحسن.. عسلية إيه يابو طويلة يا هايف؟

ثم التفت إلىّ قائلا: الراجل الهندى جه يدى للمصرى فلوس إلا

رأسه وألف سيف ماياخد ولا مليم، يهديك يرضيك مافيش فايدة فكبر قوى فى عين الهندى واكيف منه تمام .. راحت الأيام وجت الأيام وروح الغنى بلده وهو محتار يجازى المصرى ده إزاى، فلقى ان أحسن طريقة أنه يشترى باسمه ورقة لوترية.. تعرف البريمو كانت تكسب كام؟ والا استنى أما نشرب شاى..

وصفق كثيرا حتى جاء صبى البوفيه، وطلب الشاى واختلف معه طويلا على الطلبات التى تناولها فى يومه .. الصبى يقول ثلاثة وهو يقول اثنين، ولم ينته الخلاف حتى بإحضار الشاى.

وسمعنا باب المعاون وهو يفتح والمعاون يخرج ويقف فى الفناء ويتمطى، وعاد فرحات يسأل المرأة:

- هيه.. إيه الحكاية؟

- لما خدت عليه الحكم.. لف علىّ عايزنى أتنازل.. مارضيتش فبعتلى أمه وأخته وبنت خا..

- هوس.. كفاية لحد هنا.. واتلموا عليكى فى السيما؟

- أيوه وفضلوا يضربو فىّ لما كانوا حيسقطونى..

- إيه؟

- أصل أنا حامل فى ست أشهر..

وترك الصول فرحات المحضر وقد استولى عليه حب الاستطلاع وأعجبته القصة وسألها:

- يخرب بيتك.. حامل من مين يابت؟

- منه يابيه.. من طليقى..

- إمتى؟

قبل ما يطلقنى..

- وجوزك ده طلقك ليه وانت حامل؟

- عشان وقع على اليمين..

- يمين إيه؟ وطلقك إمتى؟

ليلة أول رمضان اللى فات.. كسرت قلة أمه وأنا قايمة أتسحر فحلف طلاق بالتلاتة ليكسر قصادها دراعى!..

- وكسر دراعك؟..

- لا.. طلقنى..

- أنا قلبى كان حاسس والنبى.. بقى قلة أمه هى السبب؟

بقى عشان قلة أمه اكسرت فى رمضان اللى فات، يتحرق دمى النهارده طول اليوم.. قلة تمنها ساغ يا عالم أروح أنا ضحيتها؟

إسمعى يا بت! هل لديك أقوال أخرى؟ عايزة تقولى حاجة ثانية؟..

- أيوه يابيه.. عيوشة هى اللى مقلعانى الحلق.. وأمها هى..

- أف.. يا بت أقوال أخرى غير اللى قلتيها؟

- هو أنا لسه قلت حاجة..

ولم أتمالك نفسى فضحكت، وتحول غضب الصول هو الآخر إلى قهقهة عالية وانتهى من المحضر، وتنهد وتثاءب وهز رأسه..

وخرجت المرأة ومعها خطاب للكشف عليها.. ولدهشتى خرج معها كل الناس الواقفين.

- هيه.. كانت البريمو تكسب كام؟...

- انت لسه فاكر؟.. تكسب مليون جنيه.. ما هى كانت غالية كمان!

واشترى ميت ورقة عشان يضمن المكسب، وجه السحب، واحدة منهم كسبت البريمو.. مليون من غير الضريبة، وفكرشى الراجل انه يطمع عليها ولا حد شاف ولا حد درى؟ أبدا.. عمل ايه؟ راح شارى غليون بضاعة كبير قوى.. ووسقه حرير هندى من اللى على أصله.. وإشى عاج.. واشى ريش نعام.. وإشى جوخ وكشمير ومابوليا محترمة.. وراح باعت المركب بالطقم بتاعها باللى عليها على اسكندرية، وراح باعت عقد البيع والبوليصة خالصة كل حاجة لصاحبنا على مصر.. يعنى ما عليه إلا يستلم.

وهب.. وصلت المركب اسكندرية.. حاجة باسم الله ماشاء الله.. وبتاعة مين يا جماعة؟.. بتاعة فلان.. بالاختصار الراجل باع البضاعة اللى عليها واشترى بها مركب تانية، وخلّى مركب رايحة بلاده بره شاحنة، ومركب جاية شاحنة، وإذا كان حتة الطرد اللى قد كده الواحد بيخلص عليه فى السكة الحديد بكذا.. شوف بقى مركب زى دى تكسب قد إيه فى السفرية..

واندفع في هذه اللحظة إلى الداخل رجل قصير نحيل يرتدى جلبابا كله زيت وبقع ورأسه عار.. ويرتدى قبقابا له صوت مزعج، اندفع كالسهم داخلا وهو يقول وعلى وجهه ألم عظيم:

ـ يا فندى .. يافندى ..

وضايق دخوله الصول فرحات كأن أحدهم قد صوب إلى أرنبة أنفه لكمة فاستدار إلى الرجل وأرعد فيه:

ـ مالك ؟

ـ ماليش يا فندى.. واد ابن حرام حدف طوبة كسرت لوح القزاز بتاع بترينة الدكان.. لوح القزاز اللى معرفشى أجيبه النهارده.. بلور بلجيكى من الأصلى اللى قبل الحرب.. تلاتة متر فى تلاتة.. روح الله يخرب بيتك يا بعيد زى ما خربت بيتى..

ـ دكان إيه!..

ـ بقالة المودة والإخاء فى الشارع العمومى..

ـ عارفها.. اللى عالناصية قدام الجاراج؟..

ـ أيوه .. إلهى يعمر بيتك.. ربنا مايوريك ..

ـ ـ البترينة نهين اللى اكسرت.. اللى عالشارع والا التانية اللى ع الحارة..

ـ الكبيرة يا فندى اللى ع الحارة..

فقال الصول وهو ينفض يده من الأمر

ويستعد لمتابعة الرواية:

- تبقى مش تبعنا.. تبع بولاق..

- إزاى يا بيه والبيت تبعكو..

- الناحية اللى ع الحارة تبع بولاق.

- يا فندى اعمل معروف...

- قلتلك مش تبعنا.. روح قسم بولاق..

- ياف..

- روح.. جك ريح خماسى..

واندفع الرجل يقبقب خارجا كالسهم: وانتظر فرحات حتى اختفت دقات القبقاب ثم رجع محاولا أن يستعيد الجو الذى عكره البقال.. وثنى ظهره إلى الوراء كثيرا ومال الكرسى لانثنائه.. وخلع الكاب وأمسك به فى يد يديره أحيانا وأحيانا يهف به وقال:

- الراجل كان طهقان قوى من مراكب الخواجات. ففى ظرف سنة ربنا اداله واتسع قوى.. وحبة بحبة راح شاريلك مراكب اسكندرية كلها.. وما أصبحشى فيه مركب إنجليزى .. طليانى.. تلتانى.. كله رفع العلم الأخضر..

ولاحظت أن ملامح الصول فرحات قد تراخت وانزاح عنها كل ما فيها من صرامة واشمئزاز واتخذت طابعا عجوزا راضيا، وعيناه هامتا

فى سماء الحجرة كفراشتين حالمتين، وصوته خلا من كل تشويش وحفل بنشوة طازجة حلوة كانت تخرج الكلمات من فمه لذيذة وكأنها محلاة بعسل النحل، فلا تملك إلا أن تحبها وتحب رعشتها الممتلئة بالرنين وهى تنساب فى تؤدة من خلال السكون الحزين الذى خيم حتى أصبح القسم كسرادق المأتم فى آخر الليل، حين لا تسمع فيه إلا فحيح الكلوبات.. وهمسات المعزين:

ـ وأصبح للراجل مراكب لا تحصى ولا تعد.. أصغر ما فيهم تيجى قد القسم دهه عشرة خمستاشر مرة. يسكتشى على كده؟ أبدا.. الفلوس مالحستشى عقله فراح شارى بالإيراد بتاع المراكب مصنع نسيج كبير قوى .. وشغل فيه ييجى نص مليون عامل.. بعد شهر واحد مصنع النسيج عمل مصنع قزاز.. والقزاز عمل مطاحن.. ومضارب رز.. وبعد كله إشى محالج وإشى سكر.. إشى جاز .. وإشى ورق.. وإشى مكن.. وإشى صلب.. المهم إنه جه يوم عليه امتلك فيه مصانع مصر كلها..

وما عجبوش الحال الملخبط ده فراح لامم المصانع وبناها على حتة تطلع ألف فدان لأ.. ألف إيه؟.. هى الألف تنفع.. ييجى عشرة آلاف فدان.. خمستلاف منهم مصانع والخمستلاف التانية سكن فيها العمال.. مش سكن كلشنكان.. لا.. سكن.. بيت بجنينة ببلكونة وحاوى مما جميعه حتى فيه عشش الفراخ والأرانب.. ومش بس كده كان ما يخدش من عرق العامل حاجة.. اشتغل بخمسة ياخد خمسة.. بعشرة بعشرة.. ما هو لامؤاخذة فى دى الكلمة العامل لما ياخد اللى يقضيه

يشتغل ويتفرعن فى الشغل.. واحنا شعب وارث الفرعنة أبا عن جد .. فبدل ما يطلع متر يطلع مترين.. وبدل جزمة جوز جزم.. مهو كده هات وخد.. إدينى حقى وخد حقك.. انت راخر العامل أصبح حاجة تانية.. هدوم نضيفة أربعة وعشرين قراط، عفريتة مكوية يروح بيها الشغل، وييجى بعد الضهر يلبس بدلة الأيافة والطربوش النسر والجزمة الأجلسيه. وقهاوى إيه وجناين ايه وكازينات إيه وأبهة إيه.. والناس بقوا حلوين وفرحانين ومبسوطين .. ولا قرف ولا بلاوى.. طول النهار ضحك وفرفشة والليل يروحوا السيمات.. والسيمات دى مهمة قوى .. فى كل شارع سيما وبالأمر لازم كل كبير وصغير يخش.. والأفلام أفلام تمام.. وبوليس، مفيش بوليس.. العسكرى بدل مايتلطع ٨ ساعات فى الداورية له كشك قزاز فى قزاز فى وسط الشارع.. ومكتب صغير واللى عايز حاجة يجيله..

استنى بقى لحسن الواغش بعيد عنك جه.. أما نشوف إيراد النهاردة حيبقى كام..

وحقيقة كنت أسمع الضجة القليلة التى أخذت تترى من ناحية الباب، ولكنى كنت أنا المنساق هذه المرة وراء ما يقوله فرحات وما ذهلت له تماما...

والتفت ناحية الباب فوجدته قد ازدحم بأربعة مخبرين أو خمسة طوال عراض أيضا ويرتدون اللبد، وقد أمسك كل منهم فى كل يد من يديه قبضة أطفال مشردين، ومتسولين عجائز. وكل منهم يجر ما فى يديه جراء وقد ربط جلباب الطفل فى جلباب الآخر .. وكان المخبرون

يبدون كالعمالقة الطوال، والأطفال يبدون بجوارهم قصارا صغارا كالكتاكيت المذعورة، وعبروا الفناء ووصل ركبهم إلى السور الخشبى، وكذلك وصلت ضجتهم فأنهى الصول فرحات كل الأصوات بقوله:

- بس.. اخرس انت وهوه.. وقفهم طابور يابو طه قدامى .. بطل كلام عمى فى عينك..

وذهب باقى المخبرين واصطف الطابور فى سكون..

ورجع الصول فرحات إلى الوراء كثيرا وهو لايزال فى نشوته فقلت:

- وبعدين..

- ولا قبلين.. حالا مكن من ألمانيا جه.. والمهندسين والعمال اشتغلت .. وراحوا زارعينلك الصحرا كلها.. شوف بقى الرملة دى كلها لما تزرع؟.. إلاكس يمشى فيها سبع تيام مايحصلش آخرها.. وأهم من ده وده إن مافيش قولة حاجة اسمها توابيت محاريت.. سواقى.. كلام فارغ من ده.. كله مكن.. الرى بمكن والدراس بمكن والسباخ بمكن.. وحتى كان فيه مكن يجمع القطن ويحش البرسيم.. والفلاح اللى عليه العمل.. مفيش قولة جلابية.. طاقية.. بشت.. أبصر إيه معرف إيه.. أبدا كله بدل.. بنطلونات كاكى لحد الركبة وبرانيط بيضة نظيفة وجزم بنعل دوبل مايدوبش أبدا.. والفلاحين يسرحوا طابور يشتغلوا لغاية الضهر بس وبعدين يرجعوا طابور.. والنسوان كذلك.. بس دول فى غيط ودول فى غيط.. والبيوت كلها حجر.. ولمض جاز تبطل خالص

كله كهرباء والسحب على صاحب الأرض.. وكل صف بيوت له ميز ياكلوا فيه ويرجعوا لبيوتهم يقيلوا، وبعدين العصر طابور على المدرسة يقروا ويكتبوا ويعرفوا اللى لهم من اللى عليهم. بس يا سيدى ماطولشى عليك الراجل من كتر الفلوس عنده زهد فيها كانت أرخص من التراب.. وحاكم الفلوس لما تبقى بالشكل ده الواحد لازم يقرف منها. اللى ياكل تفاح كل يوم بيقرف منه.. ففى يوم من الأيام أعلن فى الراديو.. أيوه.. مهو نسيت أقولك إنه عمل محطة إذاعة وعمل ليها فى كل بيت من البيوت وصلة.. أعلن فى المكرفون إنه متنازل عن جميع..

وكان الصول فرحات ينظر إلىّ ويقول كلماته الأخيرة وكأنه يفكر فى مشكلة أخرى..

وقال للعسكرى فجأة:

- انت واقف بتعمل إيه يا جدع؟! انت ماوراكشى شغل؟..

وقال العسكرى فى صوت متقطع:

- أصل .. الأ.. الأفندى.. أنا مستلمه..

- مستلمه؟ ليه؟

- حرس عليه..

واستدار إلىّ الصول فرحات وألقى علىّ نظرة ما رأيتها منه قبل الآن واستمر يحدجنى طويلا، ولا ريب أنه لم يجدنى أصلح كى أكون

قاتلا أو سارقا أو خاطف طفل ولست أدرى ما كان يعنيه حين قال فى بطء وشك كثير:

ـ آه. الأفندى ده. هو انت منهم؟

فقلت وأنا أبتسم:

ـ من مين؟.. المهم.. الراجل أعلن إيه فى الإذاعة؟..

واستمر ينظر إلىّ ثم قال بصوت تائه:

ـ آه.. والله مانا فاكر.. ياشيخ فضك.. أهو كلام.. انت بتصدق؟

ثم شد جلد وجهه حتى عاد كالطبلة الصارمة، وجذب «الكاب» حتى بلغ موضعه التقليدى من جبهته تماما، وهوى على «المتسول» العجوز الواقف فى أول الصف بنظرة صاعقة من عينيه، وانطلقت جعجعته المعهودة:

ـ ما تنطق يا بجم. اسمك ايه؟!

المحفظة

من الساعة الثامنة وسامى جالس على ذلك الكرسى الصغير فى ركن الحجرة، وأمامه المنضدة والكتب والواجبات والجداول، وأمامه فوق هاته جميعا المشكلة الضخمة الكبيرة التى كان قد حدد ليلتها بالذات ليحلها.

إنه لم يعد يستطيع فليست هذه أول أو ثانى مرة. له شهر وهو يتفق مع صلاح وعبدالمنعم على الذهاب إلى السينما، وفى كل مرة .. غدا أجل غدا. خلاص يا سامى، خلاص يا صلاح، الساعة تلاته أمام شباك التذاكر.. الساعة تلاته. ثم يأتى الغد ولا يذهب. لايستطيع الحصول على الشلن ولا يستطيع حتى أن يرى صديقيه وجهه ليبدى لهما عذره. وهذه المرة من أسبوع وهو يحاول. إن «المصروف» الذى يتناوله بين كل آن لا يكفى، والمطلوب خمسة قروش. قال لأبيه إنه يريد كراسة وقال مرة ورق أشغال، ولم يحصل على ثمن لهذا أو لذاك. حاول مع أمه بلا فائدة. كلما ألحف عليها رفعت كفيها إلى السماء

* صباح الخير ١٩٥٦/٣/٢٩ (من «أليس كذلك»)

وطلبت من الله أن «يسبك» ما معها من نقود على عينيها إن كان معها نقود.

ما هى حكاية هؤلاء الناس؟ إنه ما طلب منهم أبدا نقودا وأعطوه. دائما والله ما معنا. وأبوه... أبوه بطوله وعرضه وكرشه الودود وأصابعه الغليظة. أبوه كله لا يتورع عن القسم أمامه بأغلظ الأيمان أن ليس معه ولا «خردة». وهل هذا معقول؟ أمعقول أن أباه مفلس تماما كما يحاول أن يفهمه؟ أبدا! غير معقول بالمرة. إنه قادر على كل شئ. إنه يستطيع أن يفعل أى شئ، فقط لو أراد. أليس هو الذى أدخله المدرسة بعدما دخل الأولاد كلهم ورفضت أوراقه هو؟ أليس هو الذى أقسم يومها أن لابد من دخوله فى اليوم التالى، وغاب عن المنزل طيلة ما بعد الظهر وأدخله فى اليوم التالى؟ إنه يستطيع أن يفعل المستحيل. مرضت أخته.. كانت أمه تقول إنها ستموت وكانت تبكى وكان سامى يبكى. وكان أبوه هو الوحيد الذى لم يبك والذى قال إنها لن تموت، وهو الذى أخذها إلى الحكيم واشترى الدواء، ولم تمت سامية. أبوه هذا القادر على كل شئ قال له أمس وأول أمس واليوم أيضا إنه مفلس. حدثه سامى عن اتفاقاته السابقة مع صلاح وعبد المنعم واتفاقه ذاك، وضحك أبوه الطيب وقال: خليك لأول الشهر. وأكثر من الطلب ،وأكثر أبوه من القسم.. والله ما معى يا بنى. وهل هذا معقول؟ بيتهم كله إذن ليس فيه شلن؟ إنهم يضحكون عليه. إنهم يظنونه طفلا صغيرا من السهل خداعه. إنهم لا يعنيهم أبدا ذهابه إلى السينما ولا يقدرون قيمتها لأنهم لم يجربوها ولم يذهبوا إليها، إن المسألة بالنسبة إليهم ليست خطيرة. إنها ليست كمرض سامية. ويعتقدون أنه غر أبله يكفى أن يقسموا أمامه لكى يصدقهم؟!

لقد أحكم التدبير وكل لحظة معدة إعدادا دقيقا فى رأسه . سيحصل على هذا الشلن بأسهل مما كانوا يتصورون. أيعتقد هؤلاء الناس أنه لا يعرف محفظة أبيه ومكانها وضخامتها وما تحتويه؟ أحسبوه مغفلا إلى هذا الحد؟

الساعة العاشرة. أبوه وأمه وإخوته كلهم نائمون فى الحجرة الثانية. إنه لا يخاف من أحد سوى أبيه. أمه لا تستيقظ أبدا فى الليل. أبوه هو الذى توقظه كل حركة مهما بلغت تفاهتها. عليه أن ينتظر قليلا حتى يطمئن إلى أنهم جميعا قد استغرقوا فى النوم إلى آذانهم.

وأراد أن يقضى الوقت فى حل مسألة الحساب الباقية من الواجب، ولم يستطع. كان «ثمن الشراء» يقفز أمامه ويصبح «ثمن البيع». وكان يضع «العلامة العشرية» على يمين الرقم فإذا بها تساهيه وتتسلل وتصبح على يساره. ونفض يده من المسألة وراح يتأمل كالتائه محتويات الحجرة التى يذاكر فيها هو وأخته، والتى يأكلون فيها أيضا ويستقبلون الضيوف وتناله فيها الصفعات أحيانا.

وانتبه إلى نفسه على صوت يأتى من الخارج، وأصاخ أذنيه. كان بيتهم كالقبر لايسمع فيه خرير إلا الماء القليل الذى يتسرب من الحنفية، وسرسعة الصراصير فى المطبخ. وكان الحى بأكمله ساكنا سكونا أبديا لا يقطعه سوى ذلك الصوت.. صوت وحيد متهدج كأنما يعزى الناس على خيبتهم.

وأدرك سامى بعدما تسمع قليلا أنه صوت المذيع يقول نشرة الأخبار.

ودق قلبه.

لقد حانت الساعة.

وغادر مكانه على أطراف أصابعه. واحتار أيطفئ نور الحجرة أم يبقيه؟ يبقيه.. إنه خائف والنور يونسه. وتوقف فى الصالة الصغيرة التى تفصل حجرتى شقتهم. أبوه يشخر.. عظيم!

وتقدم من باب حجرة النوم وأدار «الأكرة». الباب يزيق كلما فتح. عليه إذن أن يفتحه مللى بمللى. ها هو قد أصبح فى الداخل. الظلام ثقيل، إنه لا يرى شيئا بالمرة. ماذا حدث لعينيه؟ شعاع واحد يتسرب من الباب الموارب. أبوه يشخر. أخته تقرض مثل الفأرة على أسنانها كعادتها حين تنام. إنه يرتعش. لماذا يدق قلبه هكذا؟ إذا لم يهدأ سيوقظ أباه بدقه الملعون. ولماذا كل هذا العرق؟ تقدم يا ولد.. تقدم!

وتقدم سامى أكثر فى منتهى الحذر. السرير الذى يرقد فيه والداه وأخته على يمينه. أخوه الصغير يرقد على «الملة» التى يشاركه فيها. الدولاب بعد خطوات قليلة على يساره. عليه أن يزحف بقدميه حتى لا يسهو ويصطدم بأخيه النائم ويصرخ وتكون الكارثة. كف عن الدق أيها القلب اللعين. شخر يا أبى شخر.. إرفع من صوتك هذا الذى طالما أرق نومى.

وحدث أن توقف أبوه فجأة عن الشخير وتوقف قلب سامى هو الآخر..

ولكن أباه عاد وجذب نفسا عميقا مصحوبا بشخير أعمق.. نعم..

هكذا.. هكذا.. يا أبى.. أرجوك..

ملمس الدولاب الناعم كالحرير أصبح يحسه. ها هى قبضته المكسورة، عليه ليفتحه أن يمسك المقبض بقوة، ويرفع «الضلفة» إلى أعلى قليلا ثم يجذبها بسرعة، هكذا جرب أن يفتحها فى النهار دون أن تحدث صوتا..

وفتح الدولاب..

وأصبحت الملابس المعلقة داخله فى متناول يده. كان لديهم شماعتان.. أمه قد أخذت شماعة بأكملها لملابسها وقاسمت أباه فى الأخرى. ولم يكن عسيرا عليه أن يفرق بين الشماعتين فملمس بدلة أبيه الخشنة واضح، والرائحة التى تنفثها البدلة واضحة أيضا، إنها رائحة أبيه.. إنه يعرفها فطالما شمها وهو يعانقه.. وطالما شمها فى «جاكتته» القديمة التى يرتديها وهو يذاكر حتى لا يبرد.

بحث فى أول جيب صادفه. ليس فيه سوى المنديل مكورا وأشياء فى قاعه تستقر كحبات الرمل.. ولم يجد فى الجيب الآخر شيئا...

وكان سامى يتوقع هذا .. إذ ليس من المعقول أن يضع أبوه نقودا فى جيوبه الخارجية، النقود فى المحفظة.. فى الجيب الداخلى.. ورغم هذا بحث - من قبيل الاحتياط - فى الجيب الصغير الذى توضع فيه «الفكة». كان خاويا تماما.. ليس هذا فقط بل لم يجد له قاعا أبدا!!..

وأحس بشئ من الرهبة وهو يدخل يده فى الجيب الداخلى. ودق قلبه بعنف حين عثرت أصابعه على المحفظة.. وحين استخرجها من الجيب أحس بشئ داخل نفسه يشتمه ويلعنه، وأجفل.. ولكن المحفظة كانت قد أصبحت فى يده.. وكانت ثقيلة سميكة.. لها رائحة خاصة مقبضة..

وارتبك..

كانت الخطة التى وضعها منذ الأمس تنتهى بحصوله على المحفظة ثم.. ثم ماذا يفعل؟

وفى سرعة كان قد أدرك أنه من المستحسن أن يأخذها إلى الحجرة الأخرى ويأخذ منها القروش الخمسة، يأخذها من «الفكة».. فأبوه قطعا يعرف عدد النقود الورق أما «الفكة» فإنه لا يعرف عددها، ولن يلحظ غياب خمسة قروش منها..

وتسلل خارجا. وتقلبت أمه وغمغمت وهو يمرق بين ضلفتى الباب، ولكن الموقف كان دبغ أعصابه فلم تعد تهزه أصوات أو غمغمات.. وما كاد يصبح فى الحجرة الأخرى حتى أغلق الباب وجر الكنبة ووضعها خلفه وجهز حكاية يقولها لأبيه إذا صحا وضبطه محكما إغلاق الباب على تلك الصورة..

وجلس أخيرا على نفس الكرسى الذى دبر عليه الخطة ووضع المحفظة أمامه.. كانت شيئا ضخما كبيرا فى حجم الكتاب المجلد وكأنها محفظة بنك.. وكانت من النوع القديم الأجرب الكالح. وكان يعرف أن أباه يضع الفكة فى جيبها الرئيسى الطويل، وفتحها بسرعة ومد يده داخلها ولم يجد شيئا. وقلبها وظل يرجها وسقط منها شيئان: نص فرنك ممسوح معضوض لابد أنه كان لازقا فى طياتها.. والشئ الآخر كان غريبا عجيبا.. «زلطة» سوداء صغيرة مفلطحة شكلها لذيذ.. ماذا يفعل أبوه بتلك الزلطة؟ ولماذا يحافظ عليها ويضعها هكذا فى أعماق المحفظة؟.. أفيها سر؟.. وهل يتقى بها العفاريت؟.. أو يستعين بها على جلب النقود إلى المحفظة؟..

ولم يلبث أن ترك الزلطة وأمسك بالقرشين.. قرشان؟.. كل ما معه من فكة لا يتعدى «النص فرنك».. وليته نص فرنك صالح للاستعمال، إنه يشك كثيرا فى إمكان تداوله.

ما هذه المصائب؟.. كل ما توقعه يصفى على قرشين؟!

وأخرج سامى كل ما فى باقى جيوب المحفظ من أوراق وتفحصها جميعا بنظرة واحدة سريعة. ولمح من خلال الكومة التى أصبحت أمامه عشرة قروش تكاد تزهق روحها من كثرة ما تراكم فوقها.. وكان من المستحيل أن يصدق أنها كل ما فى المحفظة من نقود، لابد أن البقية يحتويها ظرف من تلك الظروف إذ كثيرا ما رأى أباه يضع فيها الأوراق الخضراء والصفراء...

ومضى يفتح الظروف ويستخرج محتوياتها. كانت رغبته العارمة فى العثور على الشلن هى التى تدفعه أول الأمر إلى فض المظاريف والبحث بينها، ولكن بعد لحظات غلبه حب الاستطلاع على أمره. كانت تلك أول مرة يتاح له فيها أن يطلع على مكنون محفظة أبيه وعلى ما فيها من أوراق لابد أنها مهمة جدا، لها أهمية غير عادية وإلا لما احتفظ بها داخل تلك الحوصلة الجلدية. كثيرا ما رأى المحفظة وهى خارجة داخلة إلى جيب أبيه، وهى مفتوحة ومطوية، وهى فى مكانها المعتاد، ثم وهى ترقد تحت «المخدة» أحيانا.. كثيرا ما ألحت عليه الخواطر والهواجس تخمن ما تحتويه وتدفعه إليها دفعا.. ومحتوياتها كلها أمامه الآن، فأية فرصة ذهبية جاءته من السماء!!..

لم يكن يفهم ما يقرؤه تماما، ولكنه كان مسرورا قلقا، ذلك النوع الغريب من القلق البهيج الذى يعترى الإنسان كلما أتيحت له معرفة سر من الأسرار بطريقة محرمة..

وجد خطابا من خاله.. يتكلم فيه عن ميراث.. وعن مبلغ.. ويسلم فيه عليه.. ترى لماذا لم يبلغه أبوه السلام؟.. ثم ما تلك الأوراق الصدئة المهرية التى لا تسمن ولا تغنى من جوع؟.. إن حبرها من نوع أسود قديم لم يره أبدا، وخطها حلو، وهذا الشئ المرسوم عليه مئذنة وقبة.. قد صار زواج فاطمة بنت عبدالله.. من تكون فاطمة تلك؟ أتكون أمه.. لابد.. ولابد أن يكون إبراهيم بن منصور أباه.. وهذه الورقة الحمراء؟.. إدارة الغاز والكهرباء؟.. نرجو عند الرد ذكر رقم ٢٨٤ .. إيه ده؟... وإذا مش عارف إيه سنقطع التيار. ما هو ذلك التيار الذى سيقطعونه وبأى شئ سيقطعونه؟.. وهذا الظرف المكتوب عليه: قطعة من كسوة الكعبة الشريفة هدية من العبد الفقير إلى الله تعالى الحاج مبارك محمد حسن، قطعة القماش السوداء هذه التى فى الظرف من الكعبة؟! ياه!! إن رائحتها صعبة.. أمسك ذاك أم عنبر؟.. هى السبب إذن فى تلك الرائحة المقبضة التى تنبعث من المحفظة؟..

وكان ممكنا أن يظل سامى مستغرقا فى نشوة الاضطراب الخفى تلك، ولكنه وفى خضم ما كان فيه وعت أذنه صوت السلام والراديو يذيعه ويختم به برامج السهرة..

وفى الحال عاد إلى نفسه مضعضع الحواس وكأنما ضبط متلبسا.. وأصبح همه فى اللحظة التالية أن يعيد الأوراق كلها إلى ما كانت عليه،

بنفس ترتيبها ونظامها حتى تبدو وكأن لم يمسسها بشر. وفى الحق كانت مهمة صعبة ولكنها انتهت. وبقيت العشرة القروش راقدة أمامه على المنضدة منطوية على نفسها كالخرقة البالية. لم يرجعها إلى المحفظة وكذلك لم يدسها فى جيبه. وكان عليه أن يقرر أمرا من الإثنين ولم يكن القرار سهلا. إذا أخذها لابد ستنكشف السرقة، وإذا تركها فقد آخر أمل فى الوفاء بالميعاد والذهاب إلى السينما.

والعجيب أنه لم يفكر فى واحد من الأمرين، كان قد أفاق من النشوة التى أتخم بها حب استطلاعه وامتلأت نفسه بالحنق الشديد. كيف لا يعثر إلا على عشرة قروش مهرأة.. ونص فرنك ماسح معضوض؟.. هذا الأب الضخم الطيب الذى يصنع المعجزات ولا يقف أمام قدرته شيء.. كيف لا يكون معه سوى مبلغ تافه كذاك؟..

هذه خديعة.. هذا ضحك من نوع آخر عليه. لماذا لم يعمل حسابه؟ لماذا لم يكن فى المحفظة مبلغ كبير كما توقع؟ أين صرف النقود؟ أين الماهية؟

وامتدت يده الغاضبة ودست العشرة القروش فى جيبه. سوف يذهب إلى السينما بخمسة ويصرف الخمسة الأخرى. يأكل «بغاشة» و «جيلاتى» كما يأكل كل الأولاد، وليكن بعد ذلك ما يكون. وهو ماله؟ وما ذنبه إذا كانوا يرسلونه إلى المدرسة ولا يعطونه نقودا، وإذا سألهم ضحكوا عليه وأقسموا أن ليس معهم، وإذا فتشهم لم يجد سوى ورقة صغيرة بالية.

وحتى وهو فى طريقه إلى حجرة النوم ليعيد المحفظة إلى الجيب الداخلى، كانت خطواته لا تزال تحفل بالاستنكار والغضب. وحين فتح

الباب وجد كل شئ كما كان، أبوه يشخر وأخته تقرض على أسنانها والظلام مخيم.

ولم يأخذ حذره هذه المرة ويقفل الباب وراءه،إذ لم يعد يهمه وهو فى قمة الغيظ ما يحدث. ودلف وراءه من الباب المفتوح شعاع باهت من النور أضاء الحجرة قليلا وسقط على وجه أبيه.

وألقى عليه سامى نظرة وكأنما ليصب عليه جام غضبه. ولكنه تسمر فى مكانه وظل يحدق فيه كالأبله. كانت رأس أبيه منزلقة من فوق «المخدة» ومثنية على كتفه، وكانت عارية وقد سقطت عنها الطاقية التى يرتديها وهو نائم، وكان شعره خفيفا مشوشا تلمع من تحت صلعته، وكان فكه مدلى وفمه مفتوحا والشخير يتصاعد منه فى غير انتظام.وسامى دائما كان يرى أباه فى النهار ضاحكا أو مبتئساً، راضيا أو ساخطا، ولكن ملامحه على أية حال كانت دائما فيها قوة وصحة وحياة تجعل أباه يبدو كالأسد الأليف الذى يوحى مرآه بالثقة، ولحظتها ورأسه منزلق وفمه مفتوح وشعره مهدل مشوش وملامحه متراخية مستسلمة، لحظتها رآه طيبا جدا.. وغلبانا جدا.. ليس هذا فقط.. بل إن محفظته الكبيرة الضخمة ليس فيها كلها سوى قروش عشرة، وزلطة، ونص فرنك..

ظل سامى واقفا مكانه يحدق فى أبيه وكأنه يراه لأول مرة. كان من كثرة ما تعود رؤيته قد ألفه وألف أن ينظر إليه كأبيه، وإذا به الآن يراه وكأنه ليس أباه، وكأنه قد أصبح إنسانا مستقلا عنه، رجلا آخر، غريبا.. طيبا.. غلبانا.. منفصلا عنه تماما.. له جسد ورأس وساق قد انكشف عنها ثوبه وبدت ضامرة مليئة بالشعر..

وأحس بألم حاد ينتشر فى نفسه وشئ يريد خنقه، ثم أحس برغبة عارمة فى البكاء، ثم أحس أنه يود أن يلقى كل ما بنفسه ويندفع إلى الرجل الغلبان الراقد أمامه يعانقه ويضمه بشدة ويقبله، ويقبل فمه المفتوح الطيب ذاك وذقنه النابتة الخشنة وعيونه المغلقة فى استسلام.

ولم يكف أبوه طوال الوقت عن الشخير. يستريح وجهه لحظة، ثم تخرج الأصوات من أنفه وفمه.. أصوات ممدودة غلبانة هى الأخرى .. تكاد تقسم وتقول: والله ما معى ولا أمتلك..

لم يضحك عليه أبوه إذن ولم يخدعه، وهو ليس كما ظن سامى قادرا على كل شئ.. إنه نائم.. مستسلم.. وطيب.. ولم يكن يخدعه.. وتململ الأب واضطرب شخيره.

وتحرك سامى والأحزان تملؤه. وأغلق الباب. وأخرج القروش العشرة من جيبه ودسها بغير حماس فى المحفظة ثم أسقطها فى الجيب الذى كانت فيه..

وبعدما أطفأ النور فى الحجرة الأخرى رقد بجوار أخيه على «الملة».

وكان يحب تلك الفترة التى يرقد فيها وينتظر النوم، إذ كان يحلم فيها بالقلم الأحمر الذى رآه فى المكتبة والخمسين من خمسين فى الإنجليزى أو يفكر فى الحيلة الجديدة التى عليه أن يبتكرها ليحصل على قرش فى الصباح.

ولكن أفكاره طوال الوقت لم تغادر الرجل الراقد غير بعيد عنه فوق السرير، وثمة إحساس كبير يملؤه وكأنه كان يستند إلى جدار وإذا بالجدار ينهار من خلفه ويتركه مستندا إلى الفراغ.

وكلما استعاد مشهد ملامحه ومحفظته أحس بهواتف خفية تنبثق فى صدره وتهيب به أن يفعل شيئا.. لابد أن يملأ محفظته بالنقود.. بمئات الجنيهات.. لابد أن يجلب له كنزا.. لابد أن يشتغل.. يعمل أى شئ.. وعلى الأقل يقبض عشرة جنيهات فى الشهر يعطيها لأبيه قائلا:خذ ولاتزعل.. قم وانهض وغط ساقك، واستعد ملامح الأسد. قم يا أبى.. ثم أنا لم أعد طفلا، أنا والله رجل كبير يا أبى لاتخف علىّ، سأحميك ولن أطلب منك نقودا. ولن أحتال عليك لأحصل على القروش. وحياتك يا أبى لن أفعل هذا.

وتقلب أخوه وزام كمن يحلم، ثم علا صوته، وغمغم.. عاوز أشرب.. هه.. عاوز أشرب.

وكثيرا ما سمع أخاه يغمغم ويطلب الماء فى الليل فيظل ساكنا على مضض ولا يتحرك حتى توقظ الضجة أباه فيقوم ويسقيه..

ولكنه ما كاد يسمعه هذه المرة حتى هدهد عليه وهو يقول:

- حاضر.

ثم قام فى حماس زائد، وملأ له الكوب، وعاد به، وحده، فى الظلام.

وقبل أن يغلق عينيه، اعتدل كمن تذكر شيئا، ومد يديه وراح يحبك الغطاء حول أخيه، كما يفعل أبوه تماما، وتأكد أن قدميه ملفوفتان فى (البطانية)، ورأسه معدول فوق المخدة.

ثم أخذه فى حضنه.

ونام.

مـــــارش الغـــــروب

كانت دقات الصاجات تخرج صاخبة زاعقة وعلى دفعات كهدير الديك الرومي، وكنت تستطيع أن تسمعها من بعيد حتى إذا ما وصلت إلى كوبرى شبرا البلد عثرت على مصدرها .. على بائع العرقسوس.

كان رجلا مسنا كمعظم بائعي العرقسوس ويرتدى زيهم التقليدى.. فوطة حمراء قديمة نظيفة لفها حول وسطه، وفانلة بمبة بأكمام، ولا شئ غير هذا يستر الجسد خلا السروال الطويل الذى يترك الساقين عاريتين.

وكان للبائع لحية طويلة ولكنه لم يكن سنيا، كان واضحا أنه يطلق لحيته كنوع من عياقة الكبار، أو لإحاطة نفسه برهبة مصطنعة، أو على أقل تقدير ليوفر ثمن حلاقتها كل يوم.

كان واقفا فى وسط الكوبرى تماما وهو وإبريقه يكادان يسدان الطريق، فالإبريق كان ضخما قديما وكأنه هو الآخر عجوز معقد كتب على البائع أن يحمله فوق صدره مدى الحياة، وكانت له بوز رفيعة

* أو: لحن الغروب ـ الهدف ١٩٥٦/٨/١ (من «أليس كذلك»)

ممتدة وملتوية عند آخرها وكأنها يد العجوز التى عوجها الشلل حين تمتد لتستجدى.

وكانت يدا الرجل مدلاتين خلفه ويده اليمنى لاتكف عن دق الصاجات، ويخرج صوتها له ضجة وصراخ. وكان يدق على دفعات كل دفعة دقتين متتاليتين ثم يصمت برهة، ويعود إلى الدق ويقول «يا منعنش» وكان ينطق منعنش بلهجة لا نعنشة فيها ولا حماس، فالدنيا كانت شتاء، والشمس غابت من هنيهة، والكون يعبق بذلك الجو المريض الذى يتبع مغرب الشمس ويسبق حلول الظلام. وكان الناس يمضون فوق الكوبرى صامتين مسرعين.. فى إسراعهم كآبة يوم يموت، وبرودة شتاء.

كان الناس يمضون ولا أحد يلتفت إلى البائع أو تسترعيه دقاته، فالدنيا شتاء، ومن يشرب عرقسوسا فى الشتاء؟!.. من يفكر حتى فى فتح فمه أو التلكؤ لأخذ شفطة؟!

ورغم هذا استمرت الصاجات تعمل وتهدر بزعيقها المتوالى، وكلما حدق البائع فى الكون ورأى الناس يختفون من حوله ويتسربون وكأنما تبتلعهم مخابئ سرية.. وكلما رأى الجرح المدمم الذى أحدثته الشمس الغائبة فى السماء حين اخترقتها إلى عالم الظلام.. كلما رأى هذا قصرت المسافة بين الدقات وأصبح صوتها أعلى وأكثر حدة، وانطلقت حنجرته تعضد الدقات وتقول يا منعنش، تقولها حنجرة متقلصة مثنية على نفسها وكأنما انحنت تستخلص «منعنش» وهى عاصية فى قاع حنجرته لا تريد أن تخرج، فالإبريق كان لا يزال راقدا فوق صدره

كالمصيبة الثقيلة، ولا يزال ممتلئا وكل ما باعه منذ الصباح كان لم يتعد بضعة قراريط لا توقد مصباحا ولا تغمس لقمة.

والدقائق تمضى بسرعة، والوقت يتسرب تسرب الناس كأنما أصابه البرد هو الآخر.

وتدق الصاجات عالية صاخبة هستيرية تريد أن تتحدى وتستوقف الأسماع، والظلام يتكاثر وتصبح له دنيا كبيرة، وبرد السماء يطبق على الأرض، والناس يصغرون ويصغرون، وكل شئ تصبغه رمادية زرقاء ويبرد ويصبح لا حياة فيه. وتزأر الحنجرة يامنعنش، وتخرج منعنش حادة تكمل صخب الدقات، وبين كل آن وآن يقول: يا كريم سترك.

ويمد الكاف وكأنه يصنع منها حبلا رفيعاً يمده فوق الكوبرى ليوقف الناس، ويتبعها بسترك مقتضبة خارجة من الصدر وكأنما يسترضى الناس بعد هديره ويصالحهم بها.

والناس رائحة غادية، ميتانة، سقعانة، ناشفة، وجوههم شاحبة فيها غضون، وعيونهم فيها شتاء، ولا يريد أحد- رغم وجوده فى وسط الكوبرى - أن يلقى عليه نظرة.

وأطلق الرجل يامنعنش وأتبعها بيا كريم سترك، أطلقهما عاليتين صاخبتين مدويتين كاستغاثات أخيرة لسفينة تغرق.

وأيضا لم يلتفت أحد.

والوقت يمضى، والمارة يقلون، والسماء تزداد إطباقا على الأرض، وعالم الظلام يكبر ويكبر، والجرح الذى فى السماء يلتئم وتذهب حمرته وشفقه، والناس يتحولون من كائنات إلى أشباح.

وبدأت دقات الصاجات تنخفض، ولم يعد الرجل يقول يا منعنش، كان فقط يردد يا كريم سترك. وكان يقول يا كريم متضرعا، يقولها لكل شئ حوله، للأرض والسماء وعربات النقل والكارو، وحتى لصاحب الغرزة الجالس هو الآخر يرتعش ويستعد للرحيل.

وكان ما فى صوته من ضراعة ينتقل إلى نحاس الصاجات فتخرج الدقات متتابعة فى نغم، وعلى دفعات، ولكن فيها بحة، وكأنه يريد أن يرجو الناس فقط أن ينظروا إليه.. فقط ينظرون إليه ولا يشترون. لماذا يزورون عنه ويشيحون بوجوههم يتهربون وكأنهم يفرون من واجب ثقيل؟ ماذا عليهم لو فقط يلتفتون؟

ولم تفلح الدقات ولا أفلح النداء فى جلب نظرة.

وهنا كست وجه العجوز تكشيرة طيبة فيها يأس، وتهدل حاجباه فوق عينيه فى عتاب صامت. وكانت يداه لا تزالان مدلاتين خلفه ولكن الدقات همدت حدتها وتباعدت وأصبحت كدقات قلب المشرف على الموت، تسكت طويلا ثم تبرق فجأة وكأنها تقاوم الفناء. وبين الحين والحين يلقى الرجل نظرة على القراريط التى باعها وآلاف القراريط التى لم يبعها، ثم يتمتم من بين شفتين ترتجفان بالبرد: يا كريم سترك.

وظل الرجل واقفا هكذا وكأنما ينتظر شيئا ما، معجزة تحدث وتفرغ الإبريق وتملأ جيبه. ثم خفت القدم، وخطا الكوبرى عله يرزق، ولم يرزق ووقف على جانب يحدق فى الأرض والسماء والأضواء البعيدة والقريبة.. ولا شئ يحدث ولا معجزة تهبط.

وهبط عليه يأس كامل فارتفع حاجباه المتهدلان، ومضت التكشيرة إلى غير رجعة، وانبسطت ملامحه، وبدأت الدقات المتباعدة تتقارب وتتآلف، ولكنها اتخذت طابعا غريبا.. فلم يكن لها ضجة الهدير المتتالى الذى يشبه صراخ الأوزة المذعورة. تآلفت الدقات وصنعت نغمة أخرى.. نغمة خافتة راقصة حزينة. ظل الرجل يدق بيديه دون وعى، وتخرج النغمة دون وعى أيضا، تخرج هامسة تتستر بالظلام ولا أحد يسمعها، حتى فطن الرجل إلى ما تحدثه أصابعه فأنصت برهة وابتسم، ورفع حاجبيه وكأنما أعجبته النغمة وجاءته على الوجع فأوغل فيها، ومضى يضبطها ويحسنها وهو الخبير بدق الصاجات حتى استحالت إلى همسات فيها بحة تخلع القلب وترهف الأنفاس. وأطربته النغمة إلى الدرجة التى راح يهز رأسه هزات خفيفة وفورة على وقعها، ثم ما لبث الاهتزاز أن وصل إلى شعيرات ذقنه فأخذت تتأود وتتراقص.

وقف طويلا يرمق الناس والدنيا بلا مبالاة تامة، ويده اليمنى تهمس بالنحاس إلى النحاس، والطرب قد وصل إلى الإبريق وبوزه فأخذ يرتعش هو الآخر ويتمايل، ولا أحد يسمع سواه، وهو منتش لأن أحدا لا يسمع سواه ولا أحد يلتفت إليه، والنغم يخرج حنونا دامعا حلوا فى سكون المساء.

ظل واقفا إلى أن أحاله الظلام المتكاثر إلى شبح من الأشباح.

ثم بدأ الرجل يتحرك مروحا فى اتجاه شبرا البلد.

تحرك بطيئا يائسا مثنيا إلى الوراء، ويداه خلفه. والصاجات تدق

وهو يتحرك على وقع نغمتها الهامسة، كل خطوة بهمسة... همسة موجوعة ثكلى، وكل خطوة بدقة... دقة ناعمة فيها شجن. ويذوب شبحه في الليل حتى يختفي تماما، ولا تعود الأذن تسمع سوى همس النحاس إلى النحاس وهو ينخفض ويشف وينخفض.

والدنيا كبيرة كبيرة، والظلام كثير كثير.

أليس كذلك

لن يضيرك أن تعرف اسمى. حقا؟ اسمى ه . ك. تيمو شلاى. هندى أى نعم، من الهند. أرجو عفوك! اسمى متعب لكنه هندى مائة فى المائة. متعب؟! تيمو يعنى شىء كالجوهرة... نعم شىء كالجوهرة. هذا الترام ذاهب إلى الأهرام؟! حسن، حسن جدا، نفس الطريق؟ وتجيد الإنجليزية؟! حسن. حسن جدا جدا. أستطيع أن أعبر عن نفسى الآن. لا، لست ذاهبا لمشاهدة الأهرام. أنا لم أشاهدها لا هى ولا المتحف وليس لدى وقت لمشاهدتها.

غريب هذا الكلام؟ كل الأجانب يأتون فقط من أجل رؤية الأشياء القديمة هذه؟ أتظن أن مصر القديمة هى التى أغرتنى بالمجئ إلى مصر؟؟ أبدا أتعلم شيئا؟ أنا جئت لأرى مصر الموجودة.. مصر التى فى الشارع وليست تلك الموضوعة خلف ألواح الزجاج.

أنا أعرف مصر، نحن فى الهند نسمع عنها كثيرا، ولكنكم اليوم حديث العالم. ألا تعرف هذا؟ كل العالم إيجيبت. أتعلم أين أنا ذاهب

* الشعب ١٩٥٦/٨/٣١ (من «أليس كذلك»)

الآن؟ أنا ذاهب لوداع صديق. أتدرى من؟ فتاة.. فتاة كباريه! أرجوك لا تسىء فهمى. نحن أصدقاء جدا. وأنا سأرحل غدا. جئت لأقول لها وداعا. فقط لأقول لها وداعا. أتعلم أين رأيتها؟ فى نفس الكباريه الذى أنا ذاهب إليه الآن. أرجو عفوك.. أنا رجل صريح، وأحب الناس أن يتحدثوا معى بصراحة، بصراحة. لقد حدث فىّ شىء ما منذ أن وضعت قدمى فى بلدكم. أتعلم ما اسمها، اسم الفتاة؟ باهيا. اسم جميل؟ أليس كذلك؟ ياله من اسم! باهيا من أسبوع. تصور سوء حظى.. فقط من أسبوع. كنت داخلا الكباريه لأتفرج. كنت أريد أن أرى كل مكان فيه ناس فى مصر. وأنا غادرت بلدى لأتفرج على الناس. في الهند أنا عضو فى البرلمان. أجل عضو فى البرلمان. ولكنى هنا لست إلا متفرجا فقط. أيد هشك أنى عضو فى البرلمان وأنا صغير السن هكذا؟ ولكنى لست صغير السن. هل أبدو حقا فى العشرين؟ كما ترى.. أنا قصير ولا لحية لى ولا شارب، ولكن أتعلم أنى فى السابعة والثلاثين؟ سأبلغها فى أكتوبر .. ١٩ أكتوبر، ولى ولد - ابنى - يبدو إذا مشيت بجواره أكبر منى سنا. اسمه لال.. لال تيمو شلاى. لال يعين صغير. ابنى هو تيمو شلاى الصغير، وأنا شلاى الكبير. أفهمت؟ ومع ذلك فتيمو شلاى الكبير أصغر من تيمو شلاى الصغير. نهرو؟

ومن فى الهند لا يحب نهرو؟ بينى وبينك بعضهم لا يحبه ولكنى أحبه. أنا مثله اشتراكى.. اشتراكى على طريقتنا. أنا مثلا علمت نفسى. إن أبى لم يعلمنى، وأنا أعلم لال تيمو شلاى ابنى، ومع هذا يقول عنى أحيانا أنى يمينى متطرف.. أكثر يمينية من أتلى، وأحتفظ بها سرا. أحيانا يكون على حق. أرجو عفوك. أنا أتكلم كثيرا؟ أأنا ثرثار؟ ولكن

أتعلم شيئا؟ أنا أحب أن أتكلم كثيرا، وأحب أن يكلمنى الناس كثيرا، إذ بالكلام نصبح أصدقاء، وبهذه الطريقة نجحت فى مصادقة عدد كبير منكم. هذه الفتاة.. ذهبت إلى الكباريه وجلست على مائدة. الكباريه قريب من الهرم. وأنت تعرف فتيات الكباريهات.

إنهن مثل الكباريهات متشابهات فى كل أنحاء العالم. وجدت فتاة قريبة من مائدتى. وطبعا تعرف فتيات الكباريهات. عملهن أن يجلسن مع الرواد مقابل مشروب.. مشروب دائما باهظ الثمن. دائما أنت مضطر للدفع، وثمن مشروب كهذا كثير علىّ. فأنا وإن كنت عضوا فى البرلمان الهندى وهو مركز مهما كان ذا صبغة رسمية إلا أنى لست غنيا. أنا رجل فقير، ومع هذا فالناس يحبوننى جدا فى حيدر أباد. حيدر أباد هى ولايتى. لابد أن تأتى يوما وتلقى نظرة على الهند ترى حيدر أباد. ولابد أن تتصل بى حين تأتى. لابد! أنا كما ترى عضو فى البرلمان.. يعنى أشغل مركزا رسميا وأستطيع أن أريك أشياء لن تراها وحدك. أنا متأكد أنك ستحب بلدى. هناك نحن نحاول أن نبنى، ولهذا فليست لدينا خلافات كثيرة، إذا اختلف الناس قل لهم ابنوا شيئا وحينئذ لابد أن يتفقوا. أتعلم شيئا؟ يجب أن يتزاور الناس لا ليعرفوا بلاد غيرهم فقط، ولكن ليعرفوا بلادهم هم. هنا أحس بالهند أكثر، وحين تأتى أنت ستحس بمصر أكثر؟ ترامكم بطئ مثل ترامنا، ولكنه سيسرع، سنسرع به أكثر؟ أليس كذلك؟ وحتى هذا الجو الحار يجعلنى أحس كأنى فى بيتى. أتعلم ما حدث؟ أنا سعيد جدا بالقدوم إلى هنا. أتعرف لماذا؟ لقد وجدت كل شىء هنا يستيقظ وينمو.. حتى نيلكم يفيق ويحاول أن يختزن ماءه المبعثر. أتعلم لماذا نحن فقراء؟ لأننا نائمون. ابنى يقول

عن هذه يميئية ولكنها حقيقة. في بلدى حيث عملت فلاحا لفترة طويلة كنت أحب جدا أن أرى الزرع.. الزرع الصغير الأخضر وسيقانه النامية تدفع عن نفسها التربة وتبدو فوق سطح الأرض، أحب جدا أن أرى العجل الصغير وهو لايستطيع الوقوف على سيقانه ساعة ولادته، ثم حين يستطيع بعد هذا الوقوف والجرى، ثم وهو يكبر ويكثر شحمه. وأنا أحب أن أرى الشمس وهى تشرق... لابد أن منظر الشمس وهى تشرق فى مصر رائع. أتعلم ما هو أجمل شىء فى الدنيا؟ الحياة. أتعلم ما هى الحياة؟ النمو.

أرجو عفوك! لقد استرسلت. كنت أود جدا كما أخبرتك أن أتحدث مع الفتاة، ولم يكن معى من النقود ما يكفى إلا للضروريات. أحيانا تحس بحاجتك لمحادثة إنسان ما. ألا تحس ذلك أحيانا؟ ولم يكن معى من النقود.. فأشرت لها وابتسمت فجاءت وهى تبتسم. أتعلم شيئا؟ إنكم شعب ألوف. منذ أربعة أيام كنت ماشيا فى الشارع ومعى سيجارة غير مشتعلة، ولم يكن معى كبريت وأنا أدخن كثيرا كما ترى. وكلما قالت لى زوجتى هذا أدخن أكثر. أنت تعرف.. عناد، زوجتى بنت عمى، تزوجنا ونحن لم نبلغ العشرين، وكنت أيامها لا أدخن. وبالمناسبة لم تعجبنى سجائركم المصرية رغم شهرتها العالمية. مسألة مزاج. أليس كذلك؟ هل تعتقد أن التدخين يسبب السرطان حقيقة؟ من ناحيتى لا أعتقد هذا. أتعلم شيئا؟ يبدو أن كلامى أكثر من اللازم حقا. كنت أقول إنى كنت ماشيا فى الشارع ومعى سيجارة غير مشتعلة.

وفجأة، أتعلم ما حدث؟ وجدت شخصا يتوقف أمامى ويخرج من جيبه علبة كبريت ويشعل السيجارة. تصورا دون أن أسأله! إن هذا لا

يحدث فى أى بلد من بلاد العالم. أتعلم شيئا؟ إنكم أول شعب أراه يحب أن يعطى حتى ولو لم يأخذ، كل الناس تعطى وتأخذ. أنتم دائما على استعداد للعطاء.. هذه هى قمة الإنسانية. هذا هو ما كنت أبحث عنه طول عمرى. ما دينى؟ أتعلم شيئا؟ فى كل مكان يسألوننى مادينى. حين كنت صغيرا كنت أعبد البقرة. ولكنى الآن أعبد الصداقة. أتعلم شيئا؟ ولى صلواتى أيضا. أنا أحس وأنا أتحدث معك أن بذور صداقتنا تنبت. ذلك ما أعنيه. عبادتى أن أزرع بذور الصداقة وأنميها.

أنا أحس الآن أنى أصلى! اكسب صديقا تخسر عدوا! أليس كذلك؟ تعلم شيئاً؟ لقد أعجبنى الرجل الذى أشعل سيجارتى وتكلمت معه. كان يعرف فقط نعم ولا بالإنجليزية. (ييس) و(نو) فقط.. وكان رائعا. رائعا أن تراه وهو يحاول أن يرحب بى ويبثنى عواطفه بجمل إنجليزية مكونة فقط من نعم ولا، ولكنه ينطقها بطريقة تجعل للكلمتين آلاف المعانى، وتناولت معه الغداء. دعانى.

أتريد نصيحة؟.. لا ترفض الدعوة أبدا. كل دعوة تقبلها لابد ستخرج منها بأصدقاء. أتعلم شيئا؟ إن سكان العالم أكثر من العداوات التى فيه. هذه حقيقة أقسم لك. أكلت يومها طعاما مصريا حقيقيا. أجل طماطيه. أوه! نعم نعم طاميه. لا لا. طعمية. نعم نعم. لقد قضوا معى وقتا طويلا يلقنوننى كيف أنطقها. وكان غداء جميلا، تصور! أحببت جدا بيت الرجل وأولاده، مصريون سمر صغار لا تملك إلا أن تحبهم. وزوجته وشبحها يظهر ويختفى من بعيد، وخجلها الشرقى يمنعها من الجلوس معنا، وهى تنادى على زوجها بصوت خافت حتى لا أنتبه أنها تطلب شيئا أو أنهم ينقصهم شىء. وضحكات الرجل، أتعرف؟ ضحككم

عـجيب يغرى بالضحك كرائحة الشواء التى تغرى بالتهام الطعام. وتصور! رأيت الرجل وهو يعمل. هو يعمل رفا، إبرته صغيرة هكذا ولكنه يعمل بها فى حذق شديد، كم كان هذا كله رائعا. أتعلم شيئا؟ لقد جئت مصر لأتفرج على شعبها وأراه حين أصبح حديث العالم، ولكنى اكتشفت شيئا آخر، انظر ما حدث. تأتى لترى شيئا وإذا بك تجد شيئا آخر. جئت أتفرج عليه فإذا بى أحبه. كم كنت غبيا! قضيت أربعة أسابيع بعد انتهاء المؤتمر فى كلام فارغ.. كنت أتفرج على بلاد لا تهمنى فى شىء. كان يجب أن آتى إلى هنا مباشرة، هنا قلب العالم. هل أبالغ؟ أنا لا أبالغ. هنا قلب العالم. أتعلم ما سوف أقوله حين أعود إلى الهند؟ سأقول الحقيقة. أتعرف ما هى الحقيقة؟ إننى غبى، كان يجب أن آتى إلى هنا مباشرة، وليس هذا كل شىء.. قابلت كونستابل - أنت تعرف؟ - كونستابل الذى إذا رقى يصبح ضابطا. من اللحظة الأولى صرنا أصدقاء عظاما.. أعطانى صورته انظر! أين ذهبت؟ ها هى ذى، يبدو كالهنود؟ آه! كنت أقول هذا.. أتعلم شيئا؟ كان ينطق الإنجليزية مثلى. هل لاحظت أنى أنطق ال (إل) وال (دى) فى فرقعة مكتومة؟.. كل الهنود ينطقون الإنجليزية هكذا، ينطقونها بلكنة أردية، كانوا يقولون لى هذا فى وارسو. أجل! وارسو فى بولندا.. أجل بولندا. كنت هناك فى مؤتمر لدراسة مشاكل الشباب. أنا وإن كنت لا أعتبر نفسى شابا إلا أننى مهتم جدا بدراسة مشاكل الشباب. أتعلم لماذا؟ لأنى أهتم دائما باليوم الذى سيجىء. والشباب هم الأيام الآتية. تعرف شيئا آخر؟ لقد وجدت أن مشاكل الشباب فى وارسو هى نفس مشاكلهم فى دلهى!! قابلنى هناك شاب صغير ناقشنى فى الموقف العالمى تماما كما

يناقشنى لال تيمو شلاى ابنى.. نفس المنطق ونفس الحجج، ولكنه طبعا لم يقل إنى يمينى متطرف. سأكتب كتابا عن انطباعاتى حين أعود.. أجل! كتابا من حوالى.. ٣٠٠ صفحة من الحجم المتوسط وغلافه بالألوان. عفوك! صديقى الكونستابل لقد أعجبت به جدا. أتعرف أنه دعانى لزيارة قريته؟ إنها قريبة جدا من القاهرة، الأتوبيس الأصفر وبعد ١٥ دقيقة تكون هناك. لقد ذهلت.. أتعلم شيئا؟ لم أكن أتوقع هذا فتصور! لكأننى عدت إلى قريتى تانورا فى حيدر أباد. أعجب شىء أنى اكتشفت أن فقركم يشبه فقرنا تماما. تصور الوقت الذى أضعته أتفرج على بلاد لا أعرفها.

أنا هنا لا أتفرج.. أنا أتغير. أتغير كل دقيقة. أنتم تستيقظون والحوادث تجرى بسرعة.. كل دقيقة يحدث شىء. أن تصبح بلادنا بلادنا ليس بالأمر السهل يا صديقى، ليس بالأمر السهل. تصور تأميم القناة. كنت وأنا بعيد أرى أنها خطوة كبيرة لايحتملها الموقفَ فى العالم، ولا يحتملها شعبكم نفسه، ولكن انظر ما حدث.. حين أصبحت هنا بينكم تغير رأيى. وتصورا فتاة الكباريه التى حدثتك عنها تكلمت معها فى تأميم القناة ، نعم تكلمت معها. أعجب شىء وجدتها متتبعة كل ما يحدث. أنتم شعب رائع! تصور اسمها باهيا، قلت هذا قبلا. يبدو أنى أكرر نفسى.. هذه كارثة. فتاة سمراء طويلة واسعة العيون حواجبها مزججة كما تفعل نساؤنا فى الهند. تكلمت معها كثيرا.. أنت تعرف أنى أحب أن أتكلم مع الناس كثيرا.. وتصورا لقد حسبتنى أيضا فى العشرين. كل من يرانى يحسبنى فى العشرين ولست أدرى لماذا؟ كانت تتكلم معى الإنجليزية ولكنها كانت تخطىء باستمرار. سألتها كيف

تعلمتـها؟ أنا لا أخجل من توجـيـه الأسئلة، أنت تعلم. أن تدعى الجـهل خير من أن تدعى العلم.. أليس كذلك؟ سألتها كيف تعلمتها؟ أتعرف شيئا؟ لقد اكتشفت أننا تعلمنا الإنجليزية من نفس المصدر. تصور أين أنا وأين هـى وتعلمناها من نفس المصـدر. هى من البـحـارة والضـبـاط الإنجليز فى الإسكندرية، وأنا من عملى فى الجيش الإنجليزى فى الهند. اشتغلت معهم طوال الحرب. كانوا يدفعون جيدا ولكن العمل كان شاقا. تصور هذا. الإنجليز علموا المصريين والهنود الإنجليزية، أرادوا هزيمتنا بتعليمنا لغتـهم فاستعملنا لغتـهم فى التفاهم بيننا. أليس هذا أروع؟ أو تعرف شيئا آخر؟ لقد تحدثت معها فى مشاكلها فأنا كما ترى مـهتم بمشاكل الشباب، وهى لاتزال شابة. ومن ليلتها أصبحنا أصدقاء كبارا. وبينى وبينك باهيا هذه جريئة جدا.. سألتنى أسئلة كثيرة حتى خجلت أنا الرجل، تصور أنا خجلت. كانت تبدو شريرة جدا.. أى إنسان يراها لابد يخاف.. أنا خفت، ولكن أتعلم شيئا؟ قلبها كان من الداخل أبيض مثل السارى الأبيض. أخ، يالى من ثرثار. تصور أنا بدأت أتكلم معك لأقـول لك أغـرب مـا حـدث لى مع باهيـا، ولكنى طول الوقت كنت أتحدث فى أشياء أخرى.. إنه أغرب ما حدث لى فى مصر كلها، وإذا بى أشط وأنسى. إنه شىء مذهل يا صديقى لن تصدقه ولكنه حدث.. حـدث لى مع باهيـا، أتعلم لماذا قبلت الجلوس مـعى دون أن أطلب لهـا المشـروب البـاهظ؟ حـدث الأمر هكذا.. حين اقتـربت منى قلت لهـا يا فتاتى الطيبة أنا لست سائحا. أنا رجل فقير وأود أن أتحدث معك قليلا. هل أستطيع أن أفعل هذا دون أن أطلب لك شيئا؟ قالت مستحيل، أنت تعـرف أن هذا ضـرورى. قلت لهـا إنى أحب جـدا أن أتكلم مـعك. أنا

هندى من الـهند وجـئـت أزور مـصــر. وأحب جـدا أن أعـرف الناس وأتحدث معهم ولكن ليس معى إلا ما يكفى السفر.صحيح أنا عضو فى البرلمان ولكنى رجل فقير.. هل هذه جريمة؟

وانظر ما حدث.. قالت:

ـ أنت هندى؟

قلت:

ـ نعم.

قالت:

ـ كيف حالك؟

وسلمت علىّ فسألتها:

ـ لم هذا الترحيب المفاجئ؟

فقالت:

ـ لأنى أحب الهنود. أتعلم لماذا؟ لأنهم يقفون بجوارنا ضد الإنجليز. أرأيت هذا؟

سألتنى:

ـ إذا حاربنا الإنجليز هل تحارب معنا؟

قلت لها يا فتاتى الطيبة. أنا مستعد أن أفقد رأسى من أجلك. ليس من أجلك أنت بالذات ولكن من أجل شعبك.

طبعا ليس من أجلها بالذات فأنت تعرف أنى رجل متزوج ولى ابن يبدو أكبر منى سنا.

قالت:

- صحيح تحارب معنا؟ قل الحقيقة تحارب معنا؟

قلت:

- إننى وشعبى كله مستعدون أن نفنى ونحن ندافع عنك. أقصد ليس عنك أنت بالذات وإنما عن شعبك.

وكنت أقولها وأنا مؤمن بما أقول إيمانا عميقاً. ولكن انظر ما حدث؟ هللت فرحا وتحمست جدا. وأنا أحب الناس إذا تحمسوا، إنهم لا يكذبون حينئذ هكذا كان يقول أبى. تحمست جدا وشدت على يدى بقوة جعلتنى أهتز كلى. أنت ترى أنا صغير جداً ومن السهل أن أهتز. شدت على يدى وقالت:

- إجبشيان هند سوا سوا.

أتعرف شيئا؟ لم أكن أعرف معنى سوا سوا ولكنى أحسستها لأن قلبى ارتعش وهى تنطقها. أجل بشرفى دق قلبى هكذا دب دب كاللحظة التى يرى فيها العريس عروسه. انفعلت جدا.. تصورا! الشرق شرقنا، الأرض الواسعة ذات الشمس والفقراء الطيبين الأقوياء بلادنا العزيزة. الصيحة وصلت الكباريه، وباهيا الطويلة السمراء الواسعة العيون ذات الأسئلة الجريئة والوجه الشرير، باهيا تأثرت جدا، هذا شيء كثير. أنت تعلم يداى كانتا فى يديها، تصورا! أيد سمراء من الخارج ومن الداخل

بيضاء بيضاء. وتصور! أتدرك هذا؟ حين فقط تصافحنا بأيدينا صار لنا عشرون أصبعا. نعم عشرون إصبعا متزاحمة.. إصبع أسمر بجوار إصبع أسمر. الطويلة ذات الوجه الشرير باهيا، أتعلم شيئا؟ لقد كدت أفقد وعيى من الفرحة. وقلت لها:

- انظرى هنا يا فتاتى الطيبة، أنا لست من رواد الكباريهات. أنا رجل متزوج ولى ابن يبدو إذا مشيت بجواره أكبر منى سنا، وأشغل مركزا رسميا فى بلادى ولكن سوف أتشرف حقيقة إذا قبلت صداقتى.

وكنت أعنيها أجل تشرفنى. أتعلم شيئا؟ من لحظتها صرنا أصدقاء. أتعلم شيئا آخر؟ لقد ظللت أردد لها اسمى خمس دقائق دون أن تلتقط منه حرفا. نعم اسمى أرجو ألا تكون نسيته. لا. ليس كيمورانجو.. لا، تيمو.. تيمو شلاى. هـ .ك. تيمو شلاى، أنت تعلم؟ لقد أخبرتك تيمو يعنى شىء كالجوهرة. اسم متعب.. أليس كذلك، ولكنه هندى مائة فى المائة.

صـــــــــــــــــح

كان واضحا أن الصبى لا يمت إلى جاردن سيتى أبدا..

فصبى حاف مثله، جلبابه قديم متآكل، ورأسه محلوق بالماكينة ومضلع وفيه نتوءات كحبة البطاطس، ووجهه رمادى أصفر، وفيه «قوب».. صبى مثل هذا لا يمكن أن يمت أبدا إلى جاردن سيتى حى القصور والفيلات والسفارات.

أما كيف وصل إلى شوارع جاردن سيتى فيبدو أنه أفاق فوجد نفسه هناك، أو أنه ضل الطريق، والغريب أنه لم يكن حزينا ولا مبتئسا أو خائفا.. كان فى الحقيقة يبدو منتعشا طروبا.

كانت الدنيا فى ساعاتها الأولى، والشمس تلون الأرض وحسب ولا تلهبها، والبنايات غارقة فى صمت أرستقراطى مهيب، وكل ما يسمع من أصوات إنما كان يأتى من العصافير والبوابين الضخام السود الطيبين الجالسين على الأرائك يحرسون القصور، ويرتدون الجلاليب البيضاء الواسعة والعمامات المضحكة الكبيرة.

* المساء ٦/١٠/١٩٥٦ (من «البطل» أو «اقتلها»)

كل ما فى الجو كان يوحى بالبشر ويبعث على النشاط والولد يمضى على غير هدى فى الشوارع المشمسة الواسعة، وينظر فى شغف إلى البنايات والأشجار والنحاس الكثير اللامع، يصفّر، ويدندن أحيانا ويتوق، ثم يستأنف المشى بطريقة المقص فيمد كل قدم من قدميه مكان الأخرى، ويسير أحيانا بعرض الشارع، وأحيانا يرفع قدمه ويمسكها بيده من الخلف ويحجل على قدم واحدة، ولسانه يلوك فمه من الداخل فيصنع ضوضاء مكتومة كنقيق الضفادع، ويجرى إلى الأمام وإلى الخلف، ويحتل وجهه كله تعبير خالى البال المستمتع بكل ما يراه ويفعله، بلا شىء وراءه يفسد المتعة.. لا عمل ولا أب ولا أسطى...

وتعثر فجأة فى شىء ووجعته قدمه، وانحنى فوجد أن ما تعثر فيه كان قطعة حجر بيضاء فرماها بغيظ على الأرض، ولم يكتف بهذا بل دفعها بقدمه، وطار الحجر إلى الأمام مسافة ثم توقف.. وحين وصل إليه ضربه بقدمه ضربة قوية أخرى فطار الحجر واعتلى الرصيف. وحين وصل إلى مكان الحجر انحنى والتقطه وحدق فيه مليًا ليتأكد أنه ليس شيئا ذا قيمة، واستأنف المشى وهو يقذفه إلى أعلى ويلتقطه. وبعد قليل غير الحركة فأمسك الحجر فى قبضته ومد سبابته لتلامس الحائط الذى كان يمشى بجواره، وظل هكذا فترة. ويبدو أن إصبعه آلمته فقد استبدلها بالحجر. وتلفت مرة فوجد أن الحجر يصنع باحتكاكه مع الحائط خطا أبيض.. وأعجبته اللعبة فاستأنف المشى وهو يمر بالحجر على الحائط فيرسم خطا أبيض يبدو واضحا فوق الجدران الأنيقة الملونة. ورسم خطا على طول سراية آل سليمان، ثم مده إلى أن وصل إلى عمارة الفكهانى، ثم فيلا سمعان، وعبر الشارع واستأنف حك الحجر بسور حديقة السفارة الأمريكية.

وكأنما أعجبه سور السفارة حين وجده طويلا لا ينتهى، فمضى يجرى فيجرى الخط بجواره، يتوقف فيتوقف، ويحرك يده إلى أعلى وأسفل فيتموج الخط ويتعرج، ويسرع ويبطئ، فتتسع التعرجات وتضيق.

وقبل أن ينتهى السور كان قد انتهى شغفه بالخط فتوقف، وحرك يده بسرعة وعصبية فوق الحائط فرسم الحجر خطا عصبيا متداخلا فيه نزق وغضب، ورفع يده عن السور ولعق فمه من الداخل فصدر عنه نقيق الضفادع، وهز رأسه هزات كمن يراود نفسه، وهز جسده أيضاً، ثم التصق بالحائط واختار بقعة ليس فيها خدوش، وتخير حافة بعينها من الحجر وأمسكه بحرص فى يده، ثم انكب على الحائط وراح يعمل. وحين انتهى كان قد كتب كلمة: «محمد». وحدق فيها، وتراجع إلى الوراء ولعق فمه وتأملها. كانت حروفها عجفاء ركيكة. وعقد يديه خلف رقبته وثنى جسده وركز انتباهه على «ميم» محمد. وكأنما أعجبته رأسها المستلقية إلى الوراء فى عظمة، فقد عاد إلى الحائط بسرعة واندفاع وكتب «ميما» أخرى، وضم شفتيه ونفخ أشداقه ونظر إليها، ويبدو أنها لم تعجبه فانكب على الحائط من جديد وكتب «ميما» ثانية جاءت أسفل الأولى بقليل وقريبة منها حتى أنها اشتبكت مع ذيلها. وتراجع إلى الوراء ونظر إليها. وكأنما هى أيضا لم تعجبه فقد رمى الحجر من يده واستأنف المشى وهو يمط شفتيه ويلوى بوزه.

وفجأة استدار إلى الخلف بسرعة ونظر إلى الميمين من بعيد، ثم أقبل عليهما بلهفة وبحث عن الحجر بعينه حتى وجده، ومن جديد انكب

على السور ورسم خطا رأسيا بجوار الميمين، والتصق بالسور أكثر، وظل مدة طويلة يعمل وعرقه يسيل ويده الصغيرة العصبية قد تشنجت أصابعه كالكماشة على الحجر، ولما انتهى كان قد كتب: «أممنا الشعب القنال».

وتراجع إلى الوراء وراح ينظر إلى ما صنعه وهو يلهث منفعلا. وكأنما لم تعجبه الجملة فقد هز رأسه بشدة، والتصق بالحائط من جديد وراح يعمل وهو يغمض عينا ويفتح الأخرى. ولما انتهى كان قد كتب نفس الجملة مرة أخرى. ودون أن يتراجع إلى الوراء كثيرا حدق فى الخط برهة قصيرة، ويبدو أنه لم يعجبه أيضا، ووجد اللام طويلة وشرطة النون غير واضحة والقاف مغلقة والحروف كلها مائلة كالنخل حين تعبث به الرياح، يبدو هذا لأنه راح ينفخ فى يده الممسكة بالحجر لينفض عنها ذرات الغبار، ثم تخير حافة من حواف الحجر لم يستعملها، والتصق بالحائط من جديد وراح يعمل ويعرق ويغمض عينا ويفتح الأخرى.

وحين انتهى فرك يده بشدة كمن أتعبته الكتابة، وتراجع إلى الوراء ونظر إلى الجملة الأخيرة مليا، ثم علت وجهه ابتسامة رضا فعض على شفته السفلى وأخرج من فمه نقيقا ثم عاد إلى الحائط ورسم علامة «صح» أسفل الجملة الثالثة، وجعل للعلامة ذيلا مرحا طويلا علامة الرضاء الكامل.

وظل برهة يحدق فى الجملة كأنما ليتأكد أنها محفورة على حائط السور بطريقة ليس من السهل محوها، وأنها ستظل هكذا فترة طويلة،

وسيعرف كل من يقرؤها ـ بطريقة ما ـ أنه كاتبها. ظل برهة يحدق فى الجملة ثم ارتعش نصفه الأعلى كله، وأخرج من حلقه صوتا كصوت «العرسة»، ورفع قدمه اليسرى وأمسكها بيده من الخلف وانطلق يحجل بقدم واحدة ويمضى فى الشارع المشمس الواسع.

البطل

في ذلك اليوم.. مضت ساعات الصباح الأولى دون أن يجد جديد، فالمكتب هو المكتب، والحجرة هي الحجرة، والأوراق تملأ الأركان والأدراج وتطل من الدواليب، وفناجين القهوة رائحة غادية والسجائر تستخرج خلسة حتى لا يعزم أحد على أحد. وخمسة موظفين في حجرة، والوجوه كالعادة مقطبة.. مقطبة وهي تتصفح الجرائد وتغلقها، ومقطبة وهي تحدق في السقف، وعابسة وهي تطلب الشاي وتلعن طعمه، ومغمومة وهي تنحني على الأوراق وتعبث بها، وتقضي العمر تدقق وتؤجل وتكتب.

لم يجد جديد في ذلك الصباح مع أن الحرب قامت والطائرات بدأت تغير، وكل شيء.. كل إنسان يخوض تجربة الحياة والموت، والعالم لا ينام، صاحيا يرقب الشرق وهو يدمدم ويتحرر ، والمكتب هو المكتب، والحجرة هي الحجرة، وصبحي جاد هو الذي على يميني، والغازي أبو بكر على يساري.

* من «البطل» ١٩٥٧ أو «اقتلها»

غير أنه قبل الظهر بقليل، جاءني الساعي وقال:

ـ تليفون.

وتليفون من أجلي كان يعني شيئا من اثنين: إما عبدالخالق قاضي في مكتبه في وزارة الشئون ويريد أن يصبح عليّ أو كارثة حدثت في بيتنا ورأت العائلة أن تتصل بي على عجل. وفي كل مرة يطلبني التليفون أقول كارثة وفي كل مرة أجد المتحدث هو عبد الخالق.

وهذه المرة أيضا قلت:

ـ عبدالخالق؟ صباح الخير.

وإذا بصوت غريب يقول:

ـ لأ.. أنا أحمد.

ـ أحمد مين؟

قلتها وأنا أخمن من عساه يكون، فالأحمدات الذين أعرفهم لا يتجاوزون ثلاثة، وإذا به يقول:

ـ أنا أحمد عمر.

ولم يكن هذا الأحمد من بين الثلاثة، فرن اسمه في أذني رنين الإسم الغريب الذي لم تتعود على سماعه، وخجلت أن أستقصي أكثر، فلابد أنه يعرفني ويتوقع مني أني لابد أعرفه. ورحت أسأله كما يحدث في أمثال هذه الأحوال عن الصحة والمزاج والعائلة، حتى أظفر من ردوده بخيط يقودني إلى معرفته دون أن أحرجه أو أحرج نفسي.

ورغم أنه مضى يجاوبنى بنفس الكلمات التى تعود الناس قولها ردا على أسئلة كأسئلتى، إلا أنى دهشت فصوته كان مملوءا بالإنفعال يكاد يلهث، وكان يستعجل السؤال والإجابة كأنما هناك شىء يؤرقه ويود الإفضاء به إلىّ، وسمعت منه كلمات عن «مصر الجديدة» و «كتيبتنا» و«المعسكر» ولكنى لم أفهم. وسألنى مرة إن كنت حقا أذكره، ومع ذلك لم أعرفه إلا حين سألنى عن أخى محمد وصحته، إذ أيقنت أنه لابد أحمد عمر، ابن جارنا عم عمر.. أحمد صديق أخى الأصغر الحميم.

واندفعت أرحب به وأحييه وقد بدت صورته أمامى واضحة كل الوضوح، فرغم أن عم عمر كهل نحيف إلا أن ابنه أحمد هذا شاب ضخم، وإذا عرف الإنسان أن سنه عشرون عاما فقط بدا له ضخما جدا، فجسده عريض شاهق وذقنه خصب غزير شعره أسود متين كذقون الرجال الكبار. ومع هذا فقد كان من ذلك الصنف من الشبان الذين يخجلون من مواجهة محدثهم، فلا ينظرون إلى وجهه أبدا، وتجده إذا تكلم يتعثر فى كلماته فلا تخرج من فمه جملة كاملة، وأحيانا يقول الكلمة ويظنها نكتة وينفجر ضاحكا، ويحن يدرك أن أحدا لا يشاركه الضحك يصطبغ وجهه بلون الدم، ورغم كل شىء فالناس لابد أن تقول بعدما يذهب:

- والله باين عليه ابن حلال.. طيب.

وكانت صلتى به محدودة، وكل ما أعرفه عنه أنه كان فى مدرسة التجارة المتوسطة، أو الصنايع لست أدرى، وأخذ الدبلوم أو لم يأخذه، ثم دخل الجيش حسب قانون التجنيد الإجبارى.

وأغرب شيء أنك تحس دائما أنه ملآن ولديه آلاف الأشياء التى يود قولها، غير أنه نادرا مايفصح عن نفسه. وإذا تكلم فلا يقول شيئا من عنده إنما يعبث بكلمات غيره، فتقول له مثلا: إزيك أنت؟ فيرد عليك ويقول : الزاكته.. ويضحك ويخجل ويحمر وجهه. كان لا يخاطبنى إلا «بحضرتك» على اعتبار أنى الأخ الأكبر لصديقه، وأحيانا كانت تفلت من لسانه كلمة تستحق التأمل، وإذا تأملها الإنسان أدرك أنه ليس بسيطا كما يبدو، وأن له أعماقا.

وكان إذا جاء لزيارتنا وفتح له الباب، خفض رأسه وسأل عن أخى، فإذا كان موجودا دلف إلى حيث يكون مطرق الرأس لايرفع بصره ولا يتلفت. وكنت أحيانا ألقاه فأحادثه وأحس به شهما خدوما.. لو قلت له: ارم نفسك فى البحر مثلا، لذهب ورمى نفسه فى البحر فعلا، ثم عاد إليك فى ثانى يوم مبتل الملابس يقطر الماء من شعره، ويقطر الخجل من وجهه ويتهته ويقول:

ـ أما المية كانت ساقعة بشكل.

يقولها قاصدا بها أن يلومك ويؤنبك، وهذا كل ما فى استطاعة أحمد أن يؤنب به أحدا...

ولم نكن أصدقاء بالمعنى المفهوم، كنت أراه كل ستة أشهر أو كل سنة، وكنت لا أراه على حالة واحدة أبدا، ففى كل مرة لابد أن يكون قد حدث له أو حدث فيه تغيير، فهو فى لقاء طالب... وفى لقاء آخر متخرج... وفى ثالث ساخط يبحث عن عمل... ومرة أراه صغيرا لم تنبت له لحية، وأفاجأ به فى المرة التالية وقد فرعنى طولا. جاء مرة

لزيارتنا بملابس الجيش وفوجئنا به حقا، وأذكر أننا يومها سلخناه عبثا وتريقة، نقول له يا دفعة. ونضحك على شعره القصير الذى قصه كما تقضى التعليمات، ونسأله لِمَ ربىّ شاربه هكذا يقول:

- ح اعمل إيه؟. مادام مفيش تعليمات تحدد طول الشنب أربيه كده إياك يعوض عن شعرى.

ويمضى حديثنا بطريقته المتلعثمة ويسخر من نفسه ومن زملائه ومن «اليمك» والطوابير المبكرة والبروجى والنظافة، والشاويش الذى يدربهم ولسانه الذى لا يكاد يرى متعلما من أمثال أحمد حتى ينهال عليه، والتكدير والتزويغ، وتصاريح الأربع والعشرين ساعة، وكيف «يبلف» الضابط حتى يأخذها، ويضحك.. بجسده الضخم كله ومن قلبه، ثم يكف عن سخريته وضحكه فجأة ويتنحنح ليشعرنا أنه ينوى قول شىء جاد. يتنحنح ويقول:

- إنما صحتى كويسة!

وأذكر أنه فى زيارة أخرى قال لى إنه أخذ النمرة النهائية فى التنشين. وسألته وأنا أسخر من العبقرية التى هبطت عليه فجأة عن السر فى نبوغه، فمضى يشرح لى نظريته، فقد وجد أنهم يعلمون النيشان فى الجيش على علامات ثابتة ثم يمتحنونهم على علامات متحركة، ولهذا فمن أول لحظة كان ينشن على العلامة الثابتة كأنها ستتحرك فجأة، وبهذه الطريقة كان يضرب بسرعة ويصيب، وبلغ به الحماس مداه، وبلغت بى السخرية مداها وهو يؤكد لى أن الطريقة التى يعلمون بها الجيش غير مجدية، وإن أهم شىء فى الدنيا هو أن يتعود الإنسان أن ينشن على هدف متحرك.

هذا كله أمر معقول....

أما غير المعقول فهو ما حدث، فلماذا يكلمنى أحمد فى التليفون؟

صحيح أني فوجئت به، ولكنى أقول الحق فرحت وأحسست أنى افتقدته طويلا، فهناك أناس يفتقدهم المرء.. يفتقد القيم.. فالشرف فى ذهن الواحد منا مرتبط بإنسان، والإخلاص بإنسان آخر، والحنان والمحبة بثالث. وأحمد عمر هذا كان يرتبط فى ذهنى - ولست أدرى لماذا - بشيء يمس من قريب أو بعيد روح شعبنا... الشعب الضخم الخجول الذى لا يسعده شيء مثلما يسعده أن يسخر من نفسه وأخطائه.

ولم أسأله لماذا هو فى مصر الجديدة، فقد خمنت أن كتيبته لابد معسكرة هناك تحمى شمال القاهرة، إذ كان الجيش يستعد للدفاع عن العاصمة. أما الشيء الذى حيرنى فعلا فقد كان لهجته اللهجة المتدفقة المملوءة بالانفعال، وصوته المحشو بضحكات موفورة الصحة لا كحة فيها ولابلغم.

وعجبت.

وسألته كيف يكلمنى، وهل عندهم فى المعسكر تليفون؟

وأجابنى:

- احنا معسكرين قريب من هنا.. وجنبى بقال.. ياه.. داحنا شفنا العجب.. دى حرب بجد والله العظيم.. والطيارات والمدافع.. تك تم.. تصور حضرتك ما غيرتش الشراب بقالى ست أيام لما بقى شربات.. سامع الطيارات؟

وكنت حقيقة أسمع ضجة خافتة بعيدة، وكنت أعرف أن طائرات العدو تركز ضرباتها على تلك المنطقة «مصر الجديدة» ليل نهار...

وانتابنى شىء يشبه الخزى وأنا أدرك أن أحمد فى الميدان وأنا فى المكتب، وسلك طويل يفصل بين القتال الرهيب الدائر هناك والمصلحة التى أنا فيها وروتينها ودرجاتها وعلاواتها..

واندفعت أبثه كل حماسى وسخطى وأشجعه.

وقلت له وأنا أدرك أنه لابد يريد منى خدمة:

- كلنا معاك. عايز حاجة؟ أى خدمة؟ قول. محمد بيسلم عليك.

ولدهشتى أجابنى:

- مش عايز حاجة أبدا، سلم لى عليه كتير. على فكرة أنا معايا مدفع أهه، أضرب لك طلقة؟

ولعلمى أنه خجول ومن الصعب عليه أن يطلب منى شيئا إن كان يريد، عدت ألح وأسأله عما يريد، وإذا به ينفى بشدة أنه فى حاجة إلى شىء، وسألته إن كان يريد من عائلته ملابس فقال:

- سلم لى عليهم.

- بس؟

- بس.

- مش عايز فلوس، هدوم، أى حاجة؟

- أبدا أبدا.

وازداد عجبى. ومضى هو يقول:

- اسكت ! مش امبارح الله يخرب بيوتهم ضربوا المعسكر بتاعنا.

وكان يقولها ببساطة دفعتنى لأن أسأله بنفس البساطة:

- وعملت إيه؟ مت؟

وضج التليفون بضحكته وقال:

- أبدا.. خمناهم. قبل ما يضربوا المعسكر سيبناه... وعلى فكرة حصلت حاجة هايلة دلوقت.

وإذا كان لبعض الناس كلمات مختارة، فـ «هايلة» كانت كلمة أحمد عمر المفضلة، كل شيء يحكى عنه لابد أنه هايل.. وعدت ألح وأستدرجه وأنا متأكد أنه لابد قد طلبنى لأنه يريد شيئا، ولكنه قهقه وقال:

- أبدا .. عاوز حضرتك كويس... كويسة دى؟ بس على فكرة حصلت حاجة هايلة خالص.

- إيه .. حصل إيه؟

فقال:

- مش وقعت طيارة؟

فقلت:

- إيه ؟! طيارة ورق؟

فقال:

-لأ... بجد.. طيارة فرنساوى.. كانت فايتة قدامنا، قلت للقائد: أضرب يا فندم؟ ورحت ضارب قام جناحها انكسر ومالت ووطت، فالقائد زعق وقال لى خلص عليها يا أحمد... خلص عليها.. خلصت عليها، وتصور.. تصور وقعت.

واستمر يضحك ويقول:

- سلم لى على محمد. لما ييجى قول له إن أحمد وقع طيارة.. أنا عارف هو مش ح يصدق زى عوايده. إنما والله العظيم وقعتها أهه... محروقة فى الرملة هناك، أضرب لك طلقة؟

وأخذت أضحك أنا الآخر. فأيامها كانت مودة أن يقول كل واحد أنه أسقط طائرة، فما بالك وأحمد يخبرنى بنفس اللهجة التى كان يعلق بها أحيانا على أشكال بنات الجيران، يخبرنى أنه أسقط طائرة.

وحتى وأنا أرى صورته فى الجرائد فى اليوم التالى أكذب نظرى وأعود أتمعن فى صورته، وأسمع صبحى جاد وهو يحدق فى الصفحة ويقول:

- أما ولد! دا شارب من لبن أمه صحيح! ده باين عليه زى الوحش يهد الدنيا. شوف بيبص ازاى؟ الواحد سنه ٣٥ سنة وما يعرفش يوقع ناموسة! وده يوقع طيارة بحالها! ويوقعها لوحده!

حتى وأنا أسمع هذا كله وأراه، كنت أتأمل أحمد الذى فى خيالى ولا أكاد أصدق.

لحظة أن كنت أكلمه كان كل همى أن أعرف الخدمة التى يريدها لأستطيع القيام بها، وأحس أنى بهذا أساهم بنصيب ما فى المعركة، فقلت:

ـ أمال...

وترددت فقد خجلت، ولكنى استطردت:

ـ أمال بتكلمنى ليه؟

وما كادت الجملة تغادر فمى حتى أدركت أنى قلت شيئا سخيفا. وأسرعت أتكلم وأمسح أثرها من الحديث كما يمسح الإنسان كلمة كتبها خطأ، أسرعت أقول:

ـ قول يا أحمد.. عايز إيه؟ صحيح عايز إيه؟ أنا أخوك مفيش داعى للكسوف.. قول لى عايز إيه؟

وسمعت صمتا فى التليفون، وأدركت مدى الخجل الذى كان يعتريه. وطرقت أذنى كلمة: أصل.. وأعقبها صمت قصير، أدركت أن أحمد لابد يعض شفته السفلى خجلا فتلك كانت عادته، وخمنت أنه سينطلق بعدها كالمدفع ويتكلم، فكما كان خجله يجعله يتعثر فى أول الحديث فكذلك كان يجعله ينطلق بسرعة فى آخره، قال:

ـ أنت عارف.. ادونى ساعة إجازة بعد الحكاية دى... وأنا معرفشى نمرة إلا نمرة حضرتك، قلت أكلم حضرتك. دى حاجة هايلة قوى.. مش كده؟ تصورا طيارة تقع.. أنا أوقعها.. أنا أوقعها.. أنا مش مصدق. بيتهيأ لى إنها وقعت من نفسها، واللايمكن حد تانى وقعها.. سلم لى على محمد كتير..

ثم تلجلج كمن لا يعرف كيف ينهى الحديث. وسمعت نحنحة خفيفة فعرفت حينئذ أنه ينوى أن يدخل فى الجد.. وجاءنى صوته:

- إنما صحتى كويسة. أنا متشكر قوى قوى قوى.

وكانت آخر مراحل خجله أن يضحك، وكأن لا يطمئن إلى الغلافين السابقين فيغلف كلامه بغلاف ضاحك ثالث.

وحين وضعت السماعة كنت لاأزال غير مصدق أن أحمد طلبنى فقط من أجل أن يخبرنى بهذا «الشيء الهايل». وكانت السماعة لاتزال تضحك... ضحكة دسمة موفورة الصحة.

لعبة البيت

شب سامح على أطراف أصابعه، ونط، ودق الجرس. وسمع صوتا طويلا ممدودا يقول: مين. فاحتار، وخاف، وسكت.

وفتح الباب. ووقفت على عتبته سيدة ضخمة مهيبة ترتدى قميص نوم خفيفا جدا، لونه أصفر باهت كقشر الليمون. ووجم سامح وكاد يجرى ولكنه تماسك وعرف أن التى فتحت هى أم فاتن، رغم وجهها الخالى من المساحيق..

وقبل أن يحدث أى شىء، ابتسمت له السيدة ابتسامة كبيرة، وانحنت ناحيته وقالت: يه.. هو انت يا حبيبى؟!.. أنا رخرة قلت مين اللى بيضرب الجرس ده ومالوش خيال.. عايز إيه يا حبيبى؟ عايز الهون.. ماما بتعمل كفته؟

ولم يجب سامح فى الحال. مد بصره من خلال وقفة الأم العريضة وقميصها الشفاف وما بقى فى الباب من فراغ، محاولا أن يرى فاتن.. ولكنه لم يجد لها أثراً، لا فى الصالة، ولا فى الحجرة القريبة الموارية الباب، ولا بجوار الراديو تعبث بمفاتيحه..

* من «آخر الدنيا» ١٩٦١

وقال بجرأة منقطعة:

- عايز .. عايز فاتن تلعب معايا ..

وضحكت الأم، وانحنت وقبلته وقالت:

- كده .. طيب حاضر يا حبيبى ..

وانبسط سامح، وانبسط أكثر حين التفتت إلى الخلف ونادت:

- فاتن .. سيبى الغسيل أحسن تبلى هدومك .. وتعالى ..

تعالى علشان تلعبى مع ابن أم سامح ..

ثم التفتت إلى سامح قائلة:

- بس أوع تزعلها يا حبيبى .. لحسن مخليهاش تلعب معاك بعد كده أبداً ..

وقال سامح بحماس وعيون صغيرة ذكية تبرق:

- إن زعلتها ياتانت ما تخليهاش تلعب معايا تانى ..

فقالت أم فاتن وهى تتركه وتستدير

- وما تنساش تسلم لى على مامتك وتقول لها ما بتزر ناش ليه؟.

ثم دخلت السيدة إلى الحمام وهى تهتز وتترجرج ..

ووقف سامح يترقب ظهور فاتن ويتأمل الصالة، كان فيها طرابيزة سفرة مثل صالتهم، غير أن كراسيها قديمة وموضوعة فوق الطرابيزة، وكان هناك كرسى غريب الشكل مسنده عال جداً يحتاج إلى سلم

للصعود عليه، والكرسى ترقد فوقه قطة ذات ألوان جميلة، ملفوفة على نفسها، ونعسانة، وظهرت فاتن فجأة، وكأنما خرجت من تحت الأرض، ترتدى فستانها الأبيض القصير الذى يرتفع ذيله عن الركبة، وتوجهت إلى التسريحة الموضوعة فى الصالة وانحشرت بينها وبين الحائط، ثم أخرجت سبتاً صغيراً مثل الأسبته التى يباع فيها حب العزيز غير أنه مصنوع من البوص، وعلقت السبت فى يدها واتجهت إلى الباب حيث يقف سامح، وابتسم لها سامح وسار فى اتجاه السلم، وتبعته فاتن.

ـ إن كنت جدعه امسكينى قبل ما أوصل باب شقتنا.

وجرى أمامها فوق الدرجات، ولكنه حين لم يسمعها تجرى خلفه توقف وقال:

ـ إخيه عليكى.. مش قادره تجرى ورايا يا خاييه..

فقالت وفى ملامحها ثبات وتأفف ورزانة

ـ أنا محبش لعب الجرى ده....

وتضايق سامح قليلا من تأففها، ووقف ينتظرها وهو معلق بدرابزين السلم ونصفه خارج عنه.

ودخلا الشقة من بابها المفتوح، وتأكد سامح أن أمه مشغولة فى المطبخ، إذ كانت لا ترحب أبداً بإحضاره فاتن ليلعب معها.. وعبر سامح الصالة وفاتن وراءه وعيناها لا تغادران السبت المعلق فى يدها.

وأصبحا فى الحجرة الداخلية ذات السرير الحديدى القديم والدولاب والكنبة.

وقال سامح وهو يهلل ويشير إلى ما تحت السرير:

- أهو ده بيتنا.. أهو ده بيتنا.. يا لله بقى نعمل بيت..

ورفع دابر السرير الأبيض الذى يحيط به من كل الجهات، ودخل تحت السرير ودخلت فاتن وراءه.. وبينما بقت هى على رزانتها بدأ سامح يصنع زيطة كبيرة ويصرخ ويدور بها ويهلل، ثم أخذها إلى ركن السرير الداخلى حيث صندوق الشاى القديم الذى يحتوى على كل ممتلكاته وألعابه الخاصة. مجموعة كبيرة من علب السجائر الفارغة وأغطية الكازوزة وأرجل كراسى مصنوعة بالمخرطة، وعلب تونة وسالمون بمفاتيحها، وقطع صغيرة كثيرة من أقمشة جديدة متعددة الألوان سرقها من درج ماكينة الخياطة، وجر الصندوق وأخذ يستخرج محتوياته ويفرج فاتن عليها. . وبدأت الرزانة تغادر فاتن، فجلست على الأرض وتربعت، وأخذت تخرج من (سبتها) لعبها هى الأخرى وممتلكاتها وتفرجه عليها ..

وفى هذه المرة أيضاً أعجب سامح بالحلة الألمونيوم الصغيرة، والوابور البريموس الصغير، وطرابيزة المطبخ التى فى حجم علبة الكبريت؛ واستكثر على فاتن أن تكون هى مالكة هذه اللعب الجميلة كلها .. ثم انتابته الخفة والحماسة، فقام وأخذ ثلاثة ألواح خشبية كانت ساقطة من «الملة» القديمة ومضى يضعها على حدها ويقسم بها ما تحت السرير إلى أقسام، وهو يقول:

- دى اوضة السفرة .. ودى اوضة النوم .. وده المطبخ .. وبدأت فاتن تنقل أشياءها إلى المطبخ، ووضعت الطرابيزة فى ركن ووضعت فوقها الوابور، ثم وضعت الحلة فوقه، وقالت:

– احنا تأخرنا قوى .. نطبخ إيه النهارده ؟!.

فقال سامح فى حماس:

– نطبخ رز .. يا للّه نطبخ رز ..

وما لبث أن غادر تحت السرير فى الحال، وجرى إلى المطبخ حيث ادعى لأمه أنه يبحث عن كرته المفقودة فى الدولاب، وعاد وقبضته مضمومة وموضوعة فى جيب بنطلونه، وحين أصبح تحت السرير فتحها، ووضع محتوياتها من حبات الأرز القليلة فى الحلة ..

وقالت فاتن وهى تتنهد:

– انت تروح الشغل وأنا أطبخ..

فقال سامح:

– أروح الشغل إزاى ؟.

فقالت:

– مش انت تروح الشغل .. وانا أطبخ؟

فقال:

– إيبه . إنت عايزة تلعبى لوحدك .. يانطبخ سوا سوا يا بلاش..

فقالت فاتن:

– لا يا سيدى .. هى الرجالة تطبخ .. انت تروح الشغل وأنا أطبخ .. يا كده يا بلاش.

فقال سامح:

– دى بواخـة منك دى .. عـايزة تطبـخى لوحـدك وتقـوليلى روح الشغل .. واللهِ مانا رايح ..

واحتقن وجه فاتن غضباً وقالت:

– طب هه ..

وأنزلت الحلة من فوق الوابور، ووضعتها فى السبت.

فقال سامح بغضب:

– هاتى الرز بتاعى .. هو بتاعك؟

فأخرجت فاتن الحلة .. وقلبتها على الأرض .. وقالت:

– رزك أهه .. جاك قرف.

ونشبت خناقة حادة ... وكل يحاول أن يجمع حوائجه، هذه لى وهذه ليست لك .. وشتمته فاتن ولعنت أباه وغضب سامح ودفعها فسقطت منها العروسة ..وأخيراً جمعت فاتن أشياءها ووضعتها كلها فى السبت الصغير، وعلقت السبت فى يدها ورفعت داير السرير واختفت.

واغتاظ سامح كثيراً وهو يراقبها، وتمنى لو يلحقها قبل أن تغادر شقتهم ويضربها .. بنت مثلها صغيرة ومفعوصة تريد أن تمشى عليه كلمتها، دائما تغيظه هكذا كلما لعب معها، وكل مرة يلعب معها فيها يصمم ألا يعود للعب معها .. فى المرة القادمة سيضربها بالقلم لو فتحت فمها .. ولكن لا .. لن تكون هناك مرة قادمة .. لن يلعب معها

أبداً حتى لو أحضرتها أمها ورجته أن يلعب معها .. بنت مفعوصة ذات سن أمامية مكسورة تغضب لأتفه سبب، وما أسرع ما تعلق سبتها فى يدها وتتركه .. هى حرة، وحتى هو ليس فى حاجة إليها ليلعب. يستطيع أن يلعب وحده ولا الحوجة إليها.

وهكذا بدأ سامح يحاول أن يلعب لعبة البيت وحده، فراح يقيم الحواجز الخشبية التى هدمتها الخناقة، ويكلم نفسه بصوت عال وكأنه يريد أن يقسم نفسه قسمين أو شخصين يلعبان معا، أحدهما يتكلم والآخر يسمع. ومضى يقول: ودى أوضه السفرة، وده المطبخ.. نطبخ إيه النهارده؟.

وأجاب على نفسه: رز.

ولكنه غير رأيه بسرعة وقال:

- لا .. فاصوليا..

وفكر أن يذهب ويسرق فاصوليا من المطبخ، ولكنه لم يجد لديه حماسا كافيا لتنفيذ الفكرة.. كان قد بدأ يدرك أنه يضحك على نفسه حين يقسم نفسه قسمين يلعبان مع بعضهما بعضا، وبدأ يتبين أنه يلعب وحده فعلا، وبدا حينئذ كل شئ ماسخاً وقبيحاً إلى درجة أنه لم يعد يصدق أن ما تحت السرير بيت كما كان منذ دقائق مضت.. بدأ يرى أن الألواح الخشبية مجرد ألواح والدواية التى كان ينوى استعمالها كوابور مجرد دواية، وعلبة الورنيش التى كان سيستعملها حلة، مجرد علبة ورنيش فارغة. لم يعد ما تحت السرير بيتا، ولا عادت الألواح الخشبية حجرات نوم وجلوس وسفرة.

واغتاظ سامح.. فمن دقائق قليلة، وحين كانت فاتن تلعب معه كان يعتقد فعلا أن المطبخ مطبخ، والصالة صالة، وحجرة السفرة حجرة سفرة، لماذا حين ذهبت وأصبح وحده بدأ يرى كل شئ سخيفا مختلفا وكأن لعبة البيت لا تنفع إلا إذا لعبها مع الست فاتن؟

وفى غمرة غيظه غادر ما تحت السرير، بل غادر الحجرة كلها، ومضى يلف فى الصالة يبحث لنفسه عن لعبة أخرى يتسلى بها. وفى درج مكتب أبيه الأخير عثر على حنفية قديمة استغرب كيف كانت موجودة طوال هذه المدة فى ذلك المكان ولم يعثر عليها سوى اليوم. أخرج الحنفية ومضى يفتحها ويلفها وينفخ فيها، وومضت فى ذهنه فكرة. لماذا لا يستعملانها هو وفاتن فى لعبتهما، فيركبها فى رجل السرير ويصنع لها حجرة صغيرة وتكون هى الحمام، ألا يصبح البيت حينئذ كالبيوت الحقيقية؟ ولكن .. لا.. إنه لن يذهب أبدا معها حتى ولو جاءت من تلقاء نفسها وحاولت أن تذهب معه فسوف يقول لها بكل احتقار:

- جاية هنا ليه يا باردة. روحى ياالله على بيتكم..

وطبعا هى لابد قادمة عما قليل، فهى الأخرى لن تجد أحدا تلعب معه.

وانتظر سامح أن تأتى، ولكنها لم تأت، وتذكر حينئذ كيف كانت غلبانة وهى تنحنى وترفع داير السرير والسبت معلق فى يدها، كانت غلبانة صحيح، لماذا لا يذهب ويرى لعلها واقفة خارج باب شقتهم تنتظر منه أن يذهب ويصالحها؟

وذهب إلى الباب، وفتحه، وتلفت هنا وهناك ولكن الطرقة كانت خالية وليس فيها أحد..

وعاد مغموما إلى الحجرة الداخلية، واتجه إلى السرير ونظر من الفرجة الكائنة بين الداير الأبيض والمرتبة.. بدا ما تحت السرير واسعا جدا وخرابا والألواح الخشبية ولعبه وأشياؤه المبعثرة شكلها كئيب، وليس هناك أبدا أى أثر لذلك العالم الصغير الذى كان أحب لديه من كل عوالم الكبار، وسينماته ومباهجه.

وترك الحجرة متضايقا وظل يدور فى الصالة، وفجأة أحس إنه ضاق ببيتهم كله وأنه يريد الخروج منه والذهاب إلى أى مكان، وهكذا وجد نفسه واقفا فى الطرقة خارج باب الشقة وحده، أمه تناديه وهو يكذب ويقول أنه ذاهب ليلعب مع الأولاد فى الحارة...

وفى الطرقة بدأ يفكر، لابد أن فاتن ذهبت إلى أمها باكية، ولابد أن أمها أخذتها وأغلقت عليها الباب ولن تسمح لها أبدا باللعب معه مرة أخرى. إن أخوف ما يخافه لابد قد حدث .. ياله من غبى سخيف، لماذا أغضبها؟ لماذا لم يقل لها: أنا رايح الشغل أهه، ويصل باب الحجرة مثلا ثم يعود ويقول لها: أنا رجعت م الشغل أهه، لماذا عاندها؟ وماذا يصنع الآن؟

وهبط درجات السلم تائها، محتارا، مترددا بين أن يهبط ويحاول أن يجد طفلا من أولاد الحارة يلعب معه، أسخف لعب فهو لا يريد إلا أن يلعب مع فاتن، لعبة البيت بالذات، وفاتن ذهبت إلى أمها ولن تعود أبدا، أو أن يصعد ويدعى لأمه أنه سخن ومريض، وحتى لم يجد فى

نفسه أية رغبة أو حماس لكي يهبط أو يصعد أو يتحرك من مكانه أو يفعل أى شئ. كل ما أصبح يتمناه من قلبه وهو يهبط درجة ويتوقف درجات أن تزل قدمه رغما عنه فيسقط ويتدحرج على السلم وتظل رأسه تتخبط بين الدرجات، وكل خبطة تجرحه وتسيل دماءه.

وحين وصل فى هبوطه إلى باب شقة أم فاتن كان الباب مغلقا ومسدودا وكأن أصحابه سافروا أو عزلوا.. ألقى نظرة واحدة على الباب ولكنها جعلته يحس بالرغبة فى البكاء، ويسرع بالهبوط.

وقبل أن ينتهى السلم، عند آخر بسطة، توقف، حزينا، حائرا، وكأن شيئا ثمينا قد ضاع منه، وأخرج رأسه من درابزين السلم وتركها تتدلى فى يأس من حديد الدرابزين ومضى يجلس على الأرض ويفرد ساقيه بلا أى اهتمام بملابسه أو بما يلحقها ثم يقف فجأة وقد قرر أن يكمل الهبوط ولكنه يجد نفسه قد عاد للجلوس وإدلاء رأسه من حديد الدرابزين. وكلما تذكر أنه لولا عناده لكانت فاتن لاتزال تلعب معه وكلما تصور أنه قد حرم من اللعب معها إلى الأبد تمنى لو مرض فعلا أو مات أو أصبح يتيما من غير أب أو أم.

ولم يصدق عينيه أول الأمر، ولكنه كان حقيقة هناك، على آخر درجة فى السلم، سبت فاتن الصغيرة نائما على جنبيه والحلة الألومنيوم ساقطة منه، وهبط السلالم الباقية قفزا، وتدحرج وعاد يقفز، وعلى آخر درجة وجد فاتن هناك، هى بعينها، جالسة ورأسها بين يديها، وكانت تبكى ودموعها تسيل، وسبتها الصغير راقد بجوارها والحلة قد تبعثرت منه.

وأحاطها سامح بذراعيه واحتضنها وراح يطبطب عليها بيديه الصغيرتين ويقبلها فى وجهها وشعرها ويقول لها وكأنه يخاطب طفلة أصغر منه بكثير ويصالحها، وهو فرحان لأنها لم تذهب لأمها ولا اشتكت: معلهش.. معلهش.. معلهش..

وجذبها برفق لينهضها، ونهضت معه بغير حماس ودموعها لاتزال تتساقط، دموع حقيقية، وأعاد الحلة إلى السبت وعلقه فى يدها، ومضى يصعد بها السلم، وذراعه حولها وهى مستكينة إليه، لاتزال تدمع، وجسدها ينتفض، ولكنها لا تقاومه ولا تتوقف عن الصعود.

آخـــــــر الدنيـــــــا

حين ذهبت شمس الشتاء الصغيرة وجاءت الشمس الكبيرة، وهبت نسمات الحر تؤذن بقرب الامتحان .. كان أهم ما يشغل باله هو ضياع تلك القطعة الفضية المسدسة الأحرف ذات اللمعة الهادئة الوقورة، والنعومة الخشنة التى يبعث ملمسها الفرحة والأمان.

وحين رجوعه إلى البيت وقد ضعضعته رحلة العودة، وملأت جسده النحيف الأصفر بالعرق الصغير الأبيض، مد يده فى جيب البنطلون، وحين لم تلمسها كذب أصابعه وعاد يمدها، وكلما أكدت الأصابع أنها غير موجودة ازداد تكذيبا لها .. ولم يبدأ الخوف الأكبر ينتابه إلا حين فتش جيوب البنطلون كلها والجاكتة والجلباب ومكان وقوفه وكل بقعة من أرض الغرفة المظلمة التى لا يأتيها النور إلا من كوة صغيرة قرب السقف، لم يبدأ الخوف الأكبر ينتابه إلا حين فتش الحجرة وما فيها، بحرص وإمعان، وكأنما يفتش كفه .. ولم يجدها.

حينئذ فقط، كانطلاق الإستغاثة فى ريف ساكن، كالخبر القاصم للظهر .. كالمصيبة المفاجئة، أدرك أنها ضاعت ولم تعد فى حوزته ..

* الجمهورية ١٧/٩/١٩٦٠ (من «آخر الدنيا»)

ووجد نفسه ينهار على الأرض، نصف خالع لملابسه، وهو لا يعرف شيئاً ولا يفكر في شئ، ولا ما يجب عليه أن يفعل، وكأن عقله ضاع منه أيضاً .. وطالت الجلسة وامتدت وهو يحس بها وكأنها لم تبدأ، وكأنها جريمة أن يتحرك .. لم يبدأ يتحرك إلا حينما بدأ صوت رفيع يعلو داخله ويقوى ويؤكد له أنها أبداً لم تضع، وأنها لابد موجودة في مكان ما، وما عليه إلا أن يجد المكان ليجدها، هنا فقط تحرك، وأكمل خلع بدلته وأكمل ارتداء جلبابه، وعاد يفتش الحجرة ومحتوياتها من جديد، ثم خرج إلى وسط الدار الواسع غير المنتظم، وصعد إلى السطح، ويعود من الحطب عسعس فيما أمام البيت من تراب، بل الكناسة أيضاً فرزها، بالعود، وبعينيه، وبكل قدرته على التمييز .. ولكن بحثه في كل تلك الأمكنة كان نوعاً من أداء الواجب... لم يكن قد فقد شيئاً قبل الآن .. فلم يكن أبداً قد امتلك شيئاً .. ولهذا فهو لم يجرب أيضا أن يبحث عن شئ، ولا أحس أبداً بهذا المزيج الغريب من الأفكار التي تفزعه، ويطردها فتعود أقوى، فيكاد يبكي مخافة أن يكون ما يحدث له هو الجنون الذي يرسلون من أجله الناس إلى السراية الصفراء.

لا يهم الآن أين هو أو ماذا يفعل ، ولا إن كان قد قدر له أن يظل حياً إلى يومنا هذا، ربما عاش واغتنى وبنى لنفسه قصراً وأحس بأهمية أشياء كثيرة، ولكنه أبداً لا يمكن أن يكون قد أحس بمثل الأهمية التي أحسها يوماً ما لتلك القطعة الفضية المسدسة الأحرف .. ليس لأنها أول نقود أعطاها له أبوه .. فأبوه كان دائماً يعطيه أشياء كلما جاء لزيارتهم .. والحقيقة أنه لم يكن يأتي كثيراً، كل بضعة شهور مرة .. يفاجأ حين يعود من المدرسة بصوته الحبيب يأتيه من وراء الباب قبل أن يفتح له

الباب .. أو يكون الليل قد استتب وسكنت الأصوات كلها ثم مر قطار آخر الليل بصفيره الحزين النعسان ، ومرت بعده دقائق. وإذا بالقبضة تدق على الباب وبالصوت، أحب صوت يقول : افتحوا أنا فلان .. ولهذا فما من مرة كان يعود فيها من المدرسة ويطرق الباب، وما من مرة يفوت فيها آخر قطار، إلا ويستجمع نفسه استعداداً للمفاجأة، واستعدادا لما قد يعقبها من خيبة الأمل..

وإذا جاء أبوه أخذه تحت إبطه واحتضنه وقبله، قبلة سريعة في خده، ودس يده في جيبه وأخرج له شيئاً: حبة كراملة، قلم رصاص جديد غير مبري، وأحياناً يدس يده ولا يخرج شيئاً ويحس بأبيه محرجاً، فيفتعل سبباً ويختفي لينقذه من الإحراج .. وفي كل مرة يأتي يظن أنه قد استحوز عليه أخيراً ، وأنه لن يفلت منه أبدا. وفي كل مرة يحدث ما يؤلمه ، فيعود من المدرسة أو من الخارج ليجد أن أباه قد ساهاه وذهب، يدور في أنحاء البيت ويصعد إلى السطح، ويجري إلى الجامع يفتش صفوف المصلين الراكعين أو الواقفين أو حتى الساجدين الذين قد اختفت كل معالمهم، ولم تبق لأيهم سوى قدم واحدة واقفة تسند الجسد، وبلمحة واحدة يلقيها على الأقدام كان يدرك أن أياً منها ليست قدم أبيه ..

ويلهث حينئذ إلى المحطة، لعله في مكان ما من البلدة لم يسافر بعد، ولابد سيأتي لركوب القطار، وتمر القطارات، ذاهبة وآتية ولايظهر له أثر، حتى إذا ما مر قطار الرابعة تملكه اليأس الكامل، وجازف بنفسه ومر من أمام «الراس» في طريقة إلى البيت يكاد يبكي، وأحياناً يبكي،

ويحس أن البكاء لا يعبر أبدا عن ضيقه وأن الحل الوحيد هو أن يساهيه القطار ويظل يدهمه ويدفعه حتى يوصله إلى بعيد .. أبعد بعيد .. آخر الدنيا.

ويصل البيت، وتسأله الجدة أين كان .. فيتخابث هو ويسألها أين أبى ؟ فتجيبه بتلك الكلمة التى يحس بها كزلطة السكة الحديد حين تدق الرأس: سافر. لكم كره السفر وتمناه، فهو الذى يأخذ أباه منه، وهو أيضا الكفيل بأن يذهب به إليه.. وكأنما تتذكر الجدة ... إذا لابد تعنفه عن شئ حدث أثناء زيارة أبيه، ثوب متسخ، أو شحوب زائد عن الحد أو كلمة شكوى تفوه بها، وبيد جافة معروقة تأخذ انفه بين إصبعيها لتمسحه، وتعلمه النظافة، وإن تململ ثبتته فى مكانه بقرصة أذن، وإن قال : « يا اما، لكزته قائلة: اسكت يا ابن النجسة .. ويحس بالخجل الشديد، وكأنها عرته أمام الناس، مع أنه يعلم تماما أن جدته فظة المخارج فقط، وأن كلامها مع الجميع شتائم.

ويحين العشاء .. والعشاء دائماً خضار من الغيط مسلوق، أو أرز بالتقلية، والطبلية تزدحم بأيد كبيرة خشنة، وحتى النساء اللاتى يخجلن فى حضرة الرجال لا يخجلن ساعة الطعام ويروح الكل يأكل فى نهم، والأيدى تتسابق بلقم كالفئوس، تفرغ الغموس فى ومضة، ويده صغيرة كيد القطة، يمدها خلسة، ويدعى الأكل خائفا أن يدرك أحد أن الطعام لا يعجبه وأنه دلوعة وأنه طفل، فالجميع كبار يعاملونه كالكبير ولا يمكن أن يجعلهم يتصورون أنه صغير، ولا تكون به حاجة للإدعاء فلا أحد يفطن إليه والكل مشغول عنه، والقطط وحدها هى التى تهرب من

القبضات الساحقة الزاجرة، وتستهيفه وتتكاثر عليه، تمد يدها قبل يده، فإن حاول سبقها زجرته، وماءت فى وجهه وأخافته.

.. وفى أحيان يضيق بالعشاء ويروح يتصور عشاء آخر، مع عائلته الحقيقية. وإخوته الصغار والكبار. فلا بد أن له إخوة ولابد أنهم يتناولون الآن طعاماً أحسن وأبوه يأخذهم تحت ذراعيه ويهدهد عليهم، وأمهم، أمه تدللهم وتطعمهم، لابد رغم كل ما تقوله الجدة وتقسم عليه؛ رغم تأكيدها بأنه لا إخوة له ولا أم وأنه شيطانى .. مرة انتابه العناد وظل يبكى ويطالب الجدة أن تدعه يذهب إلى إخوته وأمه، وحين لم يفلح فيه زجر أخذته الجدة فى حضنها وقبلته وقالت له وهو يرى الدموع فى عينيها أن أمه سرقها حرامى ذات ليلة من أبيه، وأن لا فائدة من بكائه أو إصراره إذ لا أحد يعرف مكانها أو أين تقيم وأنها هى أمه الحقيقية التى سيعيش معها إلى الأبد، ليذهب كالشطار إلى المدرسة، ويتعلم ويصبح غنياً وأفندياً كالبهوات. وحين حاول المحاولة الأخيرة وطلب أن يذهب إلى مدرسة من المدارس القريبة من أبيه ضمته الجدة وهى تخبره أن لا مكان له عند أبيه إذ هو يعمل هناك، بعيداً جداً، بينهم وبينه أسفار وأسفار .. عند آخر الدنيا يا جدتى؟ تماماً هناك يا بنى .. مكانك معى هنا لتكون قريبا من المدرسة . ورغم هذا فلم تكن المسافة بين بيت جدته والمدرسة تقل عن الأربعة كيلو مترات، يصحو لها من الفجر، توقظه العمة أو زوجة العم التى يكون عليها الدور فى جلب الماء من الترعة ، وتصب عليه من ابريق فخار ذى ماء مرصرص يوقف شعره ويدمى فروة رأسه. ويظل لا عمل له طوال الطريق إلا النفخ فى يده ، ويجرى حتى لا يتأخر، والطريق مضبب نصف مظلم، وطويل ،

لا نهاية لطوله، ويقطعه وحيداً، فزملاؤه لا يصحون فى هذا الوقت المبكر ومع هذا يسبقونه إلى المدرسة، وقد أركبهم آباؤهم ركائب، أو قطعوا لهم تذاكر بتعريفة فى أول قطار. ودائماً يصل والطابور واقف، ولابد له كل يوم من خيرزانات أربع أو خمس للتأخر أو لقذارة الحذاء أو لعدم الحلاقة .. وبأيد صغيرة ورمها البرد وخدرها الضرب، وبأذن حمراء بالزمهرير وما تيسر من القرصات، وببدلة جرباء كالحة، وركب مسلوخة، وشبه حذاء، يدخل الفصل، منكس الرأس، وربما لهذا كان يطلع الأول .. دائماً الأول، ودائماً هو أكثر التلاميذ إنتباها، ربما لكيلا ينتبه إلى نفسه ويخجل .. فى فسحة الغذاء فقط يعود رأسه ينكس، حين يترك غيره يذهب إلى المطعم أو الكانتين ، ويذهب هو ليبحث، هناك، عند آخر السور، على منديل الغداء الذى طبقوا له فيه الرغيف على قطعة الجبنة، والذى كان يخفيه بجوار السور، ويتكفل لونه الذى لا يختلف عن لون الأرض بحفظه من الضياع. وما أعمق الراحة التى كان يحسها حين يدق آخر جرس، إذ معناه أن تبدأ رحلة العودة، نفس الطريق الذى قطعه لاهثاً مذعوراً يعود منه الهوينى، وبالهوينى يحلم، ما يشاء من الأحلام، وقد لا يحلم أبداً ويظل طول الطريق سعيداً يكاد يطير، فقط لإحساسه أنه هنا يستطيع أن يختار أى حلم ويحلم به، وأى هدف ويحققه، هنا يستطيع أن يعثر على أمه، ويستحوز إلى الأبد على أبيه، ويسافر إلى آخر الدنيا، ويجد الكنز وخاتم سليمان ومصباح علاء الدين.

وفى نفس طريق العودة هذا فقد كنزه الحقيقى. القطعة ذات القرشين التى أعطاها له أبوه فى زيارته الأخيرة .. وقبل أن يغيب غيبته التى

طالت، وأسالت دموع جدته مراراً، ويسمع الهمسات أنه لن يعود إلى البلدة مرة أخرى، أشياء لم يكن يحفل بها، فالهاتف الذى فى نفسه يؤكد له أنهم جميعاً يكذبون عليه، فمن المستحيل أن يتركه أبوه هكذا ولا يعود إليه. بل هو لا يعرف تماماً لماذا أبطل التفكير فى أبيه، ووضع همه كله فى القطعة ذات القرشين، صحيح كان يدرك أنها نقود، ولكنه يدرك بالسمع، فهو لم يشتر شيئاً ولم يبع، ولا امتلك قرشاً أو مليماً فى حياته ووضعه فى محفظة أو كيس . بل لم يكن قد امتلك أبداً شيئا لنفسه، البدلة والكراريس والأقلام كانت أشياء يعطونها له ليذهب إلى المدرسة، والأشياء التى كان يعثر عليها أحيانا ويحفظها ويصنع لها صندوقاً ويضعها فيه كان يدرك فى أعماقه أنها بغير قيمة، ويستغرب حرصه على إبقائها عنده واعتنائه بها، فهو لا يتحمس لها إلا حين تضيع أو يكتشف ذات مرة أن جدته تخلصت منها. القطعة ذات القرشين أو «أم أربعة» كما كانت الجدة تسميها، كانت شيئا آخر. لأول مرة فى حياته أحس أنه أصبح مالك شئ ذى قيمة عظمى، إنها ليست نكلة أو ربع قرش أو تعريفة أو غير هذا من القطع التى كانوا يسمحون له بإمساكها فى يده أو التفرج عليها، إنها قرشان بحالهما، فى قطعة من الفضة، الفضة التى يسمع الناس يتكلمون عنها باحترام لا يعادل إلا إحترامهم للذهب .. أيام أن أعطاها له أبوه لم يكن قد أحس بأهميتها، كان مشغولا كالعادة بخوفه من أن يسافر، وبالضيق الذى ينتابه حين يسافر. والأقاويل التى أعقبت سفره. حين بدأ يفطن إليها، وإلى أنها ملك خالص له، لا يشاركه فيها أحد، كاد ينسى أباه والدنيا وكل ما فى حياته.

وظلت معه طوال الشتاء إذا عاد من المدرسة كان يضعها فى كيس صغير خيطه بنفسه لأجلها ويحكم وضع الكيس فى جيبه .. كلما خرج من البيت تحسسها .. كلما جاء عليه الدور فى لعبة - ضربونا - اطمأن لوجودها . ولا ينام إلا إذا ملس عليها، ويستعجل اليقظة ويصحو فرحاً لأنه من جديد سيضغطها بين إصبعيه ويقلبها ويستمتع مرة أخرى بلمس خشونتها. إذا ارتدى البدلة نقلها إلى جيب البنطلون، وقبل أن يخلعه يكون أول ما يفعله أن يعيدها إلى الجلباب. وأغرب شئ أنها وهى معه، يتحسسها طوال الطريق كان يحس بالدنيا دافئة، وبخطواته أسرع، وحتى إذا ناله على التأخير ضربات وتورمت يداه فقبل أن يدخل الفصل كان يناضل لكى تستطيع أصابعه التى فقدت حركتها وإحساسها أن تطبق عليها، وحين تنقل إليه الأصابع حجمها مبالغا فيه ومضاعفا، وملمسها مخالفا مغايرا وكأنما تورمت هى الأخرى وفقدت الإحساس ونالت خيرزانات، حين يحدث هذا، فى التو كان يذهب الألم عن يديه والمهانة عن نفسه، وفى الفصل إذا استعصت عليه الإجابة استنجد بها، وإذا خانته الذاكرة وأخطأ وأحس بالمذلة تعزى بأنها على الأقل معه، فى متناول يده، وتركزت أحلامه فى طريق العودة حولها. أحيانا يتصور أن أناساً يعرضون عليه مائة جنيه ليأخذوها، ورغم إدراكه أن الجنيهات المائة مبلغ لاحد لضخامته فإنه كان، إذا وصل فى أحلامه إلى مرحلة التنفيذ، لا تطاوعه نفسه فيرفض، ويرفض حتى مبلغاً أكبر، ويقول الناس عنه أنه مجنون ويسألونه كيف لا يقايض عليها بمائة جنيه وأكثر فيعجز عن تقديم السبب، إذ هو نفسه لا يستطيع أن يعرف لماذا يحبها كل هذا الحب، ويفضلها على مال الدنيا كلها، وحتى على مصباح علاء الدين.

وحين يستعرض فى الطريق مخازى اليوم، ودائما كانت له كل يوم مخاز، ويتذكر نظرة مدرس الجغرافيا، «الملظلظ» السمين ذى الحذاء البنى الذى لم تر عيناه شيئاً فى مثل لونه البنى الجميل ولمعته التى تخطف البصر، ونعله التخين السميك المحلى، حين يتصل بالجلد، بعدد لا نهاية له من الخطوط الدقيقة القصيرة المتوازية، أعظم ما كان يتمناه فى حياته أن يرتدى حذاء بمثل تلك اللمعة والنظافة - حين يتذكر نظرته إليه، النظرة التى كلها إشمئزاز وكأنه ينظر إلى دودة أو بصقة .. وكلامه عنه، وعن أبيه، وبصيغة الجمع، وعن أبيه بالذات، فقره وفقرهم وكأنهم مصابون بداء منفر تتقزز له النفس اسمه الفقر - حين يتذكر ضرب التلامذة الكبار له، وقذفهم الحبر على بدلته، وجاره ابن عامل تليفون هندسة الرى الذى ترك له التختة وحده وذهب إلى تختة أخرى هامساً فى أذن جيرانه بأنه لم يعد يطيق رائحة البصل والمش التى تفوح منه، حين يطارده أبو ضب الذى أطلقوه عليه ظلما حتى آمن به ويبدأ يفكر فى وسيلة لانتزاع أسنانه - حتى يستعرض ويضم نفسه على نفسه وكأنما يريد أن يخفى نفسه عن نفسه. لا يبدأ ينسى ويعود يحلم ويسعد إلا حين يتذكرها، ويدس يده كالملهوف ويطمئن عليها.

وفى ذلك اليوم، حين خلع البدلة وعرف أنها ضاعت وظل ما تبقى من اليوم منحنياً يبحث أو نائما على بطنه يخترق الظلام بأنظاره ويتأمل، وآوى أخيراً إلى مضجعه بين الأجساد الكثيرة التى تحفل بها وبنفسها وشخيرها الغرفة كان كل ما يشغل باله قبل أن تغمض جفونه أنه بعد، لم يجدها، وحين استيقظ ومد يده مرة واحدة إلى الكيس عن

بعد، وتلمس جميع أطرافه، استعد لصرخة فرحة وأطبق يده مرة واحدة على الكيس ولكن يده لم تطبق إلا على الهواء. وكان الكيس، كالأمس لايزال فارغا. تورم قلبه وتمدد يحتل كل صدره ويكاد يوقف أنفاسه عن التردد. ما فائدة الصباح الباكر أو المدرسة أو أن يكون الأول ويصبح كالبهوات إذا لم يجدها؟

ومضت أيام كثيرة، خميس وجمعة وما فعله فى اليوم الأول، كان يفعل بعضه فى الأيام الأخرى، فيعيد تفتيش الدرج أحيانا أو يتأمل البقعة التى يقف فيها حارسا لمرمى فريق الكرة الزلط، أو يعيد تقسيم الحوش إلى مربعات جديدة يتفحصها إصبعا إصبعا. مضت أيام، وعاد يضحك ، يحزن ويلعب ضربونا. ويعانى من خشونة الجدة وخيزرانات المدرسين ولكنه كان وكأن شخصا آخر هو الذى عاد يفعل كل هذا، شخصا لا يفرح ولا يحزن ولا يجد فى الألم ألما ولا فى أحلام العودة سعادة. أما شخصه هو، فقد ظل دائما معها، وكأنها كانت تمتلكه وحين ذهبت أخذت انتباهه وكل إحساسه، كلما فتح فمه ونطق شيئا، كلما كف عن الحديث وسهم، كلما أحس أنه يريد أن يفكر، كلما بدأ يضحك، كلما صادفته سعادة صغيرة، حبة طماطم أو برتقالة أو أستيكة يكافئه بها مدرس الحساب على معضلة، كلما أحس بالغصة وأدرك مفجوعاً أنها ضاعت، وأنه لا يزال لم يعثر لها على أثر، وهنا ومن جماع نفسه، وبكل ما يمتلك من عناد وتصميم كان يهتف ويكاد يصرخ ويسمع الناس أنها لم تضع، أبدا لم تضع، فلابد أنها موجودة فى مكان ما من الدنيا تنتظر منه أن يعثر على المكان فيعثر عليها.

وفى يوم، وقد مضى الشتاء وبدأت الدنيا تحفل بالشمس الكبيرة والحر ورائحة الإمتحان، كان عائدا ما كاد يخلع الجاكتة ويلقيها، ويلتقط أنفاسه من رحلة العودة حتى تذكر، هكذا وكأن يدا لا يعرفها امتدت ووضعت الفكرة فى رأسه ثم تلاشت، تذكر أنه فى اليوم الذى فقدها فيه تماما كانت نفسه قد زينت له أن يحصل على بضع كيزان من التين الشوكى المزروع فوق جسر السكة الحديد، وأنه لأول مرة خالف نصيحة أبيه الذى كان يوصيه على الدوام بألا يصعد إلى الجسر أبدا، وأن يمشى على الناحية المحاذية للخليج من السكة الزراعية، بحيث إذا ميلت عليه سيارة قادمة يصبح بإمكانه أن يخوض فى الخليج الضحل، يومها خالف النصيحة وصعد إلى الجسر وزاغ بصره بين الكيزان الناضجة الصفراء كالكهرمان، وبين جلباب عم على الأسود الذى يشترى التين من المصلحة ويحرسه ويبيعه. لابد أنه فى خضم خوفه واضطرابه ومحاولته أن يحاذر الشوك وأن يفك ملابسه بطريقة يدعى بها لعم على أنه يقضى حاجته فيما لو ظهر له فجأة، لابد أنها سقطت منه فى ذلك المكان ولابد أنه لم يع وهو فى حالته تلك بسقوطها.

ورغم أن الأمر كان مجرد فكرة بعيدة الاحتمال، أبعد منها أن تكون قد ظلت فى مكانها تنتظره طوال تلك الأسابيع، هى الجديدة أو تكاد، ذات اللمعة، رغم هذا إلا أن الفرحة التى اجتاحته أغرقت بفيضانها أى تردد أو شك، فرحة حقيقية جعلته يدرك أنه لم يكن يفرح، وحين انطلق يجرى بالقميص والبنطلون قافزاً فوق جدته التى كانت تجلس على عتبة الغرفة تلضم عقود «البامية الناشفة» أحس أيضا أنه لأول مرة

يجرى أو يمشى أو يتحرك أو يهمه الجرى والتحرك. ودون أن يعى، كان قد حدد لنفسه مايجب عليه عمله، فالتين الشوكى مزروع بطول الأربعة كيلو مترات التى يستغرقها الجسر، وهو لايعرف فى أى بقعة بالذات قام بمغامرته، ولهذا فسيمسك الجسر من الأول من محطة البندر إلى أن يجد البقعة، ولم يلتقط وعيه بنفسه ولم يبدأ ينظر إلى الشئ المحدد إلا حينما أصبح، وكأنما بسرعة البرق عند محطة البندر، ونظر إلى الجسر الطويل واستعذب النظر ففى مكان منه سيجدها، ولا يهم الطول، فكلما طال البحث امتدت النشوة، وأيضا لا يهم أنه للمرة الثانية يخالف نصيحة الأب وتحذيره بأن القطار لو فعل سيقطعه قطعاً قطعا .. أكبر قطعة منها فى حجم القرشين .. فهو للمرة الأخيرة يخالفها، ولا خطر هناك، فالساعة بالكاد قد بلغت الثالثة، وباقى على القطار القادم .. قطار الرابعة ، ساعة والأمر لن يأخذ منه دقائق .

* * *

وقدما قدما فوق الفلنكات الخشبية مضى يتحرك، ويتوقف، ويجول بعينيه خلال الزلط الكثير، عشرات الزلطات ومئاتها وآلافها ثم ينحنى ويتفحص جذور التين وأوراقه الجافة، ثم يعود للسير ولكنه كان يدقق ويتفحص لأداء الواجب ليس إلا، فقد كان يعتمد على انفعال ما سينتابه حين يصبح عند البقعة التى قام فيها بمغامرته، إذ رغم أن تينها لا يختلف عن غيره فى طول الجسر، وزلطها لا يختلف عن الزلط إلا أنه متأكد أنه لو رأى ألواح التين وأوراقه وشجرته التى أخذ منها، فى الحال سيعرفها. وهكذا مضى، يزحف قدما قدما، ينظر أداء للواجب،

ويتأمل الأوراق والبقع منتظرا أن تحدث له الاختلاجة التى يترقبها، وحين لا تحدث يتقدم خطوة أخرى فرحان فقط لأنه أخيرا يعود للبحث عنها، سعيد بتضييق الخناق عليها يود لو لم يحدث صوتا حتى لا تحس به وتفر.

وترك السيمافور خلفه، وعدى الكوبرى، وبدأت أعصابه تتوتر وكأنها تستعد للاختلاجة الكبرى، وأصبح يدقق إلى الدرجة التى لا يرفع عينيه عن الزلط إلا حين يبدأ الزلط يسبح أمام عينيه ويدور، ولا يترك شجرة التين إلا حين يحس بأشواك أوراقها تكاد تلمس عينيه، وفجأة اختلج جسده، وتوالت دقات قلبه وعرق وأحس بروحه تنسحب إلى أسفل وعاد يدير عينيه فى البقعة ويزداد جسده اختلاجاً ودقا وعرقا، بالضبط .. هى البقعة ، بقايا الكيزان التى انتزعها، والورقة التى قسمها نصفين للاسبب معين. كان مفروضا أن يبدأ بفحص الزلط والرمل والتراب وينحنى ويدقق، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا فقد وجدها، هكذا دون أن يبحث عنها، لفت نظره بريقها الفضى الوقور ينبعث من فوق حجر أبيض وكأنما وضعت هناك بفعل فاعل أو ظل يحرسها ملاك، تماما كما هى، بالعضة الصغيرة فى حافتها، بملسمها، بالرجفة التى تعتريه حين يتحسس خشونتها الناعمة.

ظل زمنا طويلا واقفا فى مكانه لا يفكر ولا يرى ولا يسمع ولا يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل، وكان أول ما تحرك فيه يده، وتحركت لتزيد قبضته عليها .. وخاف عليها من عنف القبضة فخففها، ثم سار ، ووجد نفسه يتوقف بلا سبب، وما كاد يتوقف برهة حتى أحس بفرحة

حلوة طاغية وأدرك أنه وجدها، حقيقة وجدها، وراح يقذفها بحرص لتعود تختلط بالزلط وينقض عليها وتستميت قبضته ليعود يفتحها ويقذفها ويفرح حين يجدها، ولكنه لم يلبث أن عدل عن إضاعتها، فقد خاف أن تساهيه كأبيه وتذهب ويفتش ولا يجدها . خاف إلى درجة كاد يعتصر نفسه فيها ويبكى، فهو خلاص لم يعد يريد أن يساهيه شئ ويأخذ روحه معه، إلى درجة أصبح حلمه كله أن يستمر فى هذه اللحظة إلى الأبد، فهو لم يعد يريد شيئاً، لا أب ولا مدرسة ولا جدة ولا حتى يوما آخر يستيقظ من أجله وينام فى آخره .. لم يعد يريد إلا أن يظل يحس أنها عادت إليه وأنه عاد إليها، وأنها ستبقى معه وسيبقى معها دون أن يقطع هذا البقاء حادث أو ضياع.

وأنَّى له أن يدرك وهو على هذه الحال، أن الثالثة كانت قد فاتت من زمن، والرابعة حلت، وقطارها جاء وقام من محطة البندر وتعدى السيمافور وأنه فى تلك اللحظة بالذات خلفه يصفر له صفيرا متقطعا مستغيثا يأمره به أن يبتعد.

لغـــة الآى آى

لم تكنْ بالضبط صرخة ولكنها كانت الأولى .. بعد منتصف الليل بقليل تصاعدت غير آدمية بالمرة . حتى الحيوان ممكن إدراك كنه صوته، ولكنها بدت لأول وهلة جمادية ذات صليل كعظام تتكسر وتتهشم، تمسكها يدا عملاق خرافى القوة وبنية صارمة لا رحمة فيها تدشدشها .. فجأة وفى المنزل الهادئ المظلم الفاخر الإظلام السابح فى سكون مسود تلمع فيه حواف الموبيليا الأنيقة الموزعة بعناية وذوق .. بيت ساكن ناعم يرفل فى رائحته الليلية الخاصة التى تميزه عن أى بيت، وفى الحى المترف الذى تتثاءب نوافذه وأضواؤه واحدة وراء الأخرى، ويؤوب إلى الرقاد على ضجة المدينة ووسطها المستيقظ كغمغمة غارق فى الأحلام.

وفى وسط هذا كله، ومن مكان لا تستطيع تحديده أو تعرف إن كان يمت حتى إلى الحى، تصاعد ذلك الشئ الغريب الغامض الأول - مفاجئا وكالطعنة الملتاثة - حافلا بأنين التمزق وكأنه صادر من حنجرة

* الجمهورية ٨/١٠/١٩٦٤ (من «لغة الآى آى»)

تتمزق أحبالها الصوتية لتصدر الصوت ويكاد يمزق طبلة أى أذن يقع عليها.

ودونا عن سكان الحى والبيت بدا وكأنه الكائن الوحيد الذى سمعه. كان مغمض العينين لا يزال بينه وبين النوم مشكلة لا بد لها من حل، ومر الصوت مفاجئا غير مألوف من الصعب تبينه، ولكن جسده فى اللحظة التالية كان يقشعر بخوف طفلى مذعور- وإن لم يستغرق زمنا - أسلمه إلى عينين مفتوحتين لآخرهما، وقلق وعاصفة من الاضطراب. فالإحساس التالى الذى واتاه كان إحساسا بالذنب. شعور غامض يربطه بالصوت ويؤكد أن الصلة بينهما من صنعه ومسئوليته، وأن عليه وحده يقع التحمل للنهاية .. وبالغريزة التفت .. كانت زوجته لا تزال على وضعها، فقط فى اللحظة التى التفتت فيها ماءت مواءً طال بعض الشئ، ثم بإرادة نائمة انتقلت إلى جنبها الأيسر وقربت ساقيها، ربما كان هذا هو الأثر الوحيد الذى أحدثه الصوت فى جسدها المستسلم لأول مراحل النوم. وارتاح واطمأن بعض الشئ وهو يواجه الأمر وحده، فقد كان ظهورها على المسرح لحظتها كفيلا بزيادة ارتباكه.

ما هذا الصوت ومن أين جاء؟

فى لحظة مر بخياله ألف احتمال إلا الاحتمال الوحيد الذى كان يخاف مروره. لم يكن قد تغير فى البيت أو فى الحى أو فى دنياه كلها شئ ما عدا ذلك الشئ الواحد الذى اغتم له .. ولا بد أن يكون الصوت الجديد من صنع القادم الجديد حتى ولو نفى عقله بشدة وأبى أن يصدق.

ولم يشأ أن يفكر أكثر، مجرد صوت وحدث.. المهم ألا يعود يحدث ومر بعض الوقت أحال اللحظة إلى دقيقة أو دقائق ، ولا شئ يتغير داخل الليل الساكن، والأمل يقوى.

ولكن وشوشة غامضة حدثت اندفع منها إلى أعلى فجأة صوت كالطوفان الهادر العمودى له وقع العظام نفسها وهى تسحق وتتدشدش.. صوت أقرب إلى رعد تنفثه السماء فى ماسورة مكتومة ما لبثت أن فتحت وسلكت فى استغاثة راعدة مولولة ممدودة، يخاف صاحبها أن ينهيها وكأنما الموت عند نهايتها .

انتهى الأمر .. لم تعد هناك فائدة.

كان هذا الصوت إنثانى مزعجا حقا، حتى أنه مع علمه هذه المرة وتأكده من مصدره لم يستطع كبح جماح ارتجافته، ليس خوفا منه وإنما من الشئ المجهول المروع الذى يختفى لابد وراءه ويحدثه .. مزعجا ومحيرا إلى درجة لم يلحظ معها أن رفيقة الفراش قد اعتدلت نصف اعتدالة والتفتت إليه قائلة بهستيريا مفاجئة:

- إيه ده؟ قول لى بسرعة وحياتك إيه ده ! وحياتك بسرعة بسرعة بسرعة.

وقبل أن يفكر فيما يقول انخلعت عنه ناظرة إليه بشك متوحش:

- أوع يكون هوه ؟

وقبل أن يفتح فمه أردفت:

ـ أنا مش قلت ؟ أنا مش قلت ؟ اتفضل بقى! اتفضل بقى؟ أنا مش قلت؟

وحقيقة لقد قالت وعارضت، وكل ما حدث كان رغم قولها وإرادتها. وبالتأكيد هى الآن بسبيلها إلى إعادة ما قالته، وعليه أن يتذرع بالصبر ويقول لها كلاما مطمئنا كثيرا .. إنها مجرد آهة .. آهة ستمر ويعود كل شئ إلى سابق عهده.

أكان معقولا أن يعود أى شئ لبلتها إلى سابق عهده؟ الكلام نفسه وربما الألفاظ نفسها.

وما فائدة الكلام؟ والكلام الذى دار كثيرا، وقد كان ممكنا ما دام الوضع هكذا .. زوجة حلوة قوامها كقوام المانيكان، وساقاها حتى فى الظلام يظهران من قميص النوم فى إغراء لا جمهور له، وحتى هناك تواليت وماكياج للنوم، وعناية خاصة بالشعر، ودهان مخصوص للبشرة، وزوج هناك دائما بينه وبين لحظة النوم مشاكل لابد لها من حل، زوج امتلأت روحه بالتجاعيد مثلما فقد رأسه الكثير من الشعر وفقدت عيناه القدرة على الرؤية.. مادام الوضع هكذا فقد كان ممكنا أن يدور الكلام نفسه وربما الألفاظ نفسها حول أى موضوع ـ كالعادة ـ لا تلتقى عنده وجهات النظر. المهم أنهما أصبحا بشئ من التحدى ينتظران الصرخة الثالثة التى لن تجئ كما يؤكد الزوج، والتى لابد أن تأتى كما تصرخ الزوجة. ومن المطبخ هذه المرة كان المصدر واضحا ولا شك فى أمره.. انطلق مواء كمواء القطط يحاول صاحبه كبته وخنقه فيخرج مضغوطا ثاقبا إرادته، فيبدو كما لو كان رجل قد قرر

بجماع ما يمتلكه من قوة إصرار أن يتأوه كما يريد، ولتقم القيامة بعدها. انطلق صفير معذب متألم متظلم باك غاضب كافر مستغيث بائس مؤمل زاهد .. آى ، آى ، آى، آى طويلة وقصيرة، ممدودة ومبتورة، عالية بكل قواه يرفعها، منخفضة بجماع إرادته يخسفها، مجروحة دامية، لاسعة كنار فى العين، كاوية كصبغة اليود فى الحلق .. حارقة كآثار الحامض المركز.

فتحت الزوجة فمها تصرخ فى هوس من تأكد قولها، وانتظرت أن تنتهى الصرخة لتطلق صرختها هى. ولكن انتظارها طال وبدأت رغما عنها تسمع، ومن الذهول استمر فمها مفتوحا وأذناها بأمر قوة قاهرة تصغيان. ثم بدأت ترتجف وتقترب من زوجها وتمسك بيده لتوقف الرجفة، وفى نفس اللحظة التى كانت قد قررت فيها أن تطلق لفزعها العنان وتستغيث صارخة انتهت الصرخة فجأة، وكأنما انكسر الجهاز الذى يصدرها.

وكان الصمت الذى حل تاما ساحرا كالدواء الشافى المعجز .. لو لم يحل - وفى اللحظة التى حلّ فيها وعلى تلك الصورة الكاملة - لفقد أحد أو الجميع عقولهم.

قالت الزوجة بعد جرعة صمت سخية:

- كده يا حديدى .. كده ؟

وأجاب بهمس مناه ألا يصدر:

- أرجوك يا عفت .. أرجوك.

ولكنها لم تستجب وبفحيح أكثر انخفاضا وإلحاحا سألته:

ـ بس أنا عايزة أعرف .. أرجوك انت .. أنا ح اجنن عايزة أعرف .. ماوديتوش فى لوكاندة ليه ؟ ماسبتوش يتحرق مع أهله ليه؟ عملت كده ليه؟ أرجوك قوللى بس .. عشان ما اجننش.

كيف يخبرها وهو نفسه لا يدرى لماذا أقدم على ما أقدم عليه. كان قد اتخذ قراره من زمن وكف تماما عن مساعدة أهل «زينين» وتوظيفهم والتدخل لقضاء مصالحهم. إن أهل بلده هؤلاء لا يكاد يبرز من بينهم واحد حتى يتسابقوا إلى جذبه إلى أسفل وإغراقه فى حل مشاكلهم .. مشاكل لو تفرغ لها لاحتاج لأضعاف عمره، فلا يوجد إنسان إلا وله مشكلة حادة ملحة تطلب الحل وتستحثه .. ومائة ألف نسمة فى زنين وما حولها بمائة ألف مشكلة. بقرار حاسم باتر منه أن تبقى له حياته الخاصة ومشاريعه وطموحه، وأن ينفض عن نفسه هذه الأيدى الكثيرة التى تريد إنزاله وجره إلى حيث هم، وكأنما لا يطيقون رؤية البارز العالى ولا يستريحون حتى يبرك مثلهم ويعجز.

ولكن السكرتير جاءه قرب الظهر قائلا ان أبا فهمى وعمه بالخارج وانهما يريدان رؤيته. وحياته ليس فيها إلا فهمى واحد، أول وربما آخر طفل أو إنسان يعترف الحديدى لنفسه أنه أذكى منه. كان فهمى إذا وقف ليجيب ـ وقد عجز الفصل عن الإجابة ـ التفت الحديدى بكليته ناحيته يتأمل ملامحه الشاحبة ووجهه المليء بالعظام الناتئة، والذى تكسوه مع هذا غلالة من مهابة خفيفة .. مهابة التفوق أو العبقرية. وكل كلمة ينطقها كان يتأملها وتبهره حتى الطريقة التى ينطقها بها. فكل كلمة كانت الصواب بعينه .. كل كلمة بالضبط هى ما يجب أن

يقال وما يعجز الجميع عن قوله. فهمى كان يقولها ببساطة ودون أى جهد فى ذلك الفصل من المدرسة الإلزامية ذى الجدران المتساقطة الطلاء الكاشفة عن الطين الذى بنيت به الحيطان .. الفصل ذى السبورة الكالحة البالغة الصغر وكأنما هى سبورة خاصة لتلميذ واحد، المزدحم بعشرات الطواقى الصوف والبيضاء القطن وأحذية الإخوة الكبار - أو ربما الآباء - والقباقيب والحقائب القماشية التى صنعتها كل أم لابنها أو خيطت على المكنة فوق البيعة مع الجلابية .. الأيام الأولى التى كان الحديدى يتعرف فيها على مدخل العالم المقروء المكتوب ويحاول أن يحذق مبادىء أسراره ، وفهمى رفيق الأيام ومثلها الأعلى .. أيكون أهله هم من ينتظرونه بالخارج ؟

وأمر بدخولهم .

ومن باب الحجرة دخل ثلاثة أو أربعة أناس من حجم قصير تخين واحد ورابعهم مثنى على نفسه لسبب مجهول. أجال بصره فيهم .. إن ملامح فهمى محفورة فى ذاكرته لاتمحى أو تموت .. وأجال بصره محاولا أن يعثر على من يصلح ليكون أباً لفهمى أو عمه ولكن ملامحهم بدت غريبة حتى على أهل زينين بشكل عام .

- أمال فين فهمى ؟

وتسابقوا فى ارتباك عظيم يجيبون، وينتهون إلى الإجماع على الإشارة للشخص الرابع المثنى على نفسه.

- ده ؟

- أيوه يا بيه.

ـ انت؟

ـ أيوه يا بيه .. هو .

ـ أيوه .. يا ..

ورفع رأسه يواجهه رغم بقائه مثنيا، وحدق الحديدى طويلا فيه كمن يفتش فى كومة من قش قديم عن إبرة ملامح لطفل صديق كان أعز عليه من نفسه .

ـ انت فهمى؟

ـ أيوه .. يا .. فاندى

جاءه الجواب من وجه كالمومياء الخارجة لتوها من القبر أو المستعدة توا للدخول فيه، وجه منقبض بالألم وكأنما ثبتت ملامحه عنده وحنطت عليه.

ـ أنت فهمى أبو ..

ـ أيوه .. أبو عنترة يا بيه .. ده كان معاك فى المدرسة .. بس حضرتك مش فاكر.

أمعقول هذا؟ من الطفل المرتب النظيف الذى تحيط بوجهه مهابة النبوغ، ومن العينين اللتين يطل منها الذكاء النفاذ والقدرة المعجزة على الإدراك، أين هذا من ذلك الرجل الذى يبدو عجوزا محطما تجاوز الخمسين؟ المظلم القسمات كالأرض البور؟ المطفأ العينين لضيقهما كشريط اللمبة حين يحمر من تلقاء نفسه ويقصر ويحترق لدى فراغ الكيروسين؟

وأحس بفجيعة ذات طعم خاص . كان دائما متأكدا أنه سيلتى فهمى يوما ما، وكان يعد العدة لهذا اللقاء الحافل. إن قدرا كبيرا من الرهبة التى يحسها لفهمى مبعثه أنه كان يتخيل دائما أن فهمى سيظل متفوقا عليه وعلى الآخرين، وأن الذى باستطاعته أن يتفوق كطفل لا بد باستطاعته أن يتفوق كشاب ثم كرجل. ولم يكن أبدا يتصور أن اللقاء سيتم على هذه الصورة، وأن الطفل الذى فى ذاكرته سيتمخض عن هذا الرجل. كان يدخر للحظة التى يقابله فيها كلاما كثيرا يريد قوله، وكيف أنه إذا كان قد أصبح الأستاذ الدكتور الحديدى أكبر مرجع فى الكيمياء العضوية فى الشرق، وإذا كان قد أصبح رئيس مجلس إدارة مؤسسة كبرى ومرشحا أكثر من مرة للوزارة وعضوا فى عشرات اللجان والهيئات العلمية فى الشرق والغرب، فجزء كبير من هذا الفضل يرجع لفهمى، فقد كان الصوت الذى ظل لأكثر من ثلاثين عاما من الزمان يلهب طموحه ويدفعه للتفوق حتى ينتصر- ولو مرة واحدة- على الطفل العبقرى الذى ظل يحافظ عليه فى ذاكرته كصور القديسين التى لا تمس. وها هو اللقاء ! وها هو القديس!

- انت فهمى أبو عنزة ؟

- أيوه يا بيه.

- فاكر العنزة؟

- عنزة إيه يا بيه؟

العنزة التى سرقها ليشترى لحسين أبو محمود والد منصور الألدغ حقن الدواء ٦٠٦ التى قيل إنها بخمسين قرشا وإنها دواؤه الوحيد. فقد

كان فهمى شهما أيضا لا يتردد فى الذهاب سائرا على قدميه إلى البندر، أو بقاء الليل بطوله ساهرا، أو اليوم كله عاملا كادحا، إذا أحس أن غيره فى حاجة إلى هذا العمل أو الجهد، خصال جعلت الجميع يدهشون ويفجعون لإقدامه على سرقة العنزة وإن كان السبب قد عرف والعمل قد اغتفر إلا أنه خرج منها بالاسم لاصقا به ملغيا اسمه الحقيقى وحالا محله.

ـ أهلا وسهلا .. أية خدمة ؟

بالطبع فلا بد قد جاءوا مثلما كان يجيئه المئات فى انتظار أن يحقق لهم بنفوذه ومركزه المعجزة. كان سهلا تخمين المطلوب هذه المرة، فلابد أن فهمى مريض ولا بد أنهم يريدون إدخاله المستشفى.

وحاول أن يتحدث إليه ويسأله عن مرضه، ولكنه ظل مثنيا على نفسه فى جلسته لا يرفع رأسه ولا يبدو عليه أنه يسمع ما يقال.. وتهته أبوه وعمه وهم يعتذرون عن صمته وكيف أنه دائم الحدوث، بل أحيانا تمضى عليه أيام كثيرة دون أن ينطق فيها بحرف، ولم يكن المرض فى عقله أو نفسه وإنما كان فى مثانته..فهم منهم أنها لابد بلهارسيا أدت إلى سرطان فى المثانة ، وأنهم لفوا وتعبوا على جميع «حكماء» المركز ومستوصفاته ومستشفياته وحلاقى صحته والعرب الذين يكوون بالنار، «ويخرمون» بالمسلة، حتى قالوا لهم فى مستشفى المحافظة فى النهاية أن لا فائدة من العملية وأنه بحاجة إلى علاج بالأشعة فى مصر. وأدحنا جينالك يا بيه ربنا يخلى لك أولادك ويمتعك بالصحة.

ومن غير دعاء كان قد قرر أن يتكفل بالأمر. إن الدين الذى فى عنقه للكتلة البشرية المنكفئة على نفسها أمامه ملفوفة بالملابس المهرأة كبير، ولقد حان أوان رده وإيفائه .

كانت المشكلة أن يتخلص أولا من «الجماعة» التى ترافقه ويستصحبه إلى بيته ليقضى فيه الليلة، وفى الصباح واعتمادا على صديقه أستاذ الأشعة يدخله المستشفى. فقط كان عليه أن يدبر أمر ذهابه إلى البيت بطريقة لا تجرح ذكراه فى نفسه من ناحية، ولا يظن معها من ناحية أخرى بواب أو ساع إنه أخ له أو قريب. وكان عليه أن يتغلب علي معارضة «عفت» زوجته التى لابد سترفض إيواء شخص مثله ولو ليلة واحدة، ولو لكى ينام فى المطبخ أو فى فراش السفرجى.

ولقد تم كل شئ كما قدر له الحديدى، إلا معارضة الزوجة - التى بقيت حتى بعد رضائها بوجوده في البيت وأمرها للسفرجى أن يتكفل به وبحراسته وإطعامه. وهكذا لكى يقلل من وقت وجودها بالشقة اقترح أن يذهبا إلى المسرح، وحين عادا فى منتصف الليل كان الهدوء المعتاد يخيم على البيت وكل شئ فيه هادئ، ونور المطبخ مطفأ. وبعد نصف ساعة كانت عفت تستمتع بمراحل نومها الأولى، وكان الحديدى مغمض العينين لا تزال بينه وبين النوم مشكلة مجلس الإدارة الذى أجلت حكاية فهمى من إجتماعه، ومن المشهد العاصف الذى كان قد أعده لكى يسحب فيه البساط من تحت أقدام المدير العام ويجبره .. إما على الظهور بمظهر الغبى الأحمق الجاهل وإما - حفظا لماء الوجه - على الاستقالة.

حين جاءت الصرخة الأولى.

وأعقبتها الثانية والثالثة.

وتكهرب جو البيت تماما. أيكون قد تورط فى خطأ أكبر دون أن يدرى وظن أنه يأوى قطعة حديد خردة عزيزة لتأخذ طريقها فى الصباح إلى الورشة فإذا بها بدأت تنفجر وتوشك أن تهدم البيت!

وعلى عجل أسرع إلى المطبخ حافى القدمين. كان مظلما لا يزال ولكن رائحة خانقة حامضة قابضة نفاذة واجهته لدى فتح الباب. مده يده يضئ النور ولكل الشلل أصابها قبل أن تصل إلى المفتاح .. فقد انطلقت من المطبخ الضيق آهة صارخة ثاقبة، كعشرات من الإبر الحادة المسمومة انطلقت فى كل اتجاه. لا يمكن أن يكون هذا الصراخ ألما أو للتعبير عن ألم، ولا مجرد أصوات .. إنه شئ مادى فى الجسد ويصيب السامع بالحمى فوق احتمال البشر.

أضاء النور وهو فعلا خائف. ولم يلمح فهمى فى الحال فقد وجد الفراش الذى منحوه اياه ممزقا مكوما، والمطبخ بكل ما فيه مبعثرا ومدلوقا، والمقشات منتزعا قشها وريشها.. ومنثورا، وعددا لا يحصى من بقع الدماء الصفراء تصبغ الأرض وباب الثلاجة والمناضد البيضاء، والرائحة النتنة الخانقة لاتزال هناك .. لكأنه كان ميدانا لمعركة حامية الوطيس دارت بين إنسان أعزل وخصم جبار غير منظور! لكأن الصرخات كانت صرخات رعب الإنسان من عدو خفى يسحقه بالضربات وهو عاجز محاصر متألم مهزوم ولا حول له!

ونظرة ثانيـة ألقـاها على المطبخ بعينى الزوجـة هذه المرة، أدرك بعدها أن فاجعة لم يكن يتوقعها أبدا قد حلت. وبحث عن فهمى فوجده قد حشر نفسه بين منضدتين من مناضد المطبخ عاريا تماما ليس عليه إلا فانلة مهرأة. رأسه يتحرك فى كل اتجاه. عيونه الميتة المطفأة تقدح بشرر أبيض دائبة الحركـة فى محـجرها تبحث عن منقذ ومـخلص، وبكيانه كله كان يتجـه إلى أعلى فى يأس كامل كمن يدرك تماما أن لا نجاة. إنـه ألم سرطان المثـانة المروع حين يزحف مع الليل، حين تبدأ قطرات البـول تتجمع بحـمضها عبـر الورم الخبيث الذى نفذ إلى كل المسالك، ومرور القطرة على الورم المتهتك المجروح يسحق بالألم الذى يصدره كـائنا حيا فى ضخـامة الفيل وبلادة إحساسه، ويجعله يجثو ويحفـر الأرض بأظلافه ويملأ الدنيا بهتاف مـروع صارخ.. إنه الألم الذى يسمونه فوق احتمال البشر فهو لم يخلق لبشر، ولم يخلق البشر وتزود أعصابهم بتلك القدرة الهائلة الدقيقة على الإحساس كى يسحقها ويكويها ألم كهذا الألم.

أخـرج فهمى من مكانه ولا يزال رأسه وعيناه وكل كيـانه فى حالة تلفت مـسعور وبحث عن مـفـر .. مـشغول عنه وعن المكان والزمـان والدنيا كلها بما هو حادث فيه وداخله، فيقف ويجثو ويتمدد على بطنه، ويركع ويقوم هالعا واقفا ويفتح فمه استعدادا للصرخة، وحتى يكتمها ويحتملها يحشو فمـه بذراعه أو بالمخدة أو المقشة، ويغرز أسنانه فيها، ويسيل الدم من الذراع ومن الفم ومع نقاط البول الكاوى.

وشعر بضغط خـانق يكتم أنفاسه، وبرغبـة مجنونة أن ينطلق هادرا لاعنا نفسه وبلده وأناسها، واليوم الأسود الذى كتب عليه فيه أن يولد

منها ويصبح عليه أن يحيا عمره كله يحمل عن أناسهم همهم وفقرهم وعجزهم ومرضهم، وأخيرا آلامهم وبولهم. ولكن ما الفائدة ومن يتلقى لعناته واحتجاجاته؟ إنه لا يستطيع حتى أن يطلب من فهمى أن يكف عن الصراخ أو يرغمه على البقاء فى ركن بعينه من المطبخ، إلا إذا كان باستطاعته أن يأمر الألم الذى فى داخله أن يكف والشيطان الذى يمزق أحشاءه أن يهجع.

وسمع خطوات مترددة فى الصالة .. ومخافة أن ترى الفاجعة الحادثة أطفأ النور وأسرع عائدا إلى حجرة النوم ليجد عفت فى منتصف المسافة.

- هيه .. عملت إيه ؟

- قلت له يسكت .

- وإن ماسكتش؟

- حايسكت.

آى ياى ياى ياى، ياى ياى.

وأسرع خلفها إلى حجرة النوم التى فرت إليها مذعورة، وما كادت الصرخة تنتهى حتى وقفت تواجهه وتهيئ نفسها للعاصفة المقبلة الهوجاء. ولكنه أسرع واستطاع رغم دفعاتها وتملصها أن يحتويها بين ذراعيه ويقاوم إحساسه بالرغبة الملحة فى الإنهيار ، ويعترف لها بصدق واضح وملموس أنه أخطأ، وإنه ما كان يجب أن يرتكب هذا

الخطأ، وأنه يطلب الصفح وأن يكون صفحها على هيئة مساعدته فى تدبير الحل للموقف .. فهما فى قلب الأزمة معا ولا سبيل أمامها إلاّ الإحتمال.

- وماتنزلوش ينام تحت عند البواب ليه؟

- فضيحة والساعة اتنين.

- أروح أنا عند ماما.

- دلوقتى؟

- أنا ما اقدرش استحمل.

- عشان خاطرى.

- ما أقدرش.

- أرجوكى .. غلطة وباعتذر عنها، وبارجوكى إنك تساعدينى وتستحملى.

- أستحمل إزاى يارب ؟ أستحمل إزاى؟

* * *

آى آى آى يى يى يا يا ياى

- آه يا مامى ما اقدرش على كده ما أقدرش.

- ووووووو ه يييييه.

- إيه ده ؟ ده مش بنى آدم. دول عفاريت ، دول جن. الحقينى يا ماما أنا ح اجنن.

وشيئا فشيئا بدأ الحديدى يحس أن ارتباطه بحجرة النوم وبالزوجة التى يحتضنها ويسكنها بالبيت والحاضر كله تضعف، وبتوتراته تتراخى، وبوجدانه يستحيل إلى بحيرة هادئة ملساء على استعداد لاستقبال أدق الرذاذ الصادر عن فهمى.

فرتك مرتك شرتك دى دى دان.

الألم لابد قد ازداد بدرجة مخيفة .. خفف عنه يارب!

واج الواج الواج الواج الواج.

وإلى جوار هذه القادمة من المطبخ جاءت أخرى رفيعة طفلية من الحجرة المجاورة، ما كادت تسمعها عفت حتى خلصت نفسها بقوة عاتية خارقة من تكتيفه وجرت خارجة إلى الغرفة الأخرى. ولكن الطفل .. طفلها الوحيد قابلها قادما باكيا مناديا: ياماما! واحتضنته وحملته، وبتنمر وتوهج قالت للزوج:

- اسمع، انت لازم تطرده حالا دلوقتى يروح يشوف له مصيبة يبات فيها دا الولد قايم يرجف .. يا مصيبتى!

- يا عفت أرجوكى .. أنا شرحت لك الظروف - الراجل ده عندى مهم قوى وما اقدرش أطرده.

- مهم أكتر منى ومن فهمى ده ؟

ـ مش أكتر إنما مهم، كفاية تعرفي إني مسمي فهمي إبننا ده على اسمه .. ده الوحيد إللي خرجت به من طفولتي.

ـ ياح تطرده ياح اسيب لك البيت وانزل.

ـ إنتي عايزة مني إيه؟ أركع لك ؟ قلت لك أرجوكي .. أنا ح اجيب له دكتور يديله مخدر دلوقتي ويسكته.

وانشغل بكليته في عملية استدعاء طبيب الإسعاف وانتظاره ، ولم يدهش حين أخبره الطبيب أن المخدر في حالة كتلك ضعيف المفعول لا ينجح عادة في تسكين الألم، فآلام هذا النوع من السرطان أقوى من المخدرات وكل المسكنات التي اخترعها الإنسان.

وكانت الفائدة الأهم للطبيب أنه أعطى الزوجة حقنة من عقار منوم، وبعد مدة قليلة نام فهمي الطفل في حضن أمه.

وأخيرا أصبح وحده مع الصرخات القادمة من الأعماق، وكما قال الطبيب لم يكن المخدر قد أحدث تأثيرا يذكر. المشكلة الآن أن يعاد الإتصال.. أن يعود إلى نفس الحالة الوجدانية التي كان عليها قبل أن يصحو الولد وتثور الزوجة. إنه يعرفها ويذكرها وهي قريبة دانية ولكنها ترف وتذهب، يتذبذب بينها وبين حالته العادية، يه يه يه يه فمندا مندا هوندا بندا سارادات.

وأحس براحة باهتة، وبالأصوات تصل إلى مكان سحيق داخلي فيه وتنعشه في رقة وعذوبة، بالضبط هذا المكان. هنا يحس بها تتجمع .. آهاته التي لم يطلقها آي باي يانا يا بوي.

يا بوي موجوعة تأتي للحديدي بالضبط على الوجع. يا بوي ! إنها ليست من لغة الحياة ولكنها من لغة الأعماق والآي آي . إنه يحس بها

تعبر عن وجعه هو. منذ سنوات وسنوات وهو يريد أن يقف فى ميدان التحرير ويستجمع شجاعته، وبكل قوة وبآخر ما يستطيع يطلقها عالية موجوعة صادرة رأسا من الوجع مثلما يفعل فهمى الآن، ولكنه فى اللحظة الأخيرة يعدل ويضعف ويخاف أن يسخر منه الناس ويتهموه بالجنون، فيخمدها ويكبتها ويردها إلى حيث ترقد الكثيرات من زميلاتها المكبوتات المحبوسات.

آى آى آى فركش أى متكش أى بعقش أى ..

الآن فقط يحس بها كلها .. بآلامه، ويحس بها أبشع حتى من آلام فهمى وأوجاعه .. كل الفرق أنه ليس له الحق فى التوجع مثله ، لن يصدقه أحد إذا صرخ وترك أعماقه تعبر عن نفسها المكتومة الوارمة المضغوطة. ألم بلا آهات.. أضعاف أضعاف الألم.

الآن وهو وحيد مع نفسه وموجع مثله وأعماقه مفتحة الأبواب أمامه، يستطيع أن يسأل نفسه: ماذا يؤلمه؟ إنه فوق القمة، كل الخط العريض الذى رسمه لحياته تحقق، زوج ورب أسرة وسعيد محوط بالرعاية والحب والاحترام أنى يكون، فمن أين تجيئه الآلام التى لا تطاق حتى أنه ليحسد فهمى على حالته.

ترى ماذا يفعل ويشعر لو حدث له ما حدث لفهمى، وبدلا من التعليم المتواصل الذى هيأه له أبوه الصراف الذى كانوا يتندرون عليه، ويسألونك وأنت ذاهب لتدفع المال: مال الحكومة واللا مال الصراف. بدلا من هذا أخرجه أبوه من المدرسة واشتغل فلاحا وكان هذا مصيره ؟ أى إنسان فى مكانه لابد أن كان يقبل يده ظاهرا وباطنا. أين

هو وأين فهمى؟ هو الذى لابد تختاره إذا طلب إليك أن تختار مائة يمثلون الصفوة فى هذا البلد، المتمتع بكامل صحته وحياته لا حق من حقوقه مهضوم ولا شعرة ظلم تمسه أو تمس مركزه. أين هو من إنسان كفهمى تكفل الفقر بالقضاء على عقله وأحاله إلى واحد آخر من ملايين الفلاحين السذج، وتكفلت البلهارسيا بالقضاء على جسده .. فالمفروض أنه الآن ميت وعمره مسألة أيام، وحياته كانت أبأس حياة، وشقاؤه كان من نوع يضرب به المثل .. لو كان قد حدث له هذا .. تراه ماذا كان يقول «ألمه» المزعوم وأوجاعه؟

قال الحديدى لنفسه بلا تردد : كنت أكون أسعد.

كيف؟ المسألة ليست فقرا وغنى أو تعليما وجهلا، السؤال هو: هل أنت حى أم ميت؟ فهمى رغم كل شئ حى وعاش. أما أنا فلم أحى، والحياة أى حياة أروع ملايين المرات من الموت أى موت، حتى لو كان الميت مكفنا فى ملابس أنيقة محتلا أرقى المناصب سعيدا فى حياته الزوجية.

ولكنك حى . أنا ميت. إنه ليس تلاعبا بالألفاظ، إنها حقيقة المقياس الوحيد للحياة أن تشعر بها وأنا لم أشعر ولا أشعر بها .. إننى أقضى حياتى كعملية حسابية دقيقة هدفها الوصول .. وحين أصل لا أسعد لأن أمامى يكون ثمة وصول آخر.

إن فهمى قد عانى من الفقر والبؤس، ولكنه كان يعمل مع الرجال ويضحكون سويا ويتشاورون فى مشاكل العمل ويستمتعون بمشوارهم

إلى السوق. يفرحـون لعود الفجل إذا أضيف إلى الأكلة، ولا أحد منهم يأكل بمفرده إذ الطعـام ليس أن تجـوع وتملأ بطنك. الأكل عندهم أن يحل موعد الطعام ويلتفوا حوله فى ترحيب ويتعازموا ويهزروا ويحسوا أنهم يقومون باحتفال إنسانى صغير. إنهم يفعلون هذا دون إدراك لكنهه ولكنههم به. بهذه الأشياء الصغيرة الكثيرة المتناثرة فى طريق حياتهم يمتلئ كل منهم بإحساس يومى متـجـدد أنه حى، وأن الحـيـاة مـهـمـا صعبت حلوة.

أنا قضيت حياتى أجرى وألهث لكى أصل إلى القمة كما تسمى.. كان علىَّ أن أظل أصعد ولهذا كنت أصادق، أو تضمنى المجموعة، لا لكى أستمتع بصداقتى ورفاقتى لها، وإنما على أساس سرعتها وعلى اعتبار أنها أسرع من المجموعة التى هجرتها. وأظل سائرا معهم ماداموا يسيرون بنفس السرعة التى أريدها حتى إذا أحسست أننى بحاجة إلى سرعة أكبر هجرتهم إلى مجموعة أخرى، أوسرت بمفردى كى لا يعوقنى معوق. وما توقفت مرة كى أواسى متخلفا أو آخذ بيد أعرج معتبرا أن ليس الذنب ذنبى أنه تخلف، أو أنه خلق أعرج. ولقد ظللت أسرع وأسرع لكى أبدا الحياة حين أصل، ولكن لم يكن للوصول نهاية . بعد التخرج قلت العمل، بعد العمل الدكتوراه، بعدها الأستاذية. وحين أحسست أنها تستلزم الإنتظار هجرتها إلى الشركات، قلت .. بعد الزواج، وحين تزوجت قلت .: نبـدأ الحـيـاة مع الأولاد، وحين خلفت قلت الأوفق حين يكبرون، وهأنذا لا أزال أجرى مسرعا وقد أصبح هدفى ليس الوصول إلى أى شئ وإنما الإسراع فى حد ذاته، تماما مثل الذى يبدأ حياته بتوفير النقود كى يحسن مركزه المالى ويبدأ يحيا بعد

الألف الأولى، وحين يصل إلى الأولى يصبح هدفه الثانية والثالثة، إلى أن ينسى الهدف تماما ويتحول إلى بخيل مقتر هدفه جمع المال ليس إلا.

ياني ياني ياني يا بوى.

أحس بتوجع فهمى يريحه راحة بدأت تصبح عظمى وكأن فهمى يتوجع لكليهما، أو أكثر من هذاكأنه هو الذى أتيح له أخيرا أن يتوجع كما يريد وبكل قدرة استطاعته، إنه الألم المتراكم عبر السنين .. ألم الحزن الدفين والاكتئاب. إن الإسان جهز بتركيبه وأحاسيسه لحياة خاصة تسمى الحياة الجديرة بالإنسان، وهو لا يستطيع أن يخرج عليها ويحيا حياة من صنعه هو ومن ابتكاره إلا وهو يتألم وآلامه تتضاعف .. ولقد قسا العمر كله على طبيعته وكتم نداءات الأعماق المطالبة بمتع الحياة الصغيرة الكثيرة العادية التى تعطيها طعم الحياة .. قسا عليها ليجبرها أن تحيا بمفردها.

أبوا .. أموا .. أبو أموا .. أبو .. واه.

بالضبط يا فهمى .. الوحدة للوصول ، الوحدة للسرعة ، الألم البشع لفراق الناس والبعد عنهم .. الوحدة القاتلة التى تربى الخوف من الآخرين وتدمر الثقة بالنفس. الوحدة لكى تكون حرا أكثر وحيا أكثر، فإذا بها تؤدى إلى التقوقع والرعب من الآخرين وتحديد الحركة وإحاطتها بعشرات القيود. همه يحمله وحده، ومرضه ينفرد به، وضيقه هو المسئول الوحيد عنه. الألم.. أضعاف الألم الذى يسحق فهمى

ويدمره وهو مرغم على كتمانه يخاف خوف الموت أن يطلع عليه أحدا، فإن تألم الرجل أو حاجته للفضفضة إلى الآخرين ضعف وعورة.

دى دى دى دى دى دى..

يا للمضحك ! إنه يحس أنه ربما لأول مرة يذكرها فى حياته.. سعيد، سعيد إلى درجة لا يصدقها العقل ولا يصدقها هو نفسه .. إنه حقيقة متأثر لأوجاع فهمى ولكن فرحته هو لهذه اللحظة التى يحياها، أجل ربما أول لحظة يحياها، لا توصف . ومن الصعب أن يدرك الأسباب ولكن لابد أن أهمها أنه أخيرا استطاع بوسيلة معقدة مركبة تعتمد على أعماق تخاطب أعماقا خلال لغة غير مفهومة، أخيرا استطاع أن يتصل وأن يشارك وأن يزاول عملا من أعمال الأحياء، يزاوله بمتعة وسعادة .. سعادة تدخله فى حالة وجدانية لها صفاء لحظة الكشف لدى المتصوفين وعمق لحظة الخلق لدى العباقرة. لحظة ها هو يحس فيها أنه قادر على الإتصال بنفسه والتحديق مليا فى أعماقه دون أن يرده الرعب المقيم مما قد يراه.

وكلما اندمج فى حالته الوجدانية تلك أحس بنفسه تتفتح أكثر وتعمق وتتقوى صلته بفهمى حتى لكأنه يقرأ ما يجأر به فى كتاب مفتوح، وأحس أيضا أنه ينجذب إلى مكانه ليصبح أقرب .. انجذابا مريحا ممتعا إلى درجة لم يدرك معها أنه كان قد غادر الفراش ومضى يعبر الصالة فى عدد كبير من محطات الممشى الضيقة كل خطوة بمحطة، سمع كالصوت البعيد يأتى للنائم نافذة جار تفتح، ويعقبها صوت زعيق ومالا بد أنه كلمات سباب .. سمعها وكأنها لاتمت إليه ولا تهمه. إنه يرى

حياته الآن بكل كبيرة وصغيرة حدثت فيها ولها مجسدة مجموعة أمامه، بحيث بنظرة واحدة يستطيع أن يرى نفسه تقريبا من يوم ميلاده إلى يومه هذا.

الغريب أنه ينظر إليها وكأنها غريبة عنه لا تربطه بها أو بصاحبها أدنى علاقة، لا تربطه ذكرى بأى جزء فيها أو موقعة.. وأغلب الظن أنه لا يذكرها. إنه لا يكره شيئا فى الدنيا قدر كراهيته لحياته تلك، إنه يمقتها، ولولا النداء القوى الصادر له من فهمى لحملها فى التو وقضى عليها وعلى نفسه، ولكن النداء أقوى .. إنه يتسرب إلى كيانه كله ويهز هيكل الحياة فيه ليوقظ حبه الغريزى لها.

ومن الظلام الكثير الرابض يملأ الصورة فتبدأ تتسرب موجات كاشفة مضيئة يجسر معها على التحديق والرؤية ليتابع نفسه وهو يجرى ويجرى .. وحده. الناس تحيا وهو يجرى ! والشاشة مليئة بالصلات المقطوعة، بالصداقات المبتورة، بأجزاء العلاقات، بقيم على الطريق مهدرة، بإنسان لا يريد أن يرتبط بأحد حتى لا يعطله الإرتباط، ولا أن ينتمى لجماعة أو حتى لصديق لأن فى الانتماء فقدانا لذاته الحرة وكيانه. والنتيجة جرى سريع إلى قمة الوصول هو فى الحقيقة هرب سريع من الحياة، فالحياة هى الأحياء، ولا حياة لى أو لأحد إلا بالأحياء، وأن تنفصل عن الأحياء معناه انفصال عن منبع الحياة الأصيل وفقدان طعمها ونوعيتها والتحول إلى الموت.

الخطأ الفادح الذى يدركه الآن وعلى الضوء الباهر الصادر من أعماق فهمى إلى أعماقه يراه، ان الوصول لا قيمة له بالمرة إذا وصلت

وحدك. أية قيمة أن تصبح ملكا متوجا أو عالما حاصلا على جائزة نوبل وأنت محاط بصحراء جرداء ؟ أية قيمة لأى شئ فى الدنيا .. للمتعة نفسها أن تحس بها وحدك؟

وصحيح أنه ليس وحده، فهناك زوجته وابنه وأقرباؤه وإخوته وبعض الأصدقاء، ولكنها ديكورات علاقات ليس إلا .. إن حب الناس للناس وارتباط الناس لا ينشأ للزينة وإنما ينشأ لحاجة الناس للناس، الحاجة الماسة الملحة كحاجتك إلى الماء والهواء، والتى بدونها لا تستطيع أن تعيش. وهو له إخوة وزوجة وأناس ولكنهم لا يمثلون مطلبا حيويا بالنسبة إليه، إن فى استطاعته إذا أراد أن يحيا كما تعود بدونهم. قد يكونون فى حاجة إليه ولكنه هو ليس فى حاجة لأحد، أو بالأصح هو فى حاجة حيوية ماسة ولكنه يحس ويوهم نفسه مثلما أوهمها طول عمره أنه ليس بحاجة إليهم .. ومن هنا ينشأ ألمه البشع .. من هنا بدأ يستشرى السرطان الذى يقتل الضحكة على فمه لأنه يحس أنه ليس بحاجة إلى الضحك، ويجمد العواطف فى صدره لأنه يحس أنه ليس بحاجة إلى أن يعطى الحب أو يستقبله ، من هنا تبدأ المأساة التى أحالته إلى ميت حى.

* * *

وجاءته صرخات فهمى قريبة هذه المرة، إذ كان قد وصل إلى المطبخ وجلس بجواره. جاءته بعد سكون خيل إليه أنه طويل، وكأن مجرد إحساس فهمى بوجوده بجواره خفف عنه الألم .. جاءته الصرخات أقرب ما تكون إلى البكاء، وأحس بنفسه وكأن بركانا يوشك

أن ينفجر. إنه لم يبك في حياته منذ أن كان طفلا، وها هو يحس أنه يود لو ظل يبكي إلى أن توافيه المنية إشفاقا على نفسه، وهو أول من أدرك أنها أكثر أهل الأرض جميعا حاجة إلى الشفقة.

هات يدك يا فهمي، ضعها هنا على صدري فإنه خاو كما ترى. أنا أعرف أنك مريض وأحس بك وأريد أن أقاسمك الألم، ولكن لا أستطيع فقلبي من خشب. تركتكم جميعا. أنت في زينين وسعد في بنها وعبد المحسن في أسيوط، وشلة الجامعة وجمعية الكتاب وكل الناس، وظننت أنكم تسيرون في الطريق العادي طريق الندامة.. وأن الطريق الأسرع طريق السلامة هو الطريق .. والنتيجة أني مت من زمن وظللتم أنتم أحياء ، أنا جثة أقنع نفسي أنني أنا الذي أزور عن الناس في حين أنهم هم الذين يزورون على وما حاجتهم إلى جثة. حتى زوجتي وابني أحس أنهما لا يطيقان رائحتي.. أنا أريد البداية من جديد، أطلب فرصة أخرى، فمن يقبلني يافهمي؟ من يقبل جثة؟ من يرضى بي؟ إني لا أجد في هذه اللحظة سواك يا فهمي، هل تقبلني؟ هل تقبلني يا فهمي؟

- ماتعيطش يامحمود.

ولم يصبه الذهول مع أن القائل كان فهمي .. وكانت أول كلمات ينطقها ولم يعجب أيضا لأنه ناداه بمحمود وكأنما ذكره الإسم بالتختة المشتركة وبأيام زمان. كل ما أحس به أن رجاءه قد تحقق وأنه يقول:

- أشكرك يا فهمي .. أشكرك

وانبطح الحديدي ببجامته على بلاط المطبخ وتناول يد فهمي يقبلها ويمسح بها دموعه السائلة التي لا تتوقف وهو يردد: سامحني يا فهمي

.. سامحونى يا ناس .. أنا غلطت وتعبت والألم فاض بى .. سامحنى يا فهمى.

ولكن فهمى كان قد عاد بآخر وأقوى ما عنده يصرخ وآلامه قد اشتدت بغتة .. وكانت نوافذ البيت جميعها قد فتحت من زمن وسكانها يصيحون رغم أنوفهم للآهات المستغيثة .. ويستجيرون من الصوت الذى لا يرحم أبوابهم ونوافذهم مهما أغلقوها وأحكموا الإغلاق . الصوت الذى أيقظ العمارة ببوابيها وبهواتها وسادتها وداداتها وبدأ يصل إلى العمارات المجاورة ويوقظ سكانها، ولو استمرت الصرخات لربما كانت قد أيقظت الحى الراقى بأكمله ..

ومن يدرى ربما المدينة كلها كانت قد صحت .. ولكنهم كانوا قد طلبوا بوليس النجدة .. وحضر وفتحت له الزوجة نصف نائمة ، غير أنها استيقظت تماما حين قادتهم إلى المطبخ ووجدت الحديدى راكعا على الأرض يقبل يد فهمى ويستغفره ..

ورفعوا فهمى وألبسوه ، وحاول جنديان حمله فيما بينهما ولكن الحديدى نهرهما وتقدم هو من فهمى وحمله على كتفه .. والمرض قد التهم لحمه ولم تبق له سوى العظام. وتشبثت عفت بزوجها سائلة إياه عما يفعله بنفسه وإلى أين هو ذاهب؟ وابتسم لها وأضاء وجهه كما لم تتعود بالابتسامة وقال:

- رايح فى طريق تانى صعب شديد .. تيجى معايا ؟

- أنا مارحش وياك بالشكل ده .. أنت اجننت؟

وأحاطت فهمى الصغير بيديها بينما استدار الحديدى بحمله الصارخ المولول، ومضى يتقدم الموكب ونظرات السكان وأهل الحى تتبعه وتحيط به وتهمس وتسرى بينها الهمسات الضاحكة .. لقد عاش فى الحى سنتين مرعوبا أن يكشف أحد أصله وفصله، وتبدو للأعين النائمة شعرة واحدة تكشف عن الجذور والسيقان التى يمت إليها .. ولا ريب أن كثيرين من سكان الحى كانوا يفعلون مثله ، فها هو يرى النوافذ والمدخل حافلة بكثير من الجثث .. وهو الآن يستعجل اللحظات التى يغادر فيها الحى وقد أصبحت الرائحة لا تطاق ..

المرتبة المقعرة

فى ليلة «الدخلة» و«المرتبة» جديدة وعالية ومنفوشة، رقد فوقها بجسده الفارع الضخم، واستراح إلى نعومتها وفخامتها، وقال لزوجته التى كانت واقفة إذ ذاك بجوار النافذة:

- أنظرى.. هل تغيرت الدنيا؟

ونظرت الزوجة من النافذة ثم قالت:

- لا .. لم تتغير.

- فلأنم يوما إذن

ونام أسبوعا، وحين صحا كان جسده قد غور قليلا فى المرتبة.

فرمق زوجته وقال:

- انظرى.. هل تغيرت الدنيا؟

* من «الدداهة» ١٩٦٩

فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت:

- لا.. لم تتغير.

- فلأنم أسبوعا إذن.

ونام عاما، وحين صحا كانت الحفرة التى حفرها جسده فى المرتبة قد عمقت أكثر، فقال لزوجته:

- انظرى .. هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت:

- لا.. لم تتغير.

- فلأنم شهرا إذن.

ونام خمس سنوات، وحين صحا كان جسده قد غور فى المرتبة أكثر، وقال كالعادة لزوجته:

- انظرى.. هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت:

- لا.. لم تتغير.

- فلأنم عاما إذن.

ونام عشرة أعوام، كانت المرتبة قد صنعت لجسده أخدودا عميقا، وكان قد مات وسحبوا الملاءة فوقه فاستوى سطحها بلا أى انبعاج،

وحملوه بالمرتبة التى تحولت إلى لحد وألقوه من النافذة إلى أرض الشارع الصلبة.

حينذاك وبعد أن شاهدت سقوط المرتبة اللحد حتى مستقرها الأخير، نظرت الزوجة من النافذة وأدارت بصرها فى الفضاء وقالت:

- يا إلهى! لقد تغيرت الدنيا.

حلاوة الروح

فى لحظة واحدة كثر الماء، أصبح أكثر وأكثر. الشاطئ قريب.. أمتار. الشماسى ملونة مبعثرة، منارات مبعثرة تحتها الأجساد مرصوصة بلا نظام.

أنا فى طريقى إلى الشاطئ بعد حمام منعش.. الشاطئ والإسترخاء والأمان. السيجارة بعد الحمام.. الأحلام. الماء يكثر أكثر، فلآخذ إلى الشاطئ الطريق الأقصر، ولكن الماء يظل يكثر. صدرى يختفى رويدا رويدا ورئتاى بدأتا تحسان بضغط الماء. التيار السفلى أشعر به الآن أوضح.. الماء الجارى بخبث تحت الماء.. الماء برىء الهدوء من فوق والتيار يجذب من أسفل. اللعبة مسلية، أنا أجذب والتيار يجذب، وأنا مطمئن فأنا قاب قوسين من الشاطئ والمنطقة بالتأكيد ضحلة، يجذب وأجذب، يسحب فأشد، يشد فأسحب، أقدامى تتعثر، التيار يقاوم وإلى الخلف يجذب، أقاوم وأتقدم . كل شىء هادئ على سطح الماء، والجذب لايُرى فالمعركة اللعبة تدور من أسفل. قبلت اللعبة يا بحر. اجذب من

* الأهرام ١٩٧٠/١/٣٠ (من «بيت من لحم»)

أسفل وسأبقى صامدا من أعلى.. «شنكل» فأنت تعبث وسوف أرد عبثك بعبث.. عبثا بعبث يا بحر اعبث، ألعب! الدنيا أمان والشاطىء قريب، العب! أنت تغالى فى اللعبة يا بحر فماؤك يكثر ويضغط وصدرى رغم استماتتى يغوص أكثر وأكثر، والماء يقوى على الدوام أكثر. حذار أن تقلبها جدا فأنا أعبث، أو اقلبها إن كنت قادرا فأنا أقدر، وحتما سأقدر. لاتغرقنى يا بحر أرجوك فأنا الغريق وما عاد يخيفنى بللك.. الدنيا غريقة يا بحر فهل أنت أغرق؟ أنا لا أعرف، أنا الإنسان يا بحر، أنا البحر الأكبر، أنا بحرك.

التيار يجذب، الماء يكثر، اللعبة تسخن. الموج يقبل يهدر، يعلو، يكتسح، ثم برق ويتبدد. أنا أتأرجح، هات أمواجك نفسها يا بحر واجذب، وادفع، هاتها وادفع. فشاطىءها هنا قريب وأنا أشطر. ادو يا بحر وغن! ارغ وازبد! إلعب لعبتك العجوز اليتيمة وقلص مياهك وتمدد! انتشر وتجمع! ارض واغضب! تقدم حتى تتقهقر. والآن كفى! اتركنى فأنا أريد الشاطىء .. أريد أن أرجع.

ولكن الماء لايريد.. ضغطه يتزايد ويشتد، السحب من أسفل يتعاظم حتى يشل خطوى، الماء الشفاف الواهن المتناهى الضعف.. الماء الذى استأنسناه طويلا وغليناه وشربناه وبصقناه ومن فرط ألفتنا له نسيناه، الآن وهو ملايين من البصقات والقبصات والأكواب ها هو يحاول أن يرينا عينه الحمراء. على الصدر يضغط، بقوة يسحب. الماء وصل إلى رقبتى، لم أعد أتقدم تجاه الشاطئ خطوة، بل هو التراجع بدأ والجذب السفلى يشتد ويقوى. اللعبة سخفت قليلا.. العبث طال عليه صبرى. فلتتوقف اللعبة!

واستدعيت إلى الوجود قوتى الأقوى، بدأت تغوص رقبتى.

واستدعيت القوة الأكبر، الشماسى صغرت.

فلأستدع القوة الأعظم ، الشاطىء أصبح مجرد خط.

إنى أشم رائحة الغدر، أفينا الخيانة يا بحر؟ أتغدر؟

أرجوك ! ليس منك.. أنت يا بطلى العنيف العربيد الرقيق الشاعر الصاخب الأحمق الأهوج المغتر المقطر عذوبة الجالس على عرش الجلال.

وليس لى.. فليس فى نفسى موضع لغدر جديد. أنا معك ها هنا وحدى، نحن وحيدان معا، أنت بلا نهائيتك وأنا بمحدوديتى. لاتخن لاتغدر!

* * *

رفعت ذراعى.

الرابعة تماما.

تشاءمت.

من النادر أن ترى ساعتك فجأة فتجد أنها تماما، حتى لو كانت الرابعة.

وصل الماء إلى ذقنى.

أنا فى بئر مائى لاشك.

الشاطئ يبتعد أفقيا ورأسيا إلى أعلى وإلى أبعد ، لم يعد ثمة بحر.

ماء.. فقط ماء! كم هائل الحجم والضخامة من الماء الذى لاشاطىء له ولاحافة ولاحد. النمل حين يصنع بمجموعه جبالا هائلات من النمل.

الصرخة الواحدة حين ترددها مئات آلاف الملايين من الحناجر فيهتز الكون.

التيار السفلى نما حتى وصل إلى السطح ولم يعد الماء من فوق براءة. كشر عن أنيابه تماما.

الجذب. تاما وكاملا.

إذا قاومته غصت أكثر.

إذا سكت ابتلعنى أسرع.

الشاطئ أصبح أبعد من السماء.. مجرد سراب سماوى غير كائن.

ويكف فى حجم الصخرة لطمت رأسى موجة، رأسى البارز فى حجم عقلة إصبع، وعلى أثرها لطمة.

ثم دفعة.

ثم جذب لايقاوم.

وانسحقت.

الماء طغى وتجبر، الماء أصبح له صوت، الماء رعد، الرعد أصم، الرعد أخرس، أعمى.

هذا ماء غريب من كون آخر، بحر لا أعرفه أبدا..

هذا عدو.

دوامة العدو تبدأ.

الدوامة كفم حوت فاغر الفم، أنا فى قلبها حشرة.

الدوامة تدور.

كل الدوائر إلى أعلى، دائرتها إلى أسفل أعلاك يا بحر أسفل، قمتك قاعك.. أنا فى الطريق إذن لقاعك القمة.

- يا لئيم!

لقد غدرت وانتهى الأمر .

* * *

البرق يخيفنا وهو فى سماء بعيد وبيننا وبينه ما بين الأرض والسماء، القيامة تروعنا حتى فى الأساطير.

أنا فى قلب الظاهرة الكونية نفسها. البحر استحال إلى تمرد كونى، تمرد موجه لى وحدى، أنا وحدى أواجه يوم القيامة.

* * *

ولكنى لم أفقد الأمل بعد.

أنا وحيد ولكنى أقوى .. أعتى. أستطيع أنا الآخر أن أتجبر، جسدى هذا فيه ماردى أنا، فيه القوى الأقوى، فيه مدخر الحياة كلها من الطاقة.

والحياة أقوى.

إن الحياة لأقوى.

* * *

المستحمون حولى كثيرون، حتى وأنا مخضوض ألمحهم. أقربهم إلىّ سيدة، ترمق بإعجاب ما تخيلته من جرأتى على خوض المياه الأعمق.

* * *

صخرة مائية أخرى تنهار فوق رأسى.. أغوص أكثر، الماء فوق أنفى. صخرة أخرى تنهار، الجبل كله بدأ ينهار ، العالم المائى حولى كله ينهار ويتفجر. والمرعب فى براكينه رانفجاراته وجباله أنها مائية، مائية لكنها أعتى من الصخر.. الصخر أرحم.

إنى أغطس.

أغوص وأغطس.

رأسى أصبح تحت الماء.

بجنونى كله أقاوم لأعلو كى أتنفس.

يصعد رأسى ليواجه بجبل موجى قادم.

أريد أن أتنفس..

ماء.. ماء أتنفس. أحس بطعمه القابض يملأ جوفى وينفخ بطنى. الجذب يشتد إلى أعمق وأعمق، إلى أعمق وأعمق وأعمق.

ـ أنا حقيقة أغرق.

ضربت الماء بأقوى ذراعين كانتا لى. بأقوى ساقين وفخدين. حشدت القوة كلها.

طفوت.

السيدة القريبة ترمقنى بإعجاب، ابتسامتها بلهاء. يا سيدتى إنى أغرق، أنى أموت وأغرق، إن كل ما فىّ يستنجد بأى شئ فيك.

امددى يدك وسأمدد يدى وفى لقاء اليدين نجاتى. إنى أغرق، إنى فقط خجل أن أصرخ، سأموت شهيد خجلى يا سيدتى فامددى يدك لأنجو.

مستحيل! بإرادتى أنا لابد أن أنجو.

غصت.

حين حاولت أن أطفو وجدت الغابة.. غابة امتلأت بوحوش مائية مصنوعة من ماء، الرعب منها يجمد القلب. وحوش تزأر، وحوش تنهش، وحوش خرافية هائلة الضخامة بأقدامها الأسطورية تطأ وتضغط .. ضاق الخناق، جذبت نفسا عميقا لأتنفس.. حتى وأنا أعلم أنه ماء جذبت نفسا لأتنفس. امتلا رأسى بالهدير، اختفت الألوان والكتل والأحجام. صار كل شيء هلاما ضبابيا رماديا متغامقا مؤديا حتما إلى السواد الكامل. أنا مرعوب رعبا يحدث لى لأول مرة، رعب من نوع آخر، رعب لايحدث فى العمر إلا مرة، ولايحدث إلا وفى أعقابه موت.. عزرائيل هو ذلك الرعب.

طفوت.

من فرحتى لم أتنفس.

غصت.

من رعبى تنفست ماء.. ماء أكثر. الوحش البحرى يريد أن يحولنى ماء، يهضمنى، يتمثلنى، يقتلنى حيا، ويحيينى ماء . بلورة ذاتى المركزة تتخفف. أنا أذوب فى الماء، والماء يخترق مسامى ويذوب جسدى..بإجرام وإصرار سادر فى تذويبى. إرادتى تتميع، تتراخى، طعم الحياة يتغير، يمسخ. حماسى لها يفتر ويصبح ما له طعم ماء البحر المالح.

* * *

تخدر الزمن وتوقف. سألت نفسى: لماذا التحدى؟ لماذا لا أستسلم وأموت؟

أليس الموت هو التجربة التى ندخرها لتكون آخر تجاربنا. لماذا لاتكون الآن؟

لقد عشت كثيرا، ودهشت كثيرا، وأحببت كثيرا، وضحكت قليلا، وبكيت كثيرا وكثيرا، وما تبقى من حياتى لن يكون سوى تكرار ممل، وما لم أفعله قط أنى لم أمت، فلماذا لا أموت؟

انطلق من جوفى الرعب الأعظم.

العقل توقف، طار شعاعا.

الإرادة غير الواعية قفزت، تفجرت، تعاظمت، أصبحت وحشا. من داخلي غابة بدائية انطلقت، مليئة بوحوش شديدة الفتك.

العناد البدائي ألغاني تماما.

وحدى أنتصر، بقوتي أعيش.. سأعيش.

غصت..

معركة الوحوش مع الوحوش، الغابات مع الغابات، يوم قيامة البحر مع يوم قيامتي أنا، الإنسان مع القوة الغاشمة.

ورغم إرادتي طفوت لثاني مرة.

السيدة قريبة لاتزال ولكنى لن أستنجد. أبدا لن أصرخ، حتى ولو لم يبق على الموت إلا طفوة أخيرة واحدة.

غصت.

* * *

الماء الماء الماء يمور ويدور وأدور به وفيه.. لاشيء ثابت! القبضة تستميت على اللاشيء . الرمادى يزرق. والزرقة تغمق. ومن الأفق يطل الرهيب الأسود.

الفقاقيع حولى تتكاثر! غربان المأساة، ضياع الجثث الغرقى. جسدى تفتحت بواباته، الماء يدخل، الحياة تخرج، الطعم يتقارب، اللون يتماثل، المعالم أفقدها، أتكور، قطرة ماء، سمائى ماء، هوائى ماء. ماءً ألمس، ماءً أسمع، حواسى كلها ماء، عيونى بالذات ماء. لامستيقظ أنا ولا أنا نائم وأحلم، الزمن ماء كله أصبح.

ذبالة وعى أخير قبل الظلام التام.. هذه آخر مرة إذن أعى فيها بالموت القادم.

* * *

حين كنت أغادر المياه بأسرع ما أستطيعه، والبحر ينحسر تماما حتى يسلمنى إلى الرمال، لم أنتبه إلا وقدماى بعد أول خطوة تتوقفان أمام الإحساس المروع الجديد.. إنهما ثابتتان فوق أرض ثابتة. الإحساس الحبيب بالثبات ! إنها الأرض من جديد.. إنها الثبات الأم.

لا أذكر شيئا..

وكان أول ما فعله العقل حين عاد أن محا الحادث تماما من الذاكرة. ولكن رغم الضباب فهناك ثبات آخر أكاد أذكره.

إنه يبرق فى الذاكرة الواهنة الملغاة.

* * *

ثبات بالقطع أحسته الأصابع.. أصابعى، وهى تنقبض فى تشنج قاتل أخير حول إصبعين طريتين نحيلتين مترددتين.. إصبعى سيدة.

ثبات من نوع آخر.. قبله أو بعده أو على إثره أو لم تحدث إطلاقا أصداء صرخة.. صرخة أعرفها تماما.. صرختى أنا وإن لم تصدر عنى أبدا. بالتأكيد لم أصرخ، أم أكون رغم أعتى الإرادات صرخت؟

* * *

وقفت إلى أبعد بعيد داخل الرمل لا أجسر أن أرمق البحر.

أوليه ظهرى.

أبقايا رعب؟

أم هو الخجل؟

إنى هزمت وحدى.

وإن نصرى جاء باستماتة الأصابع على الأصابع.

* * *

نظرت فى الساعة.

كانت الرابعة ودقيقة.

أنا «سلطان» قـــانون الوجـــود

لا أعتقد أن أحدا - خارج أسرة مدرب الأسود محمد الحلو - قد حزن لمصرعه مثلما حزنت.

ذلك أن القدر ليلتها ساقنى لأدخل السيرك، وكانت ليلة الإفتتاح، ولا أعرف لماذا؟ ولكنى بعد رؤيتى لعبة الأسود تنبأت أن حادثا جللا لابد سيقع وأن قاهر الأسود محمد الحلو سيصرع على يد أو (ناب) أحد أسوده. بل بحت بالخاطر الحزين لمن كانوا معى، ووافقنى بعضهم، بينما لم يكترث الآخر وكأن الأمر لايعنيه.

وحين تنبأت بما تنبأت به لم أكن ساعتها أستعمل حاستى السادسة ولاكنت صوفيا قد أصيب فجأة بحالة وصل مع الذات العليا واتصال، ولا أعتقد كذلك أنى ولى من أولياء الله.

بل حتى لم أكن أعانى من نوبة غربة تدفعنا أحيانا لتجريد الأشياء من دفئها المكنون وإفراغها من التفاؤل.

* الأهرام ٢٤/١١/١٩٧٢ (من «أنا سلطان قانون الوجود»)

بصراحة، لم أكن ساعتها متأثرا بأى شىء خارج القمع الضوئى المتهرىء المكفى علينا، يقتطعنا من العالم، ويقطع العالم عنا.

وحينما لايحدث الشىء صدفة، بل تكون أنت - أنت الإنسان العادى مثلى - على يقين أنه سيحدث.

وحين لايحدث نتيجة خطأ أو إهمال.

حين يحدث وكأنه لابد أن يحدث.

حينذاك من الممكن أن نقف عنده، لأن الأمر لابد هام وخطير، ويصبح واجبا علينا أن نعود، كلنا هذه المرة، إلى ذلك القمع الضوئى المقلوب نعيش الظاهرة التى دارت أحداثها المروعة هناك، فمن يدرى، ربما بعد أن نحياها نجلس، لأول مرة منذ زمن طويل على ما أعتقد نفكر، ليس فى محمد الحلو وإنما فى أنفسنا، من يدرى، ربما تحدث المعجزة. وحسنا أنى كنت هناك، وأنى شاهد عيان.

* * *

نصف الألعاب مضت، كاللب، نقزقزه قطعا لليلة أولى من ليالى رمضان.

أثناء الاستراحة كان العمال قد أقاموا حلبه ترويض الأسود.

فى هالة من فرقعة الأسواط والجئير الذى تضخمه الميكروفونات (ليرعب أكثر!) والصراخ والهدير وأصوات الغابة، دخلت الأسود. عبرت ذلك النفق الحديدى القائم بين محبسها فى الكواليس وبين

الحلبة، ذلك القفص الحديدى صدىء وقديم. هذا صحيح، ولكنه حديد. أصلى وزيادة فى الاحتياط مربوط بحبل قديم إلى العامود الرئيسى لخيمة السيرك.

الأسود دخلت، أسود ستة، زيتية الصفار أو رمادية البنية أو بلا أى لون له اسم، متشابهة، كثرتها تمنع عنها جلال التفرد، وانكماشها يخلع عنها إحساس الملك أو حتى إحساس التوظف فى قطاع عام.

ما لبثت الأسود جميعا بعد دخولها أن أخذت أماكنها على شكل نصف دائرة مقعية كتماثيل أسود قصر النيل، مادة أقدامها الأمامية فوق الحامل الخشبى الموضوع أمام كل منها. كل الأسود فعلت ذلك ماعدا الأسد قبل الأخير، ذلك الذى عرفنا فيما بعد أن اسمه (جبار) فقد أقعى فوق منصته رافضا أن يمد أقدامه أمامه فوق الحامل.

وتولى مذيع أنيق، غريب الأناقة على المكان والناس والأجهزة وبائعى اللب والكازوزة، تقديم المدرب. وبصوت مؤدب، لامبالغة فى طبقاته (وهذا أيضا غريب) قال: الآن نقدم.. بطل الأسود.. وقاهر الملوك.. ملوك الغابة.. البطل محمد الحلو.

انصبت أضواء الكاشف الوحيد على الرجل الضخم الواقف بجوار القفص، والذى يلتحف بعباءة لامعة براقة، هذا صحيح، ولكن يبدو وكأنما استعيرت من متحف ملابس الممثلين بالمسرح القومى.

وكانت مفاجأة، فهذا الرجل قد رأيناه قبلا رئيسا لفريق (الجمباز) فى لعبة سابقة، يقود فريقا من أكثر من عشرة أشخاص يتولون، ويتولى

معهم القفز العالى والدحرجة والقيام بما يشبه المستحيلات، وهو عمل يكفي وحده لأن يقوم به إنسان واحد.

المهم، فتح الباب الوحيد فى القفص الحديدى الدائرى، ودخل الحلو، بعظمة ملك يلج قبوا للنبيذ، وتولى العامل إغلاق الباب وراءه بترباس متين.

لاحظ محمد الحلو على الفور أن (جبار) لايمد قدميه كما ينبغى، ومن فوره اتجه إليه وحاول أن يصحح الخطأ لتصبح نصف الدائرة كاملة، نصف دستة من ملوك الغابة الرابضة المقعية الخانعة، وهو بينها، ملك الحلبة، وملك الملوك، وملك السيرك وملك الليلة.

تناول الحلو سيخا حديدياً طويلا مدببا من طرفه، ولكن طرفه ذاك معلقة به قطعة لحم صغيرة جدا (عرفنا فيما بعد أنها ليست لحم عجول وإنما، لغلو الأسعار، فهى لحم حمير) . وانقض الحلو بالحرية الملغمة بقطعة اللحم (وكأنها سيف المعز وذهبه) تجاه الأسد آمرا إياه، أن يمد قدميه. ولم يحدث سوى أن الأسد نام بمنتهى الحزم ورفض أن يستجيب. حاول الحلو مرة أخرى، نفس النتيجة. الحلو، فوق بطولته، رجل استعراض مدرب. إن مسألة التمرد أو الطاعة أشياء لاتهمه بالمرة، المهم أن ينجح العرض، وألا يبدو هذا التمرد الواحد واضحا للعيان.

وهكذا نفض يدا من مسألة جبار بسرعة وبصرخة هائلة ركزت الأنظار عليه وعلى الأسود الخمسة دافعة أقدامها فوق الحامل الخشبى

وراكعة. وحينذاك فقط تولى محمد الحلو تقديمها. فكان أولها من ناحية اليمين (سلطان) الذى عرفنا الآن جميعا أنه هو المجرم الذى نهش جانب الحلو وأدى لمصرعه، وكان المتمرد اسمه جبار، والباقون أسماء من هذا الطراز الحائز على صيغ كثيرة للمبالغة.

كان على الحلو بعد هذا أن يرفع الحوامل الخشبية من أمام الأسود ليستعد لعرضها القادم.

وهنا فقط بدأت أنتبه.

كان يتقدم من الأسد، ناظرا فى عينيه، آمرا إياه بهما على ما يبدو أن يمتثل، ثم بيديه، ودون أن يغير من نظرته، يتولى قذف الحامل بعيدا عن منطقة الخطر، وهكذا..

وتمت المحاولات الأربع الأولى بنجاح. وعند جبار الذى كان حامله خاليا من أقدامه، ما كاد الحلو يقترب حتى زأر الأسد فجأة واقترب برأسه من المدرب هاما بالتقدم الأكثر.

وهنا لمحت ارتدادة خوف سريعة من المدرب.

وبدأت أنتبه أكثر.

ليس توقعا لما هو قادم من ألعاب.

وإنما لما هو أهم، لتلك النظرة الصادرة من عينى الأسد، والنظرة المنصبة تجاهها من عين الحلو. أحسست أن اللعبة الحقيقية الخطرة هنا. وأن فى الوضع ما يزعج، على الأقل يزعجنى أنا..

الليلة الافتتاح هذا صحيح. ومآزق الافتتاح معروفة، كم جربهاأولئك الذين قدر لهم أن يكون عملهم، مهما كان جهدهم أو ابتكارهم أو كدهم الخاص، مسألة تقديرها ليس فى يد رئيس أو مجلس: إنما فى يد جمهور، يقزقز اللب، ويجرع الكولا، وبمنتهى البساطة يصعد إلى السماء أو يخسف، أحيانا بأعظم الأعمال قيمة، إلى أسفل سافلين.

الليلة الافتتاح، والجمهور كثير، والأضواء هى الأضواء، والسيرك هو السيرك، ولكنه زمان، فى أول إنشائه كان سيركا متلألئا، صاخب الجمهور، غنى الأضواء. كان فعلا ذلك المكان الذى قصد بالسيرك أن يكونه. المكان الذى تدخله ليخلب لبك، لتعيشه تماما، تنسى نهائيا أن فى الخارج حياة وأحياء ومشاكل.

وأيضا كان السيرك للاعبين فى حلبة صراع. أمام جمهوره الحافل تتفجر بطولاتهم. يغامرون حتى بالحياة وهم يتأكدون أن الموت فى غمرة المجد والأضواء وإحساس النفس المصرية الممتد بالبقاء والخلد، شئ بالمرة، لايخيف.

ونحن الآن فى سيرك رمضان عام ٧٢.

أنا شخصيا لم أكن أريد الدخول، لكن لأنه على الأقل أمتع بكثير من مسرحيات الصيف التى تنفرد كل منها برائحة نتنة خاصة، فليكن السيرك.

ولكن أى سيرك..

إنك أحيانا لاتحس بالشيخوخة والكبر إلا حين تقابل زميل دراسة سابقا أو صديقا له نفس سنك، وحين دخلت الخيمة لم يكن فى كل ما

رأيته شيئا سخيفا أو عجوزا أو غير عادى. المشكلة أن كل شيء كان طبيعيا وعاديا وكأنك داخل إلى ديوان حكومة أوتعبر حديقة عامة..

لم يدهمنى ذلك الإحساس أنك انتقلت فجأة من عالم مطفى أو قليل البطولة والنور إلى عالم ملىء بالوهج، بالخوارق، بالمعجزات، عالم يبهرك ويحفزك إلى الخوارق والبطولات.

فكأنى فعلا انتقلت من شارع مزدحم إلى ميدان صغير مزدحم بالكراسى هذا صحيح، كثير الجمهور هذا صحيح، ولكن شيئا ما حدث للكشافات فجعلها مسلطة أساسا على الجمهور، تنير الحلبة، ولكنها بإضاءتها للمشاهدين تجعل من تلك الوجوه جزءا من العرض.

وأى وجوه..

نفس الوجوه..

المتزاحمون الغارقون فى العرق أمام الجمعيات الاستهلاكية، فى ممرات الأتوبيس وعلى سلالمه، المتوقفون فراغا لمشاهدة خناقة، الجاعلون من (السلطة) على مائدة الإفطار مسألة حياة أو موت، تفنننا فى صنعها، انتقاء لمكوناتها وبهاراتها ومخللاتها.

وجوه..

وجوه كثيرة تلمح بينها وجوه الأشقة العرب، وتستمتع بمرأى الكروش المصرية المتكومة باسم الله ما شاء الله تصنع لكل كرش رجلا ورأسا وملحقات. النساء وقد بدأت موضة الطويل تنتشر، أقصد الطويل التخين، فقد بدا واضحا جدا آثار مربة خرز البقر، وإلا فهى آثار (العلف) أو شيء لابد شبيه بالعلف.

وجوه، ظللت طويلا والكشافات تنصب على معظمها أتأملها، أتأمل ما يرتسم على ملامحها من تعابير، وعبثا ما كنت أحاول، فالأبخرة الدسمة المتصاعدة من معدات تجأر بمحتويات الإفطار، والعرق المتصبب من تلقاء نفسه من صدور وبطون بالكاد تلهث لتؤدى وظائفها، بالكاد إذا تجشأت تتجشأ.

أنوار كاشفة مكشوفة مسلطة على وجوه لاتعكس الضوء، بعضها بالدسم يمتصه، وبعضها لقلة التغذية يمتصه أيضا، وحلبة مترية، والحضور المسرحى لاوجود له، فلا جماعة، وإنما عائلات وأفراد لايجمعهم ذلك الرابط العام الذى يخلق جو العرض ويحيطه، حتى المهرج من فرط ما نحت دوره من خطوط تؤكد دوره كمهرج، لايهرج. العمال الذين يقومون بالإعداد للألعاب يرتدون (بدلا) لابد أن أصلها كان شيئا آخر، ربما لباس صعيدى، ربما قلع مركب، ربما ممسحة بلاط. زرقاء كل بدل العمال زرقاء. ولكن كل أزرق منها له لون، وفيها زرار، على الأقل لمحت زرارين، ومع هذا فجميع بنطلوناتها بلا زراير وبلا أحزمة أو بأحزمة تصلب الوسط فقط وتترك البنطلون يأخذ الوضع الذى يحلو له وينفتح من أمام بأى مطلق من الحرية يراه. المنضدة التى تقدم عليها لعبة الوقوف فوق الزجاجات والتى لو كان بها أى خلل ممكن أن تودى بحياة اللاعب، لاتصلح أصلا للارتكاز على أربع. وإنما لابد لها من سنادات، ولابد أن تتأمل حكمة الكون أو تفكر فى اعتزال الدنيا وأنت ترى منضدة المطبخ تلك، التى لم تطل من عشر سنوات، وأربعة عمال بأربعة أقراص مدورة بأربعة بنطلونات مفتوحة بأربع جاكتات (زعر)، يدخلون، ليزنوا الأرجل الأربعة. ما فائدة أن أتحدث عن اللعبة نفسها إذا كان هذا هو

حال المنضدة، وإذا كان حال اللاعبة التى تزامل اللاعب ومفروض أن تساعده أدهى، ذلك أنها سمينة إلى درجة مزعجة ترتدى جوربا من جوارب (الباليه)، جورب من سمك الجسد والأرجل والأرداف التى يحتويها ومن طول ما احتواها، تفتق فى أكثر من مكان (ربما لهذا سموها، أى ذلك الغذاء المسمن، المفتقة). فأنا لن أتحدث عن اللعبة حتى لو كان صاروخ قد أطلقته فتاة كتلك من فوق منضدة كهذه المنضدة ليصل إلى القمر، حتى لو تمت بهذه الأزياء والمناضد والجوارب جراحة تحيل الدودة إلى إنسان، فالمعجزة، أى معجزة، تكون قد انتهت من نفسك قبل أن تبدأ، انتهت، وانتهت معها ليلة من ليالى العمر. فالسيرك قام، ليخلب، اللب ، ليبهر، لينقلك إلى عالم غريب حافل بالألوان والبطولات والجمال والمعجزات.

ولكن اللعبة الخطرة كانت قد بدأت.

لعبة ترويض الأسود.

* * *

هى لحظة..

ولكن ليلة كهذه يكفيها لحظة تحس فيها أنك حقيقة تنفعل وأنك حقيقة فى سيرك.

ولكن، حتى هذه اللحظة أفسدها على ذلك السؤال الملح: من أين جاءنى ذلك الشعور أن شيئا ما سيحدث؟

ملت على جارتى أهمس بألفاظ، فإذا بها تنظر لى باستغراب حقيقى، فهى الأخرى كان لديها نفس الشعور.

المسألة إذن ليست وهما. هناك فى الجو شىء يخيم.

ليس وافدا من كون آخر.

ولا متسرب إلى القمع المقلوب من الخارج. شىء نابع من الحلبة ذاتها، وحتى ليس من شىء بعينه فى الحلبة، فى الحقيقة نابع من كل شىء تضمه الخيمة، من الحيوانات والكاشفات، والأشياء والبشر، من جارتى، ومنى، ومنك أنت لو كنت هناك..

مضى الحلو يتحرك، يحيى، ينقل الأشياء داخل القفص، نفس الحركات التى تعود أن يفعلها من زمن طويل. لا جديد فيما يفعل، لا جديد فى الليلة إلا عصبية ليلة الافتتاح المؤقتة المعهودة، حتى الوجوه، الوجوه كلها داخل القفص وخارجه ظل يراها حتى لم يعد يراها.

النظرة المتبادلة بينه وبين الأسد، سلطان كان أو جبار، فقط ذلك الشىء الجديد، فى الليلة وفى حياته.

الرجل محبوس مع ستة أسود فى قفص، وحياته كلها وهو مع الأسود فى قفص.

والأسد، بالتأكيد هو الأسد..

ولكن الرجل، هل الرجل هو الرجل؟

والرجل ليس الحلو وحده. الرجل هو كل من تضمه الخيمة لاعبا أو عاملا وعازفا ومتفرجا. هل الرجل نفس الرجل؟

بينه وبين نفسه. بينه وبين أهله وجيرانه وأصحابه، أبدا، لا تغيير، هنا فقط. هنا حيث يصبح وجها لوجه مع الخطر المروع الذى عمله أن

يروضه، هنا يحس الرجل أن شيئا ما حدث. كأنه دائما يقول أنا البطل، حتى من غير أن يقولها كان يقولها بنظراته، يقولها بمشيته، بقهقهاته، بالعاملين من حوله، حتى الأسود نفسها كانت تقولها. أنا البطل، القادر، الواثق المتأكد.

أيكون مــا ينتــابه هو لحظة شك. ولكن، من يكون إذن إذا لم يكن البطل.

من الآن.. أنا؟..

كنت أرى الناس أكيلة عيش، وأفندية، وبورمجية، وجدعان، ولكن من بينهم أنا البطل، هم أيضا يرون أنى البطل. يصفقون للبطولة حتى لو تجسدت فى غيرهم، فى شخصى أنا.

الآن حدث شيء. ألم يعودوا يروننى بطلا؟ أم هم لم يعودوا يريدون البطل، أى بطل. أيكون الأمر أنى أنا شخصيا لم أعد أحفل أن أكون عليهم البطل؟ أيكون الكفر المزدوج قد حدث. كفرت أنا بهم وكفروا هم بى وجميعا كفرنا بوجود بعضنا البعض. والبطل مثل اللابطل، والميت كالحى، والحى كالميت، والمومس كالفاضلة والحرامى كالشريف، الأمس كالغد، الأمل كاليأس.

إن البطل لايولد وحده.

البطل يخلق..

ولابد كى يوجد ويعيش أن يترعرع فى ظل إحساس عام بضرورة البطولة، بروعة البطولة، بتفرد البطل.

ولايمكن لفكرة البطولة أن تترعرع فى جو عام كهذا وحدها. البطولة قيمة، ولابد أن توجد وسط محصول وافر من القيم. لامجد للبطولة، بلا مجد للكرامة، بلا مجد للنبوغ، بلا مجد للشرف.. بلا مجد للعمل الصالح.

وأيضا لاتوجد البطولة، بلا جو عام تلعن فيه اللابطولة. تجتث كالحشائش الضارة منه، وتجتث معها حشائش سامة أخرى كالجبن كالتفاهة كالنفاق كالكذب.

أما حين (ينجح) الجميع، المجتهد والغشاش والمزور والأبله والنابغ. حين يصبح لافرق، لا أعلى ولا أسفل، لا أرفع ولا أحط.

حين تمضى الحياة بامتحان لايرسب فيه أحد، ولايتفوق أحد، ولايفصل أحد. حين يحدث هذا. ماذا يبقى من الإنسان؟

وإذا كان السؤال لم يعد يهتم أحد بأن يجيب عليه. بله، أن يطرحه، فإن هناك أناسا فى حياتنا لايستطيعون أبدا إهمال السؤال، فهو فارض نفسه عليهم فرضا ولا فكاك منه. هؤلاء هم تلك النسبة فينا التى تحيا وجها لوجه مع الخطر.

وبالذات، مع خطر من هذا النوع.

فمحمد الحلو يواجه هذه الوحوش الضارية ويمنع خطرها بما يملكه من إرادة البشر وقدرتهم وما فيهم من بطولة أو قدرة على البطولة.

أليس من المهم إذن لمحمد الحلو أن يعرف، فى تلك اللحظات التى ينغلق عليه فيها ويصبح وحده أمام الخطر ولامغيث، أن يعرف ماذا

بقى فيه أو له.

ماذا بقى من البطل؟

* * *

تصفيق الناس للألعاب فى السيرك، له معنى مختلف عن أى تصفيق آخر، يحمل معنى إنسانيا عميقا جدا. هناك أبدا أنت لا تصفق مجاملة أو مجاراة. بصدق تصفق. والعمل الذى ينتزع منك التصفيق ليس أى عمل. كلما اقترب من قدرتك على القيام به بهت وفقد أهميته. كلما استحال عليك القيام به بهرك وازدادت حدة تصفيقك.

ليلتها كان للتصفيق فى أذنى وقع غريب. فمهما بلغت اللعبة أمامنا من مهارة، ومهما احتوت من إعجاز وبطولة، فالتصفيق حتى فى أعتى موجاته كان دائما يبدو فاترا وكأنه صادر عن جمهور قد قرر بادئ ذى بدء.. أن لايقيس أى شىء بمقياس قدرته عليه أو استحالته، وكان أى شىء يبدو مستحيلا تماما أو حتى ممكنا تماما. لافرق.

كان فى الحقيقة نوعا من تصفيق الخجل إذا لم تصفق. تصفيق أداء الواجب تدفعه كثمن التذكرة، كالضريبة، وأمرك لله.

وكانت مضخات اللاعبين تجأر قواها فى محاولات مستميتة من أجل الوصول إلى مياه الجمهور العميقة وسحبها لتصعد إلى مستوى ما يقومون به من بطولات كى تنسكب بعد هذا شلالات حماس وإحساس وانبهار. ولكن المياه ظلت دائما أبعد من المضخات، وأبعد.

ماذا كان قد بقى من البطل محمد الحلو؟

* * *

ذلك الذى بدأ حياته فى ساحة السيرك، صبيا يلعب، ويفرح أنه يلعب، وفوق هذا يكسب، ثم حالما بالبطولات يحلم، ثم بطلا يحقق الأحلام وبالسعادة القصوى يتمتع. الجمهور يجأر ويزأر طربا، وهو يقتل نفسه كى يجعله يجأر أكثر وأكثر. الدفء حوله وفى داخله. الحياة حلوة. الأمل عريض. حتى النقود بجلالة قدرها، وفى لحظات كتلك، لاتهمه بالمرة.

حين تختار أن تكون مروض وحوش، أو لاعب ترابيز، أو طيار اختبار وتجارب فصحيح أنك تأكل عيشا بهذه الوسيلة، ولكن لو كان أكل العيش وحده هو الهدف لما اخترت أيا منها أصلا، ولجأت، مثلما يلجأ أكيلة العيش إلى أى عمل آخر خال من أية خطورة كما يفعل الملايين من الناس أكلة العيش والأرزقية.

ذلك أنك تختار هذا العمل لتسعد ذاتك أولا ولتثبت لنفسك وللناس قدراتك.

فإذا لم يعد مهما أبدا لدى الناس أن تثبت بطولتك، ولا حتى لديك أنت نفسك.

فماذا يبقى منك؟

أكل العيش؟

أجل أكل العيش كان هو الإنسان الذى يواجه الأسود وحده فى القفص المغلق.

الخيمة كلها أكلة عيش متفرجين وعمالا وبائعى كازوزة ولكن الذى وزع الأرزاق جعل الآخرين متفرجين.

كلهم يتفرجون.

ويصفقون..

ذلك التصفيق الفاتر..

الناجحون جميعا فى امتحان الحياة.

الناقضون يدهم من كل شيء، الضيقون بأى شيء، الراضون حتى عن السخط. والساخطون حتى على الرضاء، الذين انسحبت منهم مياه الاندماج الحى العميق حتى أصبح مستحيلا أن يصلها خلجة انفعال أو نبضة حماس أو لحظة غضب.

أكل العيش وحده مع أكلة لحوم البشر.

والقفص الحديدى مغلق.

ومن بين أنيابهم عليه أن ينتزع لقمة عيشه.

* * *

تلفت حولى.

لا تغير يذكر فى انفعالات الوجوه.

لا أحد يعرف.

حتى هو نفسه، محمد الحلو، لا يعرف.

الوحيد، فى الخيمة كلها الذى كان يعرف، هو الأسد نفسه.

الأسد ملك الغابة لأنه ملك الإحساس.

خطره الأعظم أن لديه القدرة دائما أن يعرف، وعلى وجه اليقين، إحساس من أمامه.

وإذا اشتم أنه خائف منه انقض عليه.

فالغابة ليس فيها إلا المخوف والخائف، تلك هى العلاقة الوحيدة، ذلك هو القانون الأعظم.

كل خائف من حيوان يخيف بدوره حيوانا آخر.

إلا الأسد ..

الجميع يخافونه وهو لا يخاف، أحدا.

الحيوان الوحيد الذى يخاف منه الأسد

هو الإنسان.

أو بالضبط هو ذلك الإنسان الذى بما منح من ذكاء وإرادة وسلاح يستطيع أن يواجه الأسد وهو لا يمثل أنه غير خائف منه ولكن حقيقة وصدقا غير خائف، بل ربما شاعر أنه الأقوى.

ولابد لكى تروض الأسد أن تروض نفسك أولا بحيث تصل إلى الدرجة التى تواجه فيها أسدا أو عدة أسود وأنت غير خائف منها.

الأسد وحده أدرك أن ذلك الرجل، الرجل الذى يعرفه جيدا وتعود منه دائما أن يمد أصابع نظراته الغريزية إلى أعمق أعماقه فلا تنبئه الغرائز إلا بأن الرجل ليس فقط غير خائف منه ولكن يأمره وينهره

ويملك إرادة وثقة بنفسه أقوى بكثير مما لديه هو الملك وأن عليه إن أراد البقاء أن يخاف ويطيع.

ولابد للإنصاف هنا أن أذكر أن إنسانا آخر فى الخيمة كان يعرف. ذلك الشاب الذى ما توقف لحظة واحدة عن الطواف حول القفص وملاحقة نظرات الأسود التى تلاحق الحلو.. ذلك الشاب الذى عرفت فيما بعد أنه ابنه والذى خلفه. كان هو الآخر بغريزته العظمى يعرف ويدرك، فهو يعرف الأسود جيدا، رباها مع أبيه وصاحبها، ويعرف أباه جيدا، ويعرف لابد كنه هذه النظرات الخارجة من عيون الأسود ومعنى تلك النظرة التى تواجهها والخارجة من عيون أبيه.

وحتى ما تلا هذا من حركات لم يغير الموقف.

إن محمد الحلو مدرب قديم، باعه طويل، وجراب خبرته ملىء، إن المسألة ليست شجاعة وبطولة فقط. إنها أيضا مليئة بالصنعة والحنكة والدهاء.

ها هو يخرج من الجراب كل ما تملك أصابعه التى لابد أصابتها رعشة خفيفة لا تلحظ، كل ما تملك أصابعه إخراجه. بقية الأسود تلعب، والجمهور يصفق، وكل شىء يمضى وكأن لا خطر ألبتة هناك. ولكن الرجل ليس نفس الرجل. إنه هذه المرة خائف. هكذا راحت تدق أحاسيس الأسد الغريزية وتؤكد. فى يده الرمح المدبب المرعب ولكنه يرتعش. النظرة خارجة من عينيه ليست واضحة وقاطعة وحاسمة، إنها تتردد، إنها تحسب، إنها تراجع، إنها تحوم، أبدا ليست نفس النظرة.

تلك كانت الليلة الأولى.

الليلة التى أدرك فيها (جبار) هذا الإدراك.

ولكن الذى قتل محمد الحلو هو (سلطان).

وعضه فى الليلة التالية.

فجبار حديث المعرفة بمحمد الحلو.

لا تزال العلاقة بينهما علاقة من يخاف من من.

ولهذا كان هو أول من أدرك أن الآخر خائف.

أما (السلطان) فأمره مختلف. سلطان قضى عمره كله يعرف الحلو ويخاف منه، ويطيعه، والليلة الأولى، مثلها مثل كل الليالى الأخريات، مرت، وسلطان يقوم بما تعود القيام به من ألعاب، يأمره الحلو، فيطيع، يكافئه، بلحم الحمير، فيسعد. الحيوان الذى فيه كان غافلا مستسلما كالعادة للطبيعة الجديدة المتمدينة المروضة التى تكونت له. فى الليلة التالية فقط، عرف سلطان.

فجأة وللمرة الأولى، يدب فى غرائزه العميقة ذلك الشعور الذى لم يخالجه أبدا. الرجل. ذلك الرجل الذى يخاف منه، الليلة خائف.

يقترب منه الحلو لأداء اللعبة.

يزأر..

يصبح لنظرة الرجل تشتت غريب لم يعهده.

ولو كان الأسد يعرف الاستنكار لاستنكر أن يحدث هذا.

فما حدث بالنسبة إليه شىء لا يصدق، إذا كان الأسد يعرف ما يصدق وما لا يصدق.

للأسف هو لايعرف إلا لغة واحدة يتفاهم بها مع الكون والأشياء والحيوانات والناس من حوله، ومع الرجل حتى ذلك الرجل. لغة لا تحوى إلا كلمة واحدة. كلمة لا وجود لها إلا فى لغتنا نحن. ولكن الكلمة التى إذا جاءته من الرجل، أحس أنه أصغر وأضأل وأضعف وأجبن وأن عليه أن يرضخ. نفس الكلمة التى إذا رآها فى عين الرجل أحس أنه هو الأقوى والأعظم والملك وأن عليه أن يفتك.

لا. لم يكن يريد عض الحلو أو قتله.

ربما أراد أن يتأكد..

ربما أراد أن يستفز الرجل ليقرأ فى عينيه نفس النظرة.. الكلمة التى تعود إذا رآها أن يركع ويخضع.

أراد تماما كما يفعل المدرب حين يستفز الأسد برمحه ليزأر ليخيف المتفرجين كى يزدادوا تقديرا لبطولته. أراد أن يستفز محمد الحلو بانقضاضه بمخالبه أو بأنيابه، لينتفض له، مرة أخرى، ذلك الرجل الذى تعود أن يجبن أمامه.

ولكنه ما كاد يستثير وينقض حتى سقط. حتى انهار تماما وهو فى أقصى درجات الرعب، حتى أطبق على الخيمة كلها رعب أكثر من رعب الحلو نفسه.

وهكذا فجأة أدرك الحيوان العميق المستسلم لقيوده ومصيره وخوفه أنه كان مخدوعا، وأنه الأقوى والأعظم والمسيطر والملك.

واندفع ينهش لحم صاحبه المدرب، ويعضه، ويكسر قيوده ويستعيد نفسه.

ونستغرب بعد هذا لماذا صام (سلطان) عن الطعام وقضى الأيام التالية حزينا.

الحزن في رأيي كان سببه أنه أبدا لم يرد أن يحدث ما حدث.

إن الأسد حيوان ليس الغدر في طبعه.

وكالكلب، الوفاء عنده، غريزة.

وهو لم يقصد أن يغدر أو يفترس أبدا صاحبه.

أراد فقط، كل ما أراد، أن يستمر على وضعه خائفا من ملكه وصاحبه ومدربه وسيده. أراد، كل ما أراد، أن يجعله يشعره مرة أخرى أنه الأقوى والأقدر.

كان متأكدا أنه سيقابل هجمته بهجمة أشد منها.

كان يعبث، كما تعود أن يعبث، حتى يناله العقاب، كما تعود أن يناله، ويسعد بعودته للخضوع والطاعة والذلة.

وحين سقط الرجل، حين سقطت الهيبة الضخمة وضاع الصولجان. حين لم يعد باقيا أمام سلطان إلا أن يحس بالشفقة على صاحبه فيطبطب عليه ويأخذ بيده وخاطره، لم يستطع للأسف أن يفعل. فالأسد، كالحيوانات، وكالغابة في أساسها، لا يحس بالشفقة على أحد. ولو كانت الشفقة قانونا من قوانين الوجود لما جت الحياة وازدحمت بأشكال وأنماط ركيكة عاجزة لا تصلح للحياة وإن كانت تصلح للشفقة. الأسد إذا لم يخف، خوّف. إذا لم يخف أن يؤكل خوّف بأن يأكل. وإذا لم يجْد التخويف، أكل فعلا، وربما هذه هي طريقته في إظهار الشفقة.

أن يأكل من لا يعتمد فى بقائه حيا إلا على إحساس الآخرين بالرثاء والشفقة..

* * *

إلى المستشفى حملوا محمد الحلو .. ليموت طبا وعلاجا.

وإلى حديقة الحيوان أخذوا (سلطان) ليموت كمدا واكتئابا.

وكم آلمنى ما حدث للحلو.

وكم آلم الناس الطيبين، من رأوا الفاجعة ومن لم يروها..

ولكن لأننا جميعا مسئولون بالإجابة على السؤال: لماذا يحدث للحلو ما حدث للحلو؟

ولماذا ينهش الحيوان المتوحش صاحبه الذى دربه وأطعمه ورباه؟

ولأننا جميعا لو استحلنا إلى أكلة عيش فسيكون مصيرنا أن تنهشنا أكلة اللحوم. والإنسان أثبت أنه على رأس أكلة لحوم البشر.

لأن الأمر كذلك.

فإنى أترك المشكلة لكم لتفكروا فيها.

ففى هذه اللحظة أنا قابع مع سلطان فى حبسه الانفرادى، قاتلا، ومجرما، ومنبوذا، ومحل سخط الجميع وازدرائهم، قابع معه أتساءل، كما لابد لذى العقل منا لو كان حيوانا، أو للحيوان منا لو كان ذا عقل أن يتساءل: ما هى جريمتى أيها السادة؟

إنى عقرت الرجل وأرديته..

ما ذنبى وأنا لم أفعل إلا أنى قمت بدورى كوحش عليه أن ينهش إذا خاف مدربه، وأن يلعب إذا أخافه المدرب.

أم كنتم تريدوننى أن آخذها أنا الآخر هزلا، ويصبح الوحش الذى فى نكتة، كما أصبح أى شىء نكتة.

إنى آسف أيها السادة، الأسف لما حدث لسيدى السابق، شديدالإعجاب بابنه الذى يعتلى الآن ظهور الأسود ويخيفها، آسف أيها السادة فقانون الغابة ليس قانونها فقط، إنه قانون الحياة والأحياء، ذلك الذى لم تستطع حتى أديان السماء كلها أن تلغيه.

إما أن تخاف وتركع أو تخيف وتقتل. فى القفص وخارج القفص، فأنت مقتول إن ضعفت أو خفت، أو قاتل، وأنت المسئول عما تختار.

آسف أيها السادة فأنتم وحدكم الذين تسخرون من هذا القانون وتضحكون. فإذا كان العالم يحياه حقيقة وقانونا وتحيونه أنتم سخرية ونكتا فالذنب ليس ذنب (سلطان).

ليس ذنبى.

وليس ذنب صاحبى محمد الحلو.

صاحبى الذى خضعت له بطلا.

وحين أصبح آكل عيش مثلكم أرديته.

فأنا لست سلطان الأسد.

أنا سلطان قانون الغابة. وقانون الحضارة وقانون الإنسان وقانون كل الوجود.

يمــوت الزمــــار

تقريبا كل ماكتبته من قصص ونسبته إلى نفسى أو قمت فيه بدور الراوى، كانت كلها أبدا لم تقع لى، إلا هذه القصة فأنا فعلا فيها الراوى وما حدث فيها حدث لى. ولقد حاولت المستحيل لكى لاأكون أنا أنا أو لكى يكون الحادث وقع لغيرى، وكان ممكنا أن تكون أروع وأكثر إمتاعا، ولكنى بينى وبين نفسى كنت أحس أنى سأكذب بالضبط مثلما كنت حين أتقمص أنا شخص الراوى فى قصص أخرى. معظمها أبدا لم يحدث لى، كنت أحس أنى أكثر صدقا مع الآخرين ومع ذاتى.

إنها إذن قصة خاصة جدا، أعرف أن كثيرين سيهزون أكتافهم حيالها ويقولون: ومالنا ولهذا القول الذاتى الخاص، ولكن، من يدرى؟ ربما لن أعدم واحدا يحس ذاته تماما وهو يرانى أتحدث عن ذاتى، فنحن فى النهاية أبناء ذات واحدة عليا عميقة أوسفلى، إنما الاتصال قائم وموجود والمهم هو الوصول إليه، وقد يضطر الكاتب فى أحيان أن يستعمل دلوه الداخلى الخاص للوصول إلى مياه الآخرين العميقة.

* الأهرام ١٧، ١٨/ ٤/ ١٩٨١ (من «اقتلها»)

وكنت حين أقرأ أن فلانا الممثل أو أن جريتا جاربو الممثلة تتبع طرقا بوليسية منذ أكثر من أربعين عاما لتختفى عن الأنظار العامة، وتعتزل الفن أو تقاطع هى دائرة الضوء لأنها تستمتع كثيراً بأى كوخ ظل تأوى إليه. كنت حين أقرأ هذا كله أحس أنه نوع من الإبهار الصحفى يلجأ إليه النجوم زيادة فى اجتذاب البريق.

وهذه المرة، ولاشئ من «هيافة» بعض النجوم فى ذهنى، وبعد طول تدبر وتفكير، وبعد انفراد بالنفس ذلك الانفراد الخاص التام الذى تحس أن همسة الخاطر حتى لاتشاركك إياه، قررت فى لحظة حسم باردة كالثلج، لاانفعال فيها ولاتراجع أو ندم أن أكف تماما عن الكتابة، أى كتابة، ليس يأسا أو تدللا أو نوعا من استدرار الإشفاق على النفس، تجاه النفس، ولو من ذات النفس، ولكنه إدراك عميق كامل بعدم جدوى الكتابة أصلا، ليست كتابتى فقط ولكن كل الكتابة منذ عرف الإنسان الكتابة، أو- فى رأى- ماذا فعل الإنسان بالكتابة؟ أو بمعنى أصح، ماذا فعلت بالإنسان الكتابة؟ أصلحت أخلاقه؟ كذب فى كذب فالإنسان أيام الحضارة المصرية القديمة، وأيام أثينا وطيبة وبابل، وأيام أفلاطون وأرسطو والفلاح الفصيح ربما كان أكثر تسامحا وهدوءا مع نفسه ومع الآخرين، وربما لم تفعل نصائح كتابه بتحريضه على الصدق وعلى الشرف وعلى النبل إلا العكس تماما، فلا أعتقد أن وحشية المحاربين أيام أول حروب عالمية عرفها التاريخ بين المصريين والحيثيين أو بين الفرس والإغريق كانت تصل إلى معشار ماوصلت إليه وحشية المتحاربين فى آخر حرب عالمية خاضها الإنسان، ولاوحشية ماحدث ويحدث للبشر فى فيتنام أو أفغانستان أو لبنان. فصحيح أن بالكتابة تعلم

الإنسان.. ولكنه بالتطور العقلى الذى أحدثته الكتابة والكتاب فيه تعلم أيضا أن يصبح شريرا أكثر علما وبشاعة علم، كالحية الرقطاء التى فوق الناب الطبيعية التى زودتها بها الطبيعة لتلدغ بها عدوها مرة، تعلمت وتعلم كيف يزود نفسه بأنياب أكثر وخزانات سم أكثر. أنياب لاتكتفى بنفث السم ولكنها ترسله ميراج وميج وفانتوم ونابالم ونيوترون وكوبالت، وبدلا من ترس التعذيب الذى كان يشد إليه جسده أصبحت وسائل العذاب تصل إلى نخاع النخاع من أدق أعصابه حسا، ولم يعد فى الحرب فروسية أو علم أبيض أو قوانين أسرى وإنما هو الشر يندفع من عقول قد زودتها المعرفة بالتصميم القاتل على الإبادة، باختصار، مذ عرف الإنسان الكتابة.. عرف أيضا كيف يصبح الشرير فى أعنف وأبشع صوره.

قد يقول القائل ولكنه التطور وليس الكاتب أو الكتابة.. والرد جاهز، فالتطور ناتج العقل، والعقل ناتج الكتابة، ودعونا لانتفلسف أكثر، فلقد كان حلمى بالكتابة كحلمى بالثورة كحلمى بالمعجزة القادرة على شفاء كل وأى داء... وفى عمرى أنا سأرى اختفاء الحفاء، وعمومية الكساء وزوال الحاجة، واكتفاء كل محتاج. كانت واحة العمر ألجأ إليها كلما نضب معين الخيال، وأتزود منها وبها بالقدرة على مواصلة اللهاث. وكان الوصول على مرمى حجر، وكأننى سأصحو فى الغد لأجد الصباح فجرا ليس فجر يوم ولكن فجر عصر. عصر كامل تام يعود فيه الإنسان يحب بكل نهم وعمق وظمأ الحب، ويعيش وروعة الحياة يشربها مترعة قطرة وراءها قطرة، ولكل قطرة طعم، ولكل لحظة زمن تمر أشواق وصهللة ومعان..

حياة أستمتع فيها إلى التعالى أنى ابن.. مثلما أستمتع إلى مهجة كبدى أنى أب، تأخذنى الأم إلى أعمق أحضانها ترضعنى خلاصة الأنوثة وأرتشف وأنا أضمها نعناع أنى ولد وخمرة أنى رجل. حياة أنا فيها محب محبوب، عاشق معشوق، مؤثر ومغير، ومتأثر ومتغير، ودائما إلى الأعلى والأروع. حياة. حياة، أتعرفون ماهى الحياة؟!

في الواقع وأنا أتأمل القرار من نواحيه أدركت جانبا من عظمة وعبقرية شكسبير الشاعر الكاتب. فليست روعته أنه فقط كتب، ولكن الأروع من كتابته أنه عرف متى وكيف يتوقف ويقف. في الواحدة والخمسين كان قد انتهى من كتابة آخر أربع وأعظم مسرحياته على الإطلاق: الملك لير وعطيل وماكبث وهاملت.. وبانتهاء عوض آخر واحدة منها، لست أعرف ماهى على وجه الدقة، اتخذ القرار وصفى نصيبه فى مسرح الجلوب وسوى أموره ورحل إلى بلدته وهناك اشترى منزلا (أصبح الآن كعبة الرواد) ومكث عامين بعيدا تماما عن الكتابة والمسرح وكل مايتصل بهما ثم مات فى الثالثة والخمسين.

هذا هو الرجل. عاش وقال وصمت ومات، وهكذا وهكذا لم يمت ولازال يعيش ولاينتهى أبدا.

وليس مطلقا تقليدا لشكسبير ولا لأى أحد ـ فالموضة عندنا أننا لانكتب إلا تقليدا ولانحيا إلا تقليدا، ربما لأن معظم من يقيمون إنتاجنا وحياتنا هم دائما وأبدا مقلدون، ومقلدون أيضا غير متقنين، فأنا لم أعرف هذا إلا فى قراءة عابرة لمجلة قديمة كان فيها مقال عن شكسبير قرأته بعد القرار (واسمحوا لى باستعمال الكلمة) فأكد لى حتمية ماانتهيت إليه.

وحين راحت السكرة وجاءت الفكرة وجدت أنى لست فقط مختلفا تماما كما ونوعا وحياة عن شكسبير وغيره، ولكن مختلف أيضا أنى موظف كتابة عام بينما كان هو صاحب قطاع خاص فى استطاعته تصفية كتابته والعيش بما يتبقى لديه من رأسمال. أنا موظف فى جريدة كبرى تدفع لى راتبا شهريا من أجل أن أكتب، وعلىّ شئت أم أبيت ومن أجل أن أعيش أن أظل أكتب، فإذا قررت أن أكف تماما عن الكتابة فأبسط المواقف الشريفة أن أبحث لى عن عمل آخر أو وسيلة حياة ثانية، وهكذا مثلما يفعلون قبل المعاش حيث من حقهم أخذ إجازة ثلاثة أو أربعة أشهر، أعطيت لنفسى الحق فى إجازة أبحث فيها عن مصدر رزق- أزرع قطعة الأرض التى تخصنى فى قريتنا.. أفتتح مستوصفا للعلاج الرخيص.. أتقن حرفة النجارة التى أهواها والتى أصبحت ماهية الأسطى فيها لاتقل عن عشرة جنيهات فى اليوم.. أحيل عربتى إلى تاكسى أعمل عليه.. أى شئ.. إلا أن أمسك القلم مرة أخرى وأتحمل مسئولية تغيير عالم لايتغير، وإنسان يزداد بالتغيير سوءا، وثورات ليت بعضها ماقام فما حدث بعد بعضها أبشع مما كان عليه الحال قبلها.

يأس؟!

ولماذا نسمى النظرة الحقيقية الواقعية يأسا، والتمسك بخرافة الأحلام التى لاتتحقق هو التفاؤل الإنسانى الذى لانجده سوى فى الكتب وعلى ألسنة وأفواه وأقلام (إخواننا) الكتاب.

وكنت فى قرارى صامتا كتوما، لا كلمة واحدة لزوجتى نفسها، ولاعلم لصديق، فأنا أعرف كم ماسيصدر من اعتراض وسخرية، أقلها

أنى أتصيد التقريظ والمديح والرغبة فى الحث على مواصلة مايسمونه بالنجاح.. إن الحياة - هكذا أراها - ليست لعبة أضيعها مصغيا لهذا أو موليا أذنى لذاك... الحياة حياتى والقرار قرارى وكم من أمور تكاد تكون قتالة فعلتها دون ذرة تردد وحتى لو كادت، أو بعضها فعلا ضيعنى، دون ذرة ندم.

بل والقرار التالى الأخطر بعد اللاكتابة: هو اللاقراءة.. فالحليف الداهية الخبيث للكتابة هو القراءة، هى المنزلق الذى إذا وضعت عليه قدمك وجدت نفسك فى سرعة الضوء تهوى حتما إلى حيث تبدأ أنت لا ترى ولكن تصنع الحروف والمعانى والكلمات، ويلفك التيه الخالد ما بين أحرف تصنعها وأحرف تصنعك، وحياة تصنعها ولاتحياها وحياة تصنعك أجيرا لها فقط تحقق لها ما هى تريد. مذ كان عمرى خمس سنوات وإلى الخمسين وأنا أقرأ وأكتب وأقرأ. الحياة تصطخب فى الدنيا وأنا صريع الحياة الموهومة بين دفتى كتاب وكلها من ورق وكلها من حبر، ضيعت عمرى أتعلم كيف أتعلم الكتابة، والبقية الباقية ضيعتها كيف أعلم مافى الكتابة، والنتيجة أنى أنا نفسى استحلت إلى كلام وأصبحت روحى من ورق وأحلامى ومتعتى كائنة كلها من حبر بين كلمتين أو جملتين أو صفحتين..أى حياة؟!

كثيرا ماقضيت الليالى إلى صباحها فى غابة الأحرف تائها أزرعها مرة وأقطعها مرات ولانسمة إلا رائحة اللون الأسود وسحابات من دخان وأنصاف أكواب مليئة «بتنوة» من بن جاف.. ولا أتبين إلا وهناك أشعة الشمس تشحب ضوء الكهرباء، وأحس أن ظهرى انكسر

مقوسا إلى الأبد أو يكاد، فأقوم لأعدله وأخرج إلى الشرفة.. ماأجملها ساعة السابعة فى الصباح طازجة ودائما جديدة، تصوروا كل صبح دائما جديدا أبداً لم تمسه أرض من قبل ولااحتوته سماء، وإنما هو هدية الكون الجديدة تماما لنا... الناشئة لتوها وفى الحال، هذا هو الصباح الطازج الصابح الذى علىّ أن أتركه لأمضغ ساعات ليل ونوم بائتة وحامضة فقد مضى أوانها من زمان.

فى ساعات صبح كتلك كنت كثيرا جداً ما ألمح «كناس» شارعنا جالسا على الرصيف المقابل مسندا مقشته إلى كتفه، محتضنا إياها وكأنما يلتمس منها ألفة يوم كامل سيقضيانه معا، وفى يده اليمنى غالبا كنت ألمح كوب شاى وفى اليسرى سيجارة. ومهما كانت الدنيا صيفا أو شتاء فأبدا لا برودة هناك ولا نية احترار وإنما هى - فى رأيى... لحظة السعادة القصوى.. هذا رجل يقوم بعمل جاد محدد ينظف شارعنا، من كل ما نقذفه نحن الأفندية والستات من فضلات. نام قطعاً الليل ونامه مبكرا فها هو مبكرا قد استيقظ واستمتعت كل خلية من خلاياه بسبع ساعات على الأقل من خلو البال. واحد من ملايين ملايين الرجال الذين لاأشير ولن يشار لهم بأى بنان، عاش وقام ورفس زوجته ونام، بالضبط اتسق تماما مع قانون كون أعظم، جالسا استعدادا لقانون عمل أعظم، وهاأنا المشار إليه بالبنان.. عاكس القانون، ومقاوم الظلام ليغير الناموس، وأتى عليه النهار ليجده حطام دون كيشوت خيل إليه أنه قضى الليل يعكس ويحارب طواحين الهواء والاتجاه، وأحس حتى دون أن يواجه أحدا أن طاحونة لم تتوقف وجناحا منها لم يتعطل أو يتغير أو يتبدل لاتنعم براحة البال ولا حتى براحة البدن، أعطنى مقشتك أيها

الرجل وخذ ذلك القلم، فمنتهى أملى أن أرى أو أستعمل شيئا له مفعول مقشتك، والمفعول أراه أمامى بعينى وأشهده وأحس بفائدته.

قدرك الذى عذبك وأمرضك وحملت من أجله هموم الكرة الأرضية فوق قرنك، ولست ثورا أفريقيا خالدا باستطاعته أن يتحمل الدنيا بهمومها بله همومك أنت وحدك إلى الأبد، كل جسدك من المرض مرض المرض وحيرت نطس الأطباء من الكرملين إلى مايو كلينيك وكليفلاند وهارلى ستريت، وأصبحت مريضا عالميا وأصبحت حياتك كونية الحيرة، فيقرر الأطباء أنك ستموت فى ظرف ٤٨ ساعة وإذا بك بعد ٢٤ ساعة فى قوة الحصان، ويقرر الأطباء أن عندك سرطان وأنك أمامك شهر بالكثير لتودع الحياة، فتبدأ حياة جديدة وسيمة الملامح جدا بعد أسبوع... حتى يئسوا منك مثلما قالت لك الدكتورة إيلينا: أنت يازميل حالتك لاتخضع للطب الذى درسنا. وقال لك البروفيسور الكبير فى نيويورك فريدمان: حالتك نادرة ولكنها التفسير الأوحد.. تنفعل إلى درجة المرض وتمرض إلى درجة الموت، وتموت إلى درجة الحب. والمسألة خرجت عن كل مالدينا من علم تعلمناه ونعلمه... ربما تعرف أنت.

وفى ركن خفى من أركان نفسى السرية كنت أعرف: إنها ذلك الجزء الذى يملى علىّ أن أكتب يمرضنى ويحيرنى، وجزء كقوانين الكون كيف لى أن أسيطر عليه، ولا كيف أريحه، فإذا أخذت اجازة وذهبت إلى الشاطئ ثارت الزوبعة فى يافوخى حتى تتكتل علىّ الأمراض، وربما تهدأ تماما إذا وجدت نفسى فى وسط حركة جيش

التحرير/فى الجزائر، أو أستعد ليوم عصيب من أيام الحركة الوطنية والقومية.

وأيضا ماعلينا.

فلتكن قد فعلت الكتابة مافعلت، وليكن قد حدث ماحدث بل فلأكن سأموت حتى، أقسم غير حانث أنى قدرت الموت واستحضرته تماما ووجدته ألف مرة أرحم، لم أعد أستطيع، أبدا لم أعد أستطيع. إنى لأكاد أحسد إلى درجة البكاء هؤلاء الزملاء الكتاب الذين يكتبون كل يوم وعن كل وأى قضية من السياسة إلى القصة إلى العلم إلى المذكرات إلى الحب إلى الأمومة إلى... إلى... إلى أى شيء... كيف بالله يكتبون؟ ولماذا أجد القلم فى يدهم سهلا ودرجة الانفعال ٣٧ لاتنخفض ولا تزيد، وضغط الدم لايعلو ولاينخفض ١٢٠ على ٨٠ بكل الصحة... واللهم مزيدا من الصحة - وبكل التعقل والمنطق يكتبون ويكتبون ويكتبون يوما بعد يوم بعد يوم، ألديهم آلة «زيروكس» يضغطون على الزرار من هنا فتخرج الصفحة زيروكسية مكتوبة جدا من هناك. أم (أنا) الحالة؟ فلابد أن أحدنا هو الحالة قطعا.

وأيضا ولثالث مرة - ماعلينا.

* * *

طيب. أخذت المهنة وقلت أتدرب على إصلاح أجهزة الفيديو كاسيت. فلقد أخطأت ذات مرة وأحضرت جهازا غير تقليدى وحاولت تشغيله فأبى أن يعمل، وجربت جميع المشاهير وغير المشاهير من

مصلحى الفيديو حتى أستوعب العملية تماما مثلهم، وأصبحت أعرف البال من سيكام من الأوتوماتيك بال سيكام والأنظمة الثلاثة الأوتوماتيكية والألوان التسعة والسبعة، ومثلهم أيضا أدركت أننا كلنا قد أخذناها فهلوة، وأن أقصى ماقضاه أى مهندس منهم لدراسة هذا الجهاز الجديد الذى سيقلب العالم رأسا على عقب فى القريب العاجل جدا لم يقض فى الخارج أكثر من ستة أشهر. وهى فى رأيى فترة غير كافية لدراسة نظرية. مجرد نظرية التليفزيون فما بالك بالتسجيل التليفزيونى العملى وأجزائه معقدة الوظائف.

سأكون صناعيا علميا جدا، وحتى لو كان الأمر تغيير مهنة، فأنا كثيرا مابشرت فى أحاديثى «أيام الجد» أن الانسان فى عالم المستقبل لن يقصر عمره على مهنة واحدة يقضى فى روتينها محترفا كلية، وأن المستقبل يحمل للإنسان القدرة على أن ينتقل من جراح قلب إلى قافز باراشوت هاو إلى نجار موبيليا - أعرف جراح قلب فى أمريكا يعمل يومى السبت والأحد نجارا محترفا فعلا - إلى عازف أكورديون، إلى ماشاء من المهن والهوايات خلال حياته الواحدة، بحيث لايعتريه شهر أو أسبوع أو حتى يوم ملل واحد.

وجئت ببعض المراجع وأحضرت تليفزيوننا القديم وبدأت أدرس الدوائر ومصائد الأشعة والصمامات وأنصاف الموصلات «الترانستور»، ولم يستغرق الأمر أكثر من أربعة أيام لألقى بكل شئ جانبا إذ كنت قد تركت أجمل أنواع المعادلات الكتابية الشاحذة للخيال المدرة للجمال، فهل أغرس نفسى فى معادلات أبعد ماتكون عن التصور وأقرب

ماتكون إلى واقع صلب ينطح فيه الإنسان رأسه؟ لاكتابة. لاقراءة. لادراسة. فلقد أخطأت، كان الواجب التكتيكى يقتضى منى وقد قررت أن أتنحى... أن أتنحى عن عالم الأحرف كلية والخيال إلى قلب الحياة نفسها، قلبها الصاخب المتدفق متعة وليس إلى دوائر الترانستور والتليفزيون المغلقة حتى على نسمة الهواء.

شارع المتعة والحياة.. فلان؟ أهلا وسهلا أو أهلين وسهلين. هاى جو.. بالأحضان يطبق ضلوعى، وأنا قرأت لك وأنا فاتنى أن أقرأ. ياسلام ياعبقرى يالسوء حظى، وبدلا من أن أستمتع أنا أصبحت أنا وسيلة المتعة، وغير مسموح لى حتى بمشاركة «جمهور» الحاضرين مباذلهم الصغيرة أو الكبيرة أو رواية نكتة فاضحة فأنا «فلان» المفكر «المهول»، والاستنكار ينبثق كالدش البارد المفاجئ إذا حدث وحاولت... مجرد محاولة ــ أن أهرج. وهل يسمح حتى فى أيام الوثنية للآلهة بالتهريج؟ وأعود آخر الليل شديد التأنيب لنفسى، فالعاصفة الهوجاء التى قوبلت بها تنتهى فى آخر السهرة بسلام كسلام صداقة انتهت وكأن الواحد يقول لنفسه: هاهو آخر يطلع زينا والظاهر كلهم كده، صيت ولاغنى وأهه كله بكش. لم يقبلنى صخب الحياة ولم أقبله، فالناس يفضلون إذا صخبوا أن ينسوا العقل، فإذا حضر العقل أو كلام العقل فهم يصنعون شيئا من شيئين.. إما يلغونه تماما بإحالته إلى محط سخرية، وإما يحيلونه تماما إلى عنصر عاقل كابت كالوعى يثبتون له ولأنفسهم أنهم لايقلون عنه «احتراما»، والنتيجة أن ينقلب الأمر إلى حالة تمثيل تتوقف فيه الإنطلاقة التلقائية التى رغم كل مايبدو فيها من

هبوط - انطلاقة براءة الطفل الذى يريد أن يلهو داخل الإنسان، وهكذا وببساطة تامة تنتهى المتعة، أى متعة

* * *

وقلت لقد مضت أحقاب منذ أن لعبت دور الأب، وإذا كنت قد أنتجت أعمالا فلماذا لاتلتفت الآن لإنتاج بشر... بشر تعطيهم ما أعطتك الحياة من خبرة؟ تجمعهم كل عشية وتعيد أواصر عائلة فككها التليفزيون الذى أخرس الحوار بين أفرادها، شلل النادى والكورة التى تولت مهمة التربية والأب وأصدقاء السوء ليس وراء معظمهم سوى الشوائب تنزعها كالشوك السام الذى يغرس كل يوم فى الأقدام، وعليك بإبرة رفيعة متهالكة وبمقاومة رهيبة من الولد صاحب القدم أن تنتزعها.

واكتشفت أنى أبحث عن دور أصبح مكانه حفريات التاريخ هناك حيث ترقد مراكب الشمس، لو أمعنت فى الصحراء قليلا ستجد ملايين قبور عليها شواهد مكتوب فوقها: كائنات كانت آباء... فليرحمهم الله.

أب ماذا فى هذا الزمن الذى أراد النظام الذى يدبر الكون الآن، أن يفكك العائلة فيه ليسهل على نفسه شراءها؟ أيد عاملة شابة ترضى بالقليل وتعطى الكثير ولاتسع تعاليم الآباء عن عمق مطالب الشعوب والفئات منذ أقدم العصور. آلات منتجة جديدة غير مثقلة بتاريخ مطاليات ونقابات، وإنما هى ابنة «رجل بستة مليون دولار» و«جى آر» و«سوالين» جديدة تشكلها وتعطيها ماشاءت من بنج بونج وتنس وكورة ومنطق ساحق رهيب، دراسة ماذا وأنت تستطيع كجرسون فى فندق أو

حتى شيال أو مصادق للسائحات العجوزات أن تطلع لك فى اليوم بعشرين أو ثلاثين جنيها بالتمام والكمال، تصرف وتشترى عربة، والجامعة والتعليم واللقب الذى تريده ستجدها كلها ملفوفة فى خرق قديمة ألقيناها من نوافذ المناور فى العمارات؟ ماذا يجدى الحديث عن سعد زغلول ومصطفى مشرفة وحتى فاروق الباز أمام ثلاثين جنيها وعربة ولو «سيات» يلمسها المراهق لمسة اليقين كل يوم ويحيلها لصناديق بيرة وشحنة بنات وطريق صحارى سيتى وهات إيدك. إلى حديث عن المجد القديم والمجد هاهو أمامك جديدا «نوفى» تحت أمرك، ودقيقة واحدة ويكون رهن طلبك، وإذا أرقك ضميرك هاك بلبوعة قادمة من بيروت تزيل كل الآلام وتحقق جميع الأحلام وتصبح إذا أردت فى ومضة كسرى أنو شروان.

كان الله واحدا والأب واحدا، وفى البدء كان الكلمة بالطبع الكلمة الطيبة.

فى عصر الوثنية الحديثة هذا أصبح الإله الواحد حتى فى الدين الواحد عشرات الملل والنحل، والأب الواحد أصبح عشرات الآباء تختار أيهم كما شئت حسب لون الفانلة أو نوع الفتاة أو فرقة الغناء أو مكانتك فى الشلة، وماأبعد المسافة بيننا وبين البدء بحيث أصبحت الكلمة والأوقع والأكثر جذبا للانتباه شارع المتعة والحياة: فلان؟ أهلا وسهلا أو أهلين. من جديد أمر يحتاج إما أن تهدمه تماما وتعيده خلقا آخر وهذا ليس باستطاعتك، وإما أن تكتفى أن تقوم بدور المتفرج فى طابور طويل من الآباء يغمر العالم كله يتفرجون على كائنات كانت فى البدء أبناء.

* * *

ولم يعد إلا أن أحيل نفسى رغم الطاقات التى تتفجر منى ورغم أنى فى أكمل وأنضج «فورمة» إنتاج فى أى مجال ومكان إلى التقاعد.. وتقاعدت. أتمشى مبكرا فى الصباح، أحتسى كوب شاى فى مقهى أو ناد، أعود إلى البيت، أحاول أن أصلح حنفية أو أفسد «كوبس» نور. أنا فى اجازة ماقبل الإحالة إلى الاستيداع.

وشيئا فشيئا بدأت ألحظ مسألة بالغة التفاهة.

إن قدرتى على التمشى أصبحت أقل، وكل يوم تقل. وأصبحت أعود إلى البيت وكأنى قد بنيت السد العالى بمفردى متعبا مهدودا لاأكاد أصل إلى البيت حتى أظل أستريح ولو من الراحة استراحة تصل إلى الظهر.

وأتغدى وأجد نفسى فى حاجة ماسة إلى النوم وكأننى ظللت اليوم بطوله ساهرا.

ثم ساءلت نفسى السؤال الأكبر: لماذا اليقظة المبكرة أصلا وليس ورائى من عمل أؤديه؟

ثم سؤال أكبر وأكبر: ولماذا المشى كل يوم كل يوم وأنا ليس لدى عمل ثابت لكل يوم؟ وأسئلة ليست مجرد أسئلة، ولكنها مقدمة حتمية معقولة لشمولها بالنفاذ الفورى.

ما أروع التمطى فى فراش دافئ ونحن فى طوبة حيث كل شئ وكل إنسان من البرد يتجمد، ماأروع فكرة أن ليس وراءك بالمرة أى عمل! ليس الكسل هو الرائع فى الموضوع ولكن الأروع هو الإحساس الكامل،

أن ليست لديك أية مواعيد أو واجبات وإنما أنت لك حرية اليوم والغد والزمن القادم كله.

كل حياتى كان محورها أنى أكتب كل اتصالاتى، دعواتى، ارتباطاتى، سببها خيط واحد يصدر منى ليوزع آلاف خيوط بعضها يجذب، بعضها يعزف، بعضها يقلق، بعضها يفرح، بعضها يذكر أو يتذكر أو يصرخ ألما، والخيوط تلتقى عندى تصنع لى يقظتى ومنامى وترغمنى أن أرتدى الثياب كل يوم، وأعانى مشاق كل يوم، وأودع الأمس وداع المغتاظ مرة، وداع الصبوة مرة، لاأنتظر الغد بصبر نافد بل لاأريده أن يأتى أبدا.

ذلك المحور لم يعد له وجود. الكرة الأرضية الآن انطلقت فى الفضاء على حريتها بكل اتساعه وشموله، تدور حول الشمس أو لاتدور، تترك وليدها القمر ينعى حظه وخسوفه إذا أحست بعلل الصحبة.

ولأول مرة أحس أنى لست أنا ملتقى خيوط ولا دائرة بالأمر القدرى حول محوره، ولايهمه أن يتلقى النور من هذه الشمس بالذات أو يكتب عن هذا الموضوع الذى يشغل الناس جميعا الآن بالذات، أقرأ أو لا أقرأ، وجميع ما أقرأه غير مضطر لاختزانه أو إمعان التفكير فيه، فلم يعد عقلى فى حاجة إلى مذاكرة مايقع، أى ممايقع وشبح الامتحان الكتابى قد اختفى من أمامه.

صادقا مع نفسى لم أحس بطعم سعادة حقيقية مثلما أحسست وأنا لثلاثة أيام بنهارها ولياليها لاأتحرك من فراشى. زوجتى تعتبرنى لابد

مريضا، فحتى حين أطلب الطعام وأنا نصف جالس ألمح الاستنكار البين فى عينيها، ولكنها فى قرارة نفسها تقنع نفسها أنى لابد أستعد لعمل عظيم ومن حقى أن أستعد له بالطريقة التى تحلو لى. ومادامت الطريقة هذه المرة هى التمدد فى الفراش المنكوش وملاءاته التى يحل كل يوم موعد تغييرها، فكم كان لى معها من تصرفات تستغربها تنتج فى النهاية شيئا تكون هى أول السعداء به.

ماذا لو عرفت أن لاشئ وراء الأكمة وأن لا كتابة بعد الآن؟ ماذا لو أدركت أنها لو احتجت أو عارضت فسأترك كل شئ وأمشى لو اضطررت بلاد الله لخلق الله.

طال الرقاد حتى أصبح الذهاب إلى الحمام مشقة وأى مشقة ألهث لها وأحس أنى وكأنى أسافر على أقدامى عدة أميال، وغسيل الوجه لم يعد يوميا بالضرورة... ماذا لو حدث كلما أحسست باتساخه؟ وغسيل الأسنان باعتباره عادة راسخة أحس بالقلق طوال اليوم إذا لم أفعلها بكوب من الماء الدافىء والمعجون بجوار الفراش.

فى الأيام الأولى كنت أقضى اليوم فى أحلام يقظة تعيد لى خصوبة أحلام اليقظة فى طفولتى، وعبر رحلة الثمانى كيلو مترات فى المشى ذهابا وعودة إلى المدرسة، أكتفى من الجرائد بالمنشتات ثم أكتفى فقط من أجل العادة وحدها بتسلمها دفعة واحدة ثم إرقادها بجوارى على أمل أن أعود إليها فى المساء. والمساء يجدنى مشدودا إلى التليفزيون. حفظت البرامج عن ظهر قلب ولا حلقة أجنبية أو محلية تفوتنى. ثم ضج جسدى بهذا النشاط التليفزيونى والإذاعى، وشيئا فشيئا زهقت من

الصورة ثم زهدت فى الموسيقى ثم أخرست اللاسلكيين تماما، وحتى أحلام اليقظة استهلكتها جميعا ولم يعد عقلى قادرا على اختراع أدوية مثيرة أمضى فيها الأحلام، حتى حدث الأمر الذى لاأعرف بالضبط أنى كنت طوال الوقت أتوقع حدوثه، أو أنى دون أن أدرى وباللاوعى كما يقولون كنت أخاف حدوثه. بدأت ساقى اليمنى تتورم ثم أعقبتها اليسرى بلا ألم ولا أعراض جلطة، من ناحية وكدارس طب قلقت كثيراً أن تكون جلطة فى الأوردة العميقة للساقين، ورحت أتصور كيف ستتكون الجلطات فى بحيرات الدم الوريدية فى عضلات الساقين، يعقبها لابد زحف إلى أعلى حتى يشل التجلط وريدى الفخذين العظيمين، وياحبذا لو زحفا إلى البطن حيث يتحد الإثنان ويكونان الأورطى الوريدى وأكون قد انتهيت.

ومن ناحية أخرى وجدت فيما حدث المنفذ والمهرب.

فالآن وبعد أن بدأت ألمح فى عيون زوجتى أشياء كالتى كانت تحفل بها نظرات بطلة المرآة المقعرة، الآن عندى سبب وجيه تماما للرقاد. فالجلطة أو الاشتباه فيها أول تعليمات علاجها الرقاد تماما ورفع الساق وعدم الحركة مطلقا.

وحتى ولو لم تكن هذه هى تعليمات كبار الأطباء والجراحين الذين عادونى، فأنا نفسى كنت قد فقدت الرغبة تماما فى الحركة أى حركة ولو حتى لرفع رأسى وصدرى ربع ارتفاعة لتناول الطعام أو الشراب، وبمثل مافقدت الرغبة فى الحركة فقدت الرغبة فى أشياء كثيرة جدا، أسأل نفسى: نفسك فى إيه؟ الإجابة دائما واحدة: لاشئ أريد، لاالشوق

أريد، ولا القلق على ابن أو زوجة أو صديق أو قضية.. لا رغبة أبدا فى أى شئ وبدأت أورام السيقان تزداد وتزحف إلى أسفل البطن، والأطباء يوصوننى بعمل تمرينات رياضية لتحريك أصابع الأقدام وقبض وبسط عضلات الساق والأفخاذ لدفع الدم للعودة، ولاأجد فى نفسى ذرة رغبة فى القيام بأى تمرين أو تحريك أية عضلة.

الموت قادم ..

لا أره فهو ليس شبحا أو ملاكا أو قابلا للرؤية ولكنى أحسه، تماما كمقدم المساء حين ينتهى العصر ويحتقن وجه الدنيا بالغروب وتحس أن الظلام لا محالة سيتبع هذا. الليل.. الصمت الأبدى.. عدم الحركة فى تمامها واكتمالها وشمولها واستمراريتها.. المذهل لااستنكار، لا احتجاج، لاتفكير مطلقا فى أى مقاومة.. وهل يقاوم الإنسان مطلبا هو شديد الرغبة فيه؟ بل هل حتى لم يعد شديد الرغبة فيه إنما هو الإنتظار الصبور غير المتعجل؟ فليجئ حين يجئ فالجسد مسجى لايتحرك، والوعى بأنه هناك ممدد ومسجى وساكن أو انتفاء الوعى سيان... وماذا يصنع الوعى من فارق إلا أن يجعل الانتظار معدودا بالأيام والساعات، ومشوبا بالقلق، سيتكفل هذا الزاحف القادم بالقلق يستأصله وبالانتظار ينهيه ـ كما يتكفل الظلام بإخفاء الأشياء.. جميعها.. الجميل والقبيح، البعيد والقريب، الدافع للحركة والمانع لها.

ربما الشئ الوحيد الذى تبقى يخصنى ويجعلنى فى لحظات أحس بصهللة الإحساس بالحياة، هو نوع من حب الاستطلاع.. كيف، إذا جاء سيجئ؟ كيف الناس يموتون، وأى إحساس بالضبط، وماهو ذلك

الشئ الذى تواضعت عليه البشرية من قديم الزمان وأسمته طلوع الروح؟ أتأتى على هيئة «كرشة» نفس تنتاب الشخص لهنيهة ثم ينقطع النفس؟ أتأتى على هيئة استمرار طويل لنوبة من نوبات التوهان والدوخة التى كانت تعترينى بين الحين والحين حتى لأحس أنى انفصلت عن وعيى وأنه بقى معلقا مدركا للموجودات من حولى بينما أنا هويت وأهوى بسرعة مخيفة إلى بئر لا قرار لها؟ لاأحس أنى أهوى ولكن حين ينتفض شئ فى رأسى يعيد وصل الوعى بالأنا الهاوية أحس أنى فعلا أصعد، ومعنى هذا أنى كنت بالتأكيد أهوى.

كيف إذن يأتى ذلك الشئ المحير؟ تلك النهاية السؤال.. الموت؟ إن الجهد الذى بذله مخترع المحرك ليوجد الوسيلة التى يستطيع بها إيقافه عن الدوران لم يقل فى رأيى عن الجهد الذى بذله لكى يحول المعدن الساكن إلى عجلة متحركة، فخلق الحركة لايعادله سوى اختلاق السكون... كيف سأسكن أنا؟ أيحدث إغماء محتم قبلها، أم أن بعضهم يكون إحساسه بالموت هو آخر مدركاته بحيث تكون النهاية هى نهاية الإدراك؟

ولم أكن أتوقع أن يأتى هكذا أبدا..

فجأة ذلك الصباح وأنا أداعب ابنتى الصغيرة قبل ذهابها المبكر إلى «أوتوبيس» المدرسة، حاملة جبل الكتب المقررة على الثانية الإبتدائية ـ كتلة ضخمة تنوء بها البنت فعلا لا مجازا ـ فجأة وهى تجرى لتلحق بالأوتوبيس الزاعق أحسست أنى ـ بلا ألم أتنفس بصعوبة. أشفط بطنى كله لكى أخلق الفراغ فى صدرى، ومايكاد جزء منه يمتلئ حتى أحس

بحاجتى إلى هواء أكثر، وهكذا فى منتصف الشهيق أشهق، وفى منتصف المنتصف أعود أشهق...

ولم يبرق خاطر وإنما مسمار رهيب. بخبطة شاكوش واحدة مفاجئة أدركت السلاح الذى اختاره الموت.. جلطة الرئة... فى ثوان ينتهى كل شئ. ولم أعرف، أنا المسجى ثلاثة أرباع ميت على فراش غائص بى، مقعر فعلا، أنى أمتلك هذه القدرة الهائلة على الهلع.

وكأنما كنت، وأنا أفكر بالموت بتلك السهولة واللامبالاة، أتحداه من حيث لاأدرى، فحين استقر إلى درجة النزال وأمسك بسلاحه، أرعش الرعب كل خلية من خلاياى.

وعادة تليفون الجيزة لايتصل بالدقى، فإذا أتصل ورد منزل جراح الشرايين الكبير لتقول لنا الفاضلة زوجته أنه فى مستشفى قصر العينى الآن، فمعنى هذا أنك ميت لامحالة ميت. إن الجلطة لايبدو أنها من النوع القاتل فى الحال، وأن هناك احتمالا لاستئصالها بالجراحة، والحياة، كل الحياة أصبحت معلقة بتليفون قصر العينى الذى أعرف منذ عملت فيه من قديم الزمان أنه أبدا عمره ماكان إلا مشغولا مشغولا مشغولا، فالاتصال بالعزيز رئيس المكتب «تعبير تليفونى» وكأن المكالمة من الخارج أو إلى الخارج، وليدخل على الخط وفى ثوان يكون سامع على الطرف الآخر.... وفى ثلاث دقائق تكون زوجتى تقود العربة بأقصى سرعة وهى تؤكد ألا جلطة ولا خوف، وإلى قسم التشخيص بالإشعاع الذرى ومجموعة هائلة من عميد الكلية إلى الجراح إلى كتيبة من شباب الأطباء تتلقفنى وتدخلنى غرفة، الوحيدة فى مصر التى

ترسم الرئة بالألوان بواسطة عقل إليكترونى، وتظهر نتيجة غريبة محيرة، الرئة اليسرى ليس بها قطرة دم، ولكن أيضا ليس بها أى جلطة.

ويشكون فى صدق الآلة، فهذه نتيجة عبثية تماما فمعنى خلو الرئة من لون الدم أنها لاتتنفس، بينما بالسماعة وحتى باليد صوت تنفسها واضح وجلى ومسموع.

ويتطوع الطبيب الشاب بشرح كيف أنهم فى أمريكا يبتكرون بحثا أوعلما جديدا اسمه: أخطاء الآلات وأنها تشكل كذا فى المائة.

وكان لابد من إعادة الفحص.

وأوضع من جديد تحت شقي الرحى، ولكن أى رحى... أية غرفة تلك التى أنا فيها؟ حين تخرجت فى كلية الطب كانت الآلة الهندسية الوحيدة التى نعرفها هى جهاز أشعة إكس وجهاز إصدار الأشعة فوق البنفسجية. ماأراه طب مختلف تماما وفرع جديد اسمه الهندسة الطبية يتطور بسرعة الصاروخ ليبتكر كل يوم اختراعا لم يتصوره أحد من قبل. آخرها.. هاهو موجود بالغرفة تقف أمامه أو تمد له يدك فيعطيك فى الحال اسم ونوع ووزن كل عنصر داخل فى تركيبك. ويصدر إشارات كسيرينة الإسعاف أو بوليس النجدة لدى كل عنصر فيه نقص أو دون المستوى المعتاد. وكل هذا حدث فى أقل من ربع قرن.

شقا الرحى اللذان كنت بينهما. أحدهما ثابت هو الراقد أنا فوقه، والآخر متحرك حركة رائحة غادية كحركة نقاش يطلى الجسم بشئ

غير منظور، يسمونها طريقة المسح. مسح الرئة، مسح الكبد، في الواقع مسح أى شئ أو عضو تريده، وأيضا ثبت من الفحص الثانى أن الرئة تتنفس ولكن بغير نقطة دم. واستمرت المناقشات طويلة ومليئة بتعبيرات، كالأجهزة لم نكن فى الخمسينات نستخدمها بل لم نكن نعرفها.

ولكن آلات ماالآت. تشخيصات ماتشخيصات. احتمالات أسوأ احتمالات. لقد عرفت أنا مرضى أو بالأصح حالتى... نعم أعرفه الآن تماما.

وأنا متأكد منه... الموت! زاحفا خفيا، حتى بغير قفاز حياء، أو تشخيص، فما الحل؟

على مر عشرات ومئات ملايين السنين أصبح الشغل جزءا من التكوين العضوى للإنسان. صحيح أنه ليس عضوا كسائر أعضائه، ولايرى لا بالميكروسكوب ولا بالعين المجردة، ولكنه موجود. إشعاعات من الموجات تنطلق من أجزاء جسمه وتشكل هالة موجبة من الموجات الحية باعتبار أن الحياة فى أعلى صورها فى أرقى وأدق وأعقد أشكال الوجود المادى الموجى، رغم أنها مثل كل الموجات والتموجات تلك التى تشكل صلب الوجود وقدرته على التبدل والتغير والتفاعل، مثلها مثلهن لاترى بالعين المجردة ولا بالميكروسكوبات الإلكترونية ولا بأى صورة ممكن أن يتفتق عنها العقل البشرى فى المستقبل... إننا فقط نفترض أنها موجودات ونفترض أنها من مادة ما ولكن المؤكد أنها موجودة... وإلا لما كان الوجود...

هذه الموجات المحيطة موجات التنبؤ والاتصال والربط العضوى الكامل بين الإنسان والإنسان، والإنسان والحيوان، والنبات وذرات الرمال فى الصحراء وماء المحيطات. وأقصى مجرة من المجرات هى التى تحرك الإنسان، أى تحرك زميلاتها موجات الداخل وتعطى إنسانا مثالك اتجاه وحكمة ورؤية وضرورة أن تتخذ الحركة إيقاعاً يؤدى، وفى أنماطه العليا يبتكر مانسميه بالعمل. ويستوى فى هذا أينشتين وأجهل فلاح فى بلدنا. وكما يخصص ويركز ويضيف أينشتين والذى هو فى وجوده أول الأمر نقطة التقاء وتفاعل للموجات أعطته القدرة القصوى على تصور الكون على هيئة معادلات وحل تلك المعادلات، وبالفعل أثبت أن المعادلات التى ابتكرها تنسجم تماما مع قوانين الموجات وتجعله يتحكم لأول مرة فى الموجات، وكانت القنبلة الذرية والانشطارات كذلك هى فى فلاح بلدنا قدرة خارقة على الانحناء، وربما لأكثر من عشر ساعات، وهو ما لايستطيعه أينشتين... ولكل منا محيطه الخارجى من موجات. الجزء... الأكبر الذى ينظمه هو العمل الملائم لموجاتنا الداخلية، بحيث متى تم التوافق العزفى بين نحن من الداخل ونحن فى الخارج... نحن إنتاجا وإبداعا وجمادات، دخل الكائن دورة الكون رائعا عظيما ومنسجما، وأرضى عنه الله والوالدين والإخوة والأصدقاء... والناس..

وما انسحاب الحياة وتضاؤل اتصالاتها، ثم أخيرا موتها، سوى الخلل الحادث بين دائرة الداخل ودائرة الخارج. ولهذا يموت فورا بعض الذين يحالون إلى المعاش. ومن بقى منهم حيا لابد أن لديه بديلا لموجة العمل واتصالاً آخر بالوجود والموجودات.

باختصار لا سفسطة فيه ولا نظريات، حين قررت ألا أكتب بينما موجاتى كانت قد رتبت نفسها لأكثر من ثلاثين عاما على العمل الكاتب وتحويل الفكرة المختلطة بالوجدان وبالذاكرة الجماعية النشطة الاتصال بالعدد الهائل من نقاط الالتقاء والبشر.. اتصال كامل ذى اتجاهين، حين قررت التوقف خبت تلك الموجات وبدأت تخمد فى جذوة الحياة، وأفضل المشى على الجرى، ثم الجلوس على المشى، ثم الرقاد على الجلوس، ثم السكون التام عن الحياة. كان فى حقيقة الأمر نوعا غريبا مبتكراً من الانتحار.. توقفا عن العمل، مثلى مثل أى خلية فى المخ أو الكبد أو حتى الجلد تقرر عدم القيام بوظيفتها فلا ترسل الأنزيمات ولا تستقبل، وتنقطع الصلة بينها وبين العضو الذى تنتمى إليه ثم بينها وبين جسد الوجود الأعلى «الإنسان» والنتيجة حتما أن تموت.

ولقد حاولت الخلية - والشهادة لله أنها كانت محاولات بطلة - أن تستبدل عملا بعمل، وتتسرب من حيث الكبد مثلا إلى الجارة المعدة وتصبح خلية جوع وشبع، التهام طعام ومضغ فقط. والنتيجة كانت الكف عن وظيفة الحياة نفسها. فخلية الكبد لا تهضم ولا تستطيع أن تواجه حامض المعدة، بل وتهلك حتما إذا وقفت وظيفيا حائلا بين جارتها الكبدية تلك والخلية الأخرى. القانون سادر ولابد أن يظل سادرا، وأنا لا خلقت تخصصى أو اختيارى ولا أستطيع أن أغير نوعيا أو عضويا نفسى، كل ما أستطيعه أن أعمل فى اتجاهى بكل موجاتى، وأن أوسع دائرة الوجود من حولى.. دائرة وجودى، وليس ضروريا أن أجيب الديب من ديله أو أبنى هرما رابعا. لعل السر الذى خلقنى كائن

فى أنى ذات يوم سأقول كلمة تصل إلى إنسان ما فى مكان ما، وتلتحم موجتى على شكل الكلمة بموجاته التحاما ينشط آلاف وملايين ومليارات الموجات، ويتفجر الشئ الذى لم يكن قد خطر على قلب البشر، فأنا قطعا موجود بوظيفة ولأداء وظيفة، وكونى قلت لا مجرد تمرد كخبط الرأس فى الحائط، يكفى أنه أوصلنى وأنا على حافة أن أموت سكوتا أن أكتشف أن سر الوجود هو الحركة، وسر وجودى الشخصى أن أتحرك، وبمطلق وبمنتهى وبأعظم ما أستطيع أطلق الموجات تلو الموجات وأستقبل الموجات تلو الموجات، وأنا أخبط رأسى ليس فى الحائط هذه المرة ولكن بكفى نافضا عن نفسى كل ما اخترعته تلك النفس لتحتج على سوء توزيع دورها سكوتا... فهذا هو بالضبط طريق الموت.

والموت ليس ضروريا أن يكون صاعقا مفاجئا كالذبحة، إنه كأضرار التدخين أضعفها وأوهنها، وبرئ تماما براءتها أو هكذا يبدو. إنه الموت الأخطر والأبشع، الموت حياة كحياة الموتى، الموت سكونا وسكوتا وصمتا، الموت تمردا وقتيا عالى الضجيج، فشديد الضجة يصم كشديد السكون. الحياة.. ليس مجردها وإنما خلقها خلقا، ويوميا خلقها خلقا، تعدى الآخرين بها، تنشرها كالوباء صحة، تبثها موجات إثر موجات.. موجات صحيحة كالجنين الجميل القابل للتشكيل حسبما تريد. الحياة سامية شامخة بشرف وبلا مساومة أو إزعاج ضمير... الحياة الحلوة حقا ليس دفعا بالأكتاف ولا عدوانا على الآخرين ولا استغلالا لحاجتهم. ما أروع أن تصحو من نومك اليوم وتختار أى عمل طيب

بسيط تفعله حتى لو كان زيارة لسرير مريض مجهول لا أمل له ولا أهل. إذا كنت فقيرا أعطه كلمة طيبة وبرتقالة ، وإذا كنت غنيا وقادرا ابن له مستشفى.

* * *

يموت الزمار وأصابعه تلعب. فالعزف شكل موجات وجوده وحتما يظل يعزف ويعزف إلى آخر الرمق، فالمسألة ليست هزلا.. إن لها قانونا . وهكذا بدلا من الموت كفا وكفرا بأداء الدور.. أليس الأروع أن تظل تعزف، مهما بدا عزفك نشازا وشاحبا فحتما سيأتى اليوم الذى يعلو ويجبر الناس من صدقه على السمع، أو حتى إذا لم يأت اليوم...

فماذا تفعل؟

إنه وجودك، لا فكاك منه.

فشمس الشموسة قد طلعت.

وما أجمله من صباح!

سأجعله أسعد صباح عشته فى حياتى.

وسأقول لنفسى كل يوم سأجعل من هذا اليوم أروع أيام حياتى.

ولن أدع شيئا أبدا أو شخصا، يحيله إلى يوم قبيح.

الأمر صدر من إشعاعات الشمس الطازجة التى لا يزيد عمرها عن

ثمانى دقائق: قم وافعل شيئا تفخر به أمام نفسك وأولادك ويفخر به أحفادك، فأنت أعظم مخلوق فى هذا الكون الفسيح الذى لا تصدق أبعاده.

أنت أروع ما فيه.

أنت الكائن الوحيد القادر أن يكون إنسانا..

أتعرف ما هو الإنسان؟..

* * *

ملحوظة: رغم كل وأى أدوية أو عقاقير شفيت الجلطة من تلقاء نفسها.

الآن فقط متأكد أنها شفيت تماما.

ولكن المشكلة، بعد، قائمة.

فمازالت حبيس قدرى وموجاتى، مهما صرخت أو تحاييت أو تماوت أو مت، أيمكن أن يكون الحبيس سعيدا؟

حتى لو كانت حياته فى سجنه!..

أممكن أن يكون الحبيس سعيدا؟

الختان

بعد سلسلة من الميراث والتوريث، والقطع والبيع والموت والميلاد، آبت الجميزة العجوز إلى ساق ضخمة سميكة قصيرة، تنتهي إلى فرعين إثنين ورثهما الشقيقان محمد الهادى الكبير والهادى محمد الصغير. ونحن كنا أبناء محمد الهادى الكبير. وبمثل ما قسمت الجميزة بين الأخوين، قسم البيت الكبير أيضا. ولكن الجميزة العجوز كانت أروع ما فى طفولتنا كلها. أروع من ليالى القمر، وصيد السمك، ونزهات الحقل، ومشاهد الصراع الحافل بين زوجة عمنا وأمنا. كانت شيئاً خرافياً، نسأل عنه الآباء والجدات وعواجيز القرية فلا يدرون أهى نبتت «شيطانى» أم أن جد جد جدنا الأكبر الهادى الأول هو الذى زرعها؟ كانت مثار دهشتنا، مختلفة تماما عن أى كافورة أو نخلة، خشنة وقد حفر الزمن بأظافره وأنيابه فى ساقها الغليظة السميكة فصنع معه بروزات وشقوقا، وحفائر، وجروحا غائرات، وندوبا، ومسامير حدادى مدفونة صدئة. مشهد رائع وكأنما الزمن الذى عاشته، والتطورات التى حدثت لعائلتنا قد تجسدت مكتوبة ومحفورة على ساق الجميزة.

* الدوحة ٥ / ١٩٨٢ (من «العتب على النظر»)

المهم أننا ونحن فى تلك السن بدأنا نلاحظ أن فرعنا نحن، الذى ورثه أبى، دائما شاحب الأوراق، ذابل الأفرع، قليل الثمار حين وقت الثمر، فقير الأغصان لا يصلح أبدا لإخفاء صغير منا حين نلعب الاستغماية مع أقاربنا وبالذات أولاد عمنا الهادى، ونتخذ من الجميزة بفرعيها الهائلين الضخمين مكاناً للإستخفاء. كنا نتبارى فى الوصول إلى فرع عمنا لتسترنا أوراقه العريضة شديدة الإخضرار، وأغصانه شديدة الكثافة، وثماره التى كنا ننتهز فرصة الاختفاء وننهال عليها إلتهاماً، ثمار كبيرة، منفوخة بالطزاجة كالكرة الحمراء الحلوة.

الشجرة هى الشجرة والساق هى الساق الأزلية. والفرعان لهما نفس الحجم الهائل، ولكن شتان بين فرعنا الهزيل رغم ضخامته، وفرع عمنا الهائج بالأوراق والأغصان والثمر. نساء العائلة يقلن: إن المسائل أقدار، وإن عمنا الهادى هكذا «مبخت»،.. محاصيل أرضه دائماً أوفر، ولبن جاموسه أكثر، وعنزته دائماً تلد اثنين، بينما أبونا محمد الهادى يعزو الأمر إلى أن أباه «جدنا» كان يؤثر عليه عمنا، ولهذا وصّى له بالفرع الأحسن. ورغم حبنا لأبينا فبيننا وبين أنفسنا كنا لا نصدقه. فالفرعان متماثلان تماما فى الطول والحجم والارتفاع، بل إننا لنسمع أنه هو كان المفضل لدى جدنا وليس أخاه. ويقول لنا القائلون انهم لم يسمعوا فى حياتهم عن فرع فى جميزة واحدة، أو أى شجرة، أخصب من فرع، فالشجرة الأم أبدا لا تظلم أحدا من فروعها، فشريعة الكون كله العدل، والظلم شئ لا يعارفه إلا الإنسان وحده وبفعل الإنسان.

وكنت أنا أكثر الأولاد حيرة للأمر، حيرة كانت تدفعنى لتأمل الجميزة طويلا وكثيراً، بل كانت تدفعنى لمراقبة أبى وعمى كلما صعد

أحدهما إلى فرعه بشذبه، أو «يختن» ثماره، أو يقتلع غصنا كسرته الريح أو يد طفل شقى. أبى كان رجلا طيبا حقاً. كان كما يقولون لا يؤذى نملة. يصلي ويصوم ويعاملنا بسماحة، وعمرى ما رأيته غاضبا أو يقدح الشرر من عينيه، ولكنه كان يميل إلى الوحدة ولا يعرف جلسة الأصحاب، وما رأيته أبدا يهزل، أو سمعته يقهقه، أو يسهر، أو حتى يدخن. لا أقول على عكسه وإنما عمى الهادى كان غير هاد بالمرة، كان صاخب الوجود دائما معظم الأحيان مكشرا، ولكنه إذا ضحك زلزل الأرض بضحكه، غير أنه نادرا ما كان يفعل، فلم يكن يضحكه غير الشديد القوى الشدة.

كل ما فى الأمر أن الموقف كان يختلف حين يصعد أى منهما إلى الجميزة. فأبى لم يكن يحب الشجر، كان يظن أنه بظله الذى يلقيه على أرضنا المزروعة قمحا أو قطنا، يضعف الزرع ويمرضه. وكان لا يصعد إلى فرعنا إلا مضطراً، بل نادرا ما كان يلحظ وجود الجميزة أو يدرك أن موعد التختين قد حل إلا بعد أن يرى أخاه قد بدأ «يختن». وتختين الجميز هو تحضيره لعملية اللقاح ونضج الثمرة. حين يقارب حجم الثمرة حجم الليمونة الخضراء الكبيرة، لابد أن تشق بسكين حاد شقاً يفتح داخلها ويعرضها للهواء. وحين كبرت عرفت أن هذا الشق يسمح للهواء بالدخول والهواء يحمل حبوب اللقاح، وبهذا تتم عملية التلقيح وتبدأ الثمرة، كالأنثى التى حملت، تنتفخ، ويبدأ لونها الأخضر كلون وجنات العذارى، يحمر ويندمل الجرح.. ويستحيل الى شق أسود تجمد الدم الأخضر على شفتيه، والذى نتج عن عملية التختين، فى الوقت

الذى تستحيل فيه الثمرة إلى فاكهة ناضجة، يقطفها القاطف، أو تسقط من تلقاء ذاتها، وحين يأكلها ويأكل معها البذور إنسان أو حيوان أو جمل، ينشر البذور فى الآفاق ويتكاثر النوع، ومن جديد تعاد قصة الجميزة الشجرة.

كان أبى يقوم بعملية الختان كلها فى يوم واحد، وبصبر نافد، فإذا ضايقته ورقة عريضة اقتلعها، وكان لا يهمه أن يكون السكين حامياً، أو حتى الجرح نافذاً، حتى كان يخيل إلىّ أن الثمرات العذراوات تتألم. ولأنه يقوم بالعملية فى يوم واحد، فلم يكن يهمه عمر الثمرة، أو إن كان قد آن أوان تختينها، طفلة أو كبيرة هو يشق استدارتها وفى أى مكان يتراءى له، وينتهى من العملية ويهبط من فوق فرعنا وقد حفل وجهه بالعرق، ويلهث وكأنما كان يؤدى فريضة واجبة حمد الله أن انتهى منها. عمى بالعكس، يجئ من البيت غاضباً لأمر أو لآخر، يشرب سيجارته حتى ينفث غضبه، ثم يخلع جلبابه، ويقف تحت فرعه وشيئاً فشيئاً تبدأ ابتسامه ما، باهتة، لا تلبث أن تتعانق وتتسع، وعلى مهل يصعد الجذع المشترك، ثم يدلف الى فرعه كالعريس يدلف إلى غرفة عروسه. يمتحن الفرع بأوراقه وأغصانه وكأنما يطمئن على كل جزء منه. يلوى شفتيه ضيقاً إذا لمح إصفراراً أو ذبولا، ويتهلل وجهه فرحاً حين يلمح جنين غصن قد «بزبز» ومن جيب «الصديرى» يخرج مطواة قرن غزال سنها فى اليوم السابق على حجر الطاحونة، ومهما ضربت الشمس يافوخى وأنا أتفرج فلا أتزحزح وأنا أرى عمى الكشر صاحب المزاج المتغير دوماً وقد حفل وجهه بسعادة نادرا ما أراها يحفل بها

رجهه. بإصبعين يمسك الثمرة الخضراء. برقة يمتحنها حتى إذا أدرك أنها للختان حانت، فى سرعة الساحر يمر بسيف مطواته على مكان ختانها المضبوط، ثم يرنو إلى الجرح الباهر العميق الذى أحدثه فى ومضة، ويتأمل أعماق الثمرة الشاحبة الاحمرار والاصفرار، وربما يتفكر لهنيهة فى لونها حين يتأنث ويحمر ويتغير، وفى شكلها وحلاوتها حين تنضج، ويتركها لغيرها وكأنه يترك مائدة سعادة حافلة إلى مائدة حافلة ثانية قادمة.

ويظل أياماً وأياماً «يختن»، وكلما اعتلى الشجرة ثم هبط عنها وارتكن بجذعه إلى جذعها، كنت من بعيد أرقب شفتيه، وهى بشئ كالأغنية تترنم، ومزهواً يمشى إلى الترعة، حيث يغسل يديه ومطواته، ويصعد مرة أخرى إلى المصلى المفروش بقش الأرز، لا ليصلى وإنما لينام وملء وجهه تلك الابتسامة الغامضة التى لا أدرى لها سببا. وأتساءل وأنا من بعيد أرقبه: أهذا هو عمنا «الهادى» الذى يرعبنا دائماً حضوره وبتكشيرته يجعلنا، دون أن يأمر أو يكشر، عن لعبنا أو صراخنا نتوقف.

ولكن الغريب أن فرع عمنا مات من تلقاء نفسه، بينما فرعنا إلى لآن لايزال حيا. صحيح لم يعد يثمر ما يؤكل، فلم يعد أبى يقوى على طلوع الجميزة، وأولاده أصبحوا موظفين فى البندر،ولكنى مازلت أذكر كيف مات فرع العم. شيئا فشيئا بدأنا وقد كبرنا، نلحظ أن كثيراً من أغصانه تذبل والأوراق العريضة فى الأفرع الحية تضمر، ثم يموت الغصن وقد ماتت أوراقه، ثم إذا بالفرع كله يؤوب إلى جفاف رغم أن

ابنه طالب الزراعة فعل المستحيل ورجع إلى مراجع، وناقش الأساتذة، ولكن الفرع يظل سادراً في ضموره وجفافه رغم استماتة ابن عمي في علاجه، ذلك أنه كان يعتبره شيئاً من رائحة أبيه، عمنا الهادي، ذلك الذي كان قد مات. مات في ذلك العام الذي بلغ فيه فرعه منتهى ازدهاره، وثمره، حتى لقد شبعنا جميعاً من ثمره وباع عمنا منه عشرة أقفاص، حلاوة الثمرة منها تسكر.

في نهاية ذلك العام بالضبط مات عمي. وحين جاء العام التالي وجاء الربيع لم يحدث ما كان دائماً يحدث، فلا أغصان ازدهرت كما تعودت أن تفعل، ولا ثقل فرع عمي المرحوم بالثمر، وإنما الذبول والجفاف وتوقف الحياة. وفي العام الثالث مات الفرع مع أن الجميز عمره طويل جداً وبالكاد لا يموت شجره. والحق أن منظره وهو جاف هكذا ميتاً قد تحنطت أوراقه التي كانت ذات يوم ملعلعة الخضرة، كان يصيبنا باللوعة، ويصيب أبانا بالتعصب وهو- الذي لم يبك عمي كثيراً حين مات- كان حين يرى الفرع يتمتم لا حول ولا قوة إلا بالله وتحمر عيناه، وتهدد دموعه بالانبثاق.

وكانت مناحة من أولاده ومنا، يوم قرروا بيع الفرع خشباً، ووقفنا جميعاً نرى المنشار الضخم الغليظ وهو يقطع الفرع بكل حمله من أغصان ميتة.

وبقي فرعنا لم يمت، ضامر الأوراق، ضامر الثمر، حتى بعناه لأولاد عمنا الذين احترفوا مهنة الزراعة.

وفوجئنا ذات صيف أن فرعنا الواهن شبه الميت ذاك قد دبت الحياة في أوراقه وفروعه وثماره ، وزالت دهشتنا حين وجدنا ابن عمنا محمد الذى سمى على اسم أبى، ولكنه ورث خصال أبيه، وقد كادت أوراق الجميزة تحجبه عنا، ولكن عينىّ أبداً لم يفتهما أن تلاحظا أنه كان تماما مثل أبيه قد خلع جلبابه «وشمر» سرواله الطويل، وحفل وجهه بسعادة، وهو برقة يمسك الثمرة الخضراء ويعرف من أين بالضبط يختنها. وفى لمحة البرق وسرعة الساحر يمر بسيف مطواته قرن الغزال على مكان ختانها المضبوط، ثم يرنو إلى الجرح الباهر العميق الذى أحدثه، ويتأمل أعضاء تأنيثها الداخلية الحافلة بعذرية وبشحوب كشحوب البنات.

أبداً لم يفتنى منظره، وفرعنا يستجيب له ويخضر ويمتد ويمتلئ بعد هذا بالثمر الأحمر الناضج.

شجرة الجميز.

الفهـــرس

الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٢٢٤ / ٩٩

I.S.B.N 977 - 01 - 6429 - 1



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع 1999

مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشاب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة